© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشار التحرير: فيصل دراج

شارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: رفيف الأسمر
وليد زبيدي

تصميم الغلاف: زهير ابو شايب
التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٥» شتاء ٢٠١٤

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090904802525 10

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

٦ القصور الصيفية، القصور الزراعية، المناطير

الافتتاحية

٩ ثقافة الحرية والتنوير خيارنا

يحيى يخلف

أوراق عربية

١٣ مصر في الوجدان الوطني الفلسطيني

فيصل دراج

٦٩ مصر بعد الثلاثين من يونيه وآفاق المستقبل

فريدة النقاش

أوراق فلسطينية

٢٧ أبو عمار داخل المقاطعة المحاصرة ذكريات ليست كلها شخصية

أحمد قريع (أبو العلاء)

٤١ نحو رؤية فلسطينية جديدة للممارسة السياسية

جميل هلال

٥١ مسيرة التسوية السياسية ومصيرها

عبد الفتاح القلقيلي

٨٥ الثقة الاجتماعية والقانون

محمد عبد العزيز ربيع

٩٥ تأثير الحراك الديمقراطي العربي على الوضع الفلسطيني

فيصل حوراني

الملف الثقافي

١١٥ وحيد أنا، أيها الحب مختارات من الشاعر الكولمبي خوان مانويل روكا

ترجمة وليد السويركي

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

١٢٥ لا يشبهن الأميرات بشيء
أسماء عزايزة

١٣١ بورخيس..الشرق
في جدول أعمال غربي
غدير أبو سنينة

١٤١ باريس وأنا أو تضاريس
العلاقة الملتبسة
محمد حافظ يعقوب

١٥٩ اللغة في الخطاب الروائي
يحيى يخلف نموذجا
رياض كامل

١٨٣ محمود درويش في الثالثة والسبعين
..علي اللحاق بمترو الضواحي
الآخر في الأنا والأنا في الآخر
التوق الى الخفي
شتيفان ميليش
ترجمة ابراهيم أبو هشهش

أوراق من الذاكرة

٢٢٣ كارل عيسى صباغ:
أطياف الذاكرة والهوية الأولى
فيصل دراج

٢٢٩ عشتُ في زمن عرفات
عبد الفتاح القلقيلي

٢٣٥ علم التوثيق (حكايات ومفارقات)
نزيه أبونضال

القصور الصيفية، القصور الزراعية، المناطير*

تشكل القصور الصيفية والمناطير في الحقول التي كان يمضي فيها الفلاحون أشهرا محددة من السنة لفلاحة الأرض جانبا هاما من الإرث المعماري الفلسطيني.

وبنى المقتدرون والأعيان، بنايات تعتبر فاخرة، في أراضيهم الزراعية، من الحجارة المحلية، المثبتة بالطين، وتجسد فيها الكثير من الفنون المعمارية الفلسطينية التقليدية، ويظهر ذلك في الأسقف، والشبابيك، والأبواب والأدراج، وغيرها.

وعادة ما يتكون كل قصر من طابقين، الأول يضم عدة غرف، تستخدم، لإيواء الدواب، والحيوانات الداجنة البيتية، وتخزين المحاصيل، والثاني للاقامة.

وعدد هذه القصور، قليل، قياسا، لما يطلق عليه المناطير، ومفردها منطار، وهو، في الأغلب عبارة عن بناء اسطواني الشكل، ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار، وقطره أيضا ثلاثة أمتار، وفوقه، كان المزارع يضع عريشة من الحطب، والهدف من بناء المنطار، أن يمكث فيه المزارع بجانب كرمه، ويمكن، أن يراقب منه أيضا الكروم المجاورة.

وعادة ما يكون سمك جدران المناطير، كبيرا، ويصل في بعض الأحيان من ٧٠-١٠٠سم، وتحتوي بعض المناطير على أدراج داخلية.

ورغم ما يبدو من بساطة بناء المناطير، كما يظهر من الخارج، إلا أن الأمر داخلها اكثر تعقيدا، حيث حرص الفلاح، على توفير أماكن داخل الجدران الحجرية، لتخزين حاجياته، وإيجاد فتحات صغيرة، تمكنه من رؤية من في الخارج دون أن يراه.

***الصور من أرشيف رواق مركز المعمار الشعبي.**

تصوير ميا جروندال.

© من أرشيف رواق مركز المعمار الشعبي

ثقافة الحرية والتنوير خيارنا

بقلم: يحيى يخلف

بصدور هذا العدد تبدأ (أوراق فلسطينية) سنتها الثانية مواصلة نشر وتعميم المعرفة وثقافة التنوير، وتعظيم ثقافة الحرية والديمقراطية والكرامة والقيم الإنسانية وتعميق محتواها من خلال دراسات جادة لمفكرين فلسطينيين وعرب حازت على التقدير والإعجاب من قرّاء ونخب ومؤسسات،ووجدت المجلة تقديرا من مراكز ثقافية مرموقة اذ احتفى بها معهد العالم العربي في باريس، واحتفى بها أيضا معرض القاهرة الدولي للكتاب في دورته الأخيرة في كانون الثاني/ يناير الماضي، ومثل ذلك نجاحا لمؤسسة ياسر عرفات، واضافة نوعية لجهودها وانجازاتها الأخرى في رعاية الإبداع (جائزة الإنجاز) ،وتأسيس المتحف، وتوثيق تراث وأرشيف الزعيم والرمز ياسر عرفات، و تراث وتاريخ الثورة الفلسطينية.

وفي عام جديد نواكب مستجدات وتحديات سياسية تواجه القضية الفلسطينية، وتواجه المحيط القومي والإقليم وتواجه تغيّرا في سمات الوضع الدولي.

القضية الفلسطينية عالقة بين براثن السياسة الدولية، وبالتحديد براثن الولايات المتحدة التي رعت المفاوضات الفلسطينية منذ اكثر من تسعة عشر عاما دون تحقيق نتائج بسبب التعنت الإسرائيلي وانحياز الولايات المتحدة التي لم تكن راعيا أمينا،وها هي محاولتها البائسة في الآونة الأخيرة لوضع خطة اطار لمفاوضات الحل النهائي فيما يعرف بخطة وزير الخارجية(جون كيري)، لتفرضها على الطرفين، وما يرشح من تسريبات ومعلومات تؤكد انحيازاً اميركياً الى الأطماع الإستيطانية الإسرائيلية الرامية الى ادامة الإحتلال والإستيطان وتهويد القدس والأغوار والسيطرة

على المعابر وتصفية حقوق اللاجئين، وحرمان الفلسطينيين من حقوقهم المائية وارغامهم على الإعتراف بيهودية الدولة، وتحويل فكرة الدولة الى معازل غير مرتبطة جغرافيا، اي فرض اتفاقية اذعان، اتفاقية استسلام لن يقبل بها الشعب الفلسطيني ولن تقبل بها قيادته، وعندها تحمّل اميركا مسؤولية الفشل على الجانب الفلسطيني،وتسلط العقوبات على السلطة الفلسطينية. يحدث ذلك في غياب دعم عربي فعّال بسبب انشغال الدول العربية بقضاياها الداخلية، ولا يعني ذلك ان الشعب الفلسطيني قد فقد الأمل فما زال هناك مجتمع دولي واخلاقيات انسانية في العالم تدعمه وتدين السياسات العنصرية الإسرائيلية، وتدين المستوطنات وتقاطع منتجاتها وبضائعها وكل من يتعامل معها من مؤسسات اسرائيلية وتسلط عليها العقوبات، ويتمثل ذلك بقرار الإتحاد الأوروبي الذي وضع موضع التنفيذ منذ كانون الثاني/يناير ٢٠١٤، وكذلك اتحاد جمعية الأكاديميين الأميركية التي اتخذت قرارا بمقاطعة المؤسسات الأكاديمية الاسرائيلية واتهمتها بتنفيذ سياسات عنصرية والعديد من الجمعيات الأهلية المنتشرة في مختلف دول العالم. ومن المفارقة المؤلمة ان يقابل هذا التطوروالدعم والتضامن بصمت عربي، وبمواصلة تعطيل سلاح المقاطعة العربية مع اسرائيل والذي كانت له مكاتب في اطار الجامعة العربية ذات يوم.

إن تفعيل قرار المقاطعة في الدول العربية، يتماشى مع القانون الدولي فأوروبا سلّطت عقوبات اقتصادية واكاديمية ومصرفية على المستوطنات استنادا الى قرارت الشرعية الدولية التي تعتبر الإستيطان غير شرعي ويرقى الى جريمة حرب ،وستلحق هذه العقوبات باسرائيل خسائر قدّرها الخبراء بثمانية مليار دولارسنويا،ومن هنا فإن تفعيل المقاطعة العربية ستكون قانونية وشرعية امام المجتمع الدولي، ومن غير المعقول ان لا يجد القرار الأوربي صدى واستجابة في الوطن العربي، لذا فعلى النخب الفكرية أخذ زمام المبادرة لتأسيس جمعيات أهلية وشعبية تكرس جهودها لمقاطعة الإستيطان وتسليط العقوبات على اسرائيل ومستوطناتها،لسد فجوة التقصير الرسمي العربي.

* * *

ويشهد الوضع الدولي صراع القوى الكبرى في سباق كسب المصالح ومناطق النفوذ وصراع الإرادات، فالأزمات في دول ما أسميناه الربيع العربي صعّدت من هذا الصراع وفتحت الأبواب أمام لعبة الأمم،ووسمت السياسات الدولية بسمات عودة الحرب الباردة، الأزمة السورية نموذجا، فالصراع على سوريا من قبل الدول الكبرى هو صراع مصالح، وما لاحظناه في مؤتمر جنيف أن التفاوض لم يكن بين المعارضة والحكومة السورية بقدر ما كان بين الولايات المتحدة وروسيا،ووجدت روسيا من الأزمة السورية وسيلة للحفاظ على مصالحها ولاستعادة المكانة التي فقدتها بانهيار الإتحاد

السوفياتي،كما ان الولايات المتحدة ومعها حلفاؤها تدرك أهمية ومكانة وموقع سوريا الاستراتيجي في اطار مصالحها وسياساتها،لذا فالصراع على سوريا لم يعد خافيا على أحد ،وهو صراع يدفع ثمنه الشعب السوري الشقيق دما وترويعا وتهجيرا وقتلا وتدميرا ومجازر ومذابح.

ولا تتوقف التدخلات عند سوريا،فساحة الوطن العربي ميدان فسيح لهذه التدخلات والصراع على مناطق النفوذ والمصالح، فتحالف الولايات المتحدة مع الإخوان في مصر كان يهدف الى افراغ ثورة يناير من مضمونها وأهدافها في الحرية والكرامة والعدالة، وحماية مصالحها، وضمان أمن اسرائيل،ولذلك اعتبرت ثورة يونيو انقلابا عسكريا متجاهلة حركة الجماهير التي نزلت الى الشوارع نازعة الشرعية عن حكم الإخوان.

وما محاولة الدولة المصرية التوجه الى مصادر تسليح من روسيا الاّ عملا سياسيا يهدف إلى إحداث توازن في علاقات مصر الدولية،وهذا يذكرنا بسياسة جمال عبد الناصر الذي أقام علاقة ندية مع الإتحاد السوفياتي، وأسس في الوقت نفسه مع عمالقة عصره (نهرو، تيتو، سوكارنو) كتلة عدم الإنحياز، لكسر سطوة السياسات الاستعمارية المناهضة للتحرر الوطني.

* * *

تتكاثر التحديات الخارجية، وتزداد المعضلات والأزمات الداخلية في المنطقة العربية ، والطريق نحو الاستقرار والتنمية وتحقيق الأهداف التي قامت من أجلها الثورات تبدو طويلة ويكتنفها الغموض والوحشة والفوضى، والصراع الآن يتحدد بين ثقافة التنوير والحرية وبين ثقافة التكفير والإرهاب والتدخلات الخارجية،الصراع بين ثقافة الحياة وثقافة الموت،الصراع الآن على الوعي والمعرفة والحداثة وبين تغييب الوعي وتزييف المعرفة وانتاج الأصولية التي تستبطن السواد.

الصراع بين ثقافة التحرر الوطني وثقافة الاحتلال والعنصرية، بين ثقافة التنوع البشري الخلاّق وثقافة الانعزال والطائفية والمذهبية.. وفي هذا المشهد القلق والمرتبك ينبغي تعزيز ثقافة التنوير والحرية والوعي والمعرفة والتنّوع وثقافة الحياة، وهذا ما ندعو اليه، وهذه سياستنا الفكرية والثقافية في مجلتنا ، وعلى هذه الطريق نسير.

مصر في الوجدان الوطني الفلسطيني

د. فيصل دراج *

أسباب متداخلة علّمت الفلسطينيين أن مصر ظهير لهم، وجعلت المصريين يؤازرون القضية الفلسطينية ويقدمون لها الدعم المتاح. هناك التاريخ، في حكمته الخاصة، الذي شدّ الطرفين إلى بعضهما، منذ أن جاء إبراهيم باشا إلى فلسطين، في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، إلى حرب ١٩٤٨، التي قاتل فيها الجيش المصري بأسلحة فاسدة. في هذا التاريخ جغرافيا، هي ظل له، تصل مصر بجنوب فلسطين وتعيّنه معبراً، لا بدّ منه، إلى الشرق، وتعطي الجنوب الفلسطيني، المنفتح على سيناء، مجالاً للحركة، إن كانت الشروط ملائمة.

احتوى المعطى التاريخي ـ الجغرافي بعداً ثقافياً، لم يختره أحد، ضمنته وحدة اللغة والدين وإشارات ثقافية، تقصّر المسافة بين جامع الأزهر والحرم الشريف، وتجعل صورة مصر أليفة ومألوفة في المتخيّل الفلسطيني. وسواء أكانت الرابطة القومية، أو ما يدعى بذلك، واضحة أو مجزوءة الوضوح، فقد رأى الوعي الفلسطيني في مصر عمقاً فلسطينياً بقدر ما أدرك المصريون أن في فلسطين امتداداً لهم. لم يأتِ الأمر من "المصير المشترك"، بلغة خطابية، بل تجلّى معطى تاريخياً أقرب إلى البداهة، صاغته الثقافة والجغرافيا، وأقدار الفلسطينيين الفاجعة.

حفظت ذاكرة الفلسطينيين، منذ نكبتهم، معادلة أملتها التجربة، قرّر حدها الأول أن الفلسطينيين هم الطرف الأضعف في معارك "الشرق الأوسط"، أكانت هذه المعارك من أجلهم أو ضدّهم، وأكّد

* ناقد فلسطيني

حدها الثاني: أن مصر هي العنصر الأقوى في هذه المعادلة الصعبة، وأن طموحات الفلسطينيين الوطنية، مقبولة كانت أو متواضعة، لاحظّ لها من التحقق إلا بدعم مصري. لم يتكئ الفلسطينيون، وهم يتأملون معادلة مؤسية فرضها غيرهم، على "قوة الموروث" والمصائر المشتركة، بل اهتدوا بتجربة اللجوء، وبتضحيات الجيش المصري المتواترة.

تعلّم الفلسطينيون، من تجاربهم اليومية والدامية، أن مصر هي مركز القرار العربي، وأن غيرها من "المراكز" لا يصبح فاعلاً إلا بها، حتى لو كانت هذه "المراكز" صادقة، وهو أمر أقرب إلى الاحتمال. أنطق هذا الإدراك بعض الفلسطينيين بجملة لا تفتقر إلى الصحة: "إن مصر هي العاصمة العربية الوحيدة، والباقي أقاليم". اعتمد هذا البعض على خبرته، وعلى حسبان سياسي قوي الذاكرة، مؤمناً بأن تحرر الشعب العربي من تحرر مصر، وأن نصرة القضية الفلسطينية بحاجة إلى إرادة عربية متحررة. والمسألة كلها ماثلة في التحرر العربي المنشود، الذي استيقظ أكثر من مرة وغفا.,

تقول دروس التربية الراشدة: لا يحصل التلميذ على تعليم نجيب، إلا إذا كان معلّمه نجيباً. ويأتي السؤال سريعاً: من أين يأتي المعلم النجيب؟ وقد يجيب الفلسطيني الذي يميّز بين "العاصمة والأقاليم" ويقول: المعلم قائم في إمكانيات مصر الكبيرة والمتعددة، والمعلم النجيب قائم في الشعب المصري، الذي يمحو الخطأ بالصواب، ويرد على المعادلات الظالمة باقتراحات عادلة، مثلما برهن أكثر من مرة.

في الثورة المصرية القائمة، والمستمرة منذ ثلاث سنوات وأكثر، ما يعبّر عن إرادة فريدة، مجلاها ومرجعها وصانعها الإنسان المصري البسيط، الذي تراكمت في وعيه ولا وعيه خبرة سبعة آلاف عام. كان الجغرافي المصري الكبير جمال حمدان قد وضع كتاباً هائلاً عنوانه "شخصية مصر ـ دراسة في عبقرية المكان"، قائلاً، بهمس أو بصوت عالٍ: "إن طبيعة الشعوب من طبيعة المكان الذي تعيش فيه". اشتق الجغرافي الراحل وطنية المصريين من جغرافية مصر وتاريخها، تاركاً للفكرة " الفلكلوري" التحدث عن "قوة الإيمان المجرّد" و"عزيمة الأيدي المتوضئة"، التي تسوّق الإيمان أحياناً، وتحوّل "الوضوء" إلى تجارة مربحة.

في الثورة المصرية التي احتشد فيها قهر طويل، ما يعطي أملاً جديداً للفلسطينيين الذين وقع عليهم قهر فادح، منذ سبعة عقود تقريباً.

١ـ مصر: معايشة القهر والانتصار على الانتظار:

قوة كل شعب من الموروث الذي يتكئ عليه، ويعمل على بعثه وترهينه. ويتكشّف الموروث متميزاً حين يكون مسكوناً بـ: سبعة آلاف عام، وبروح شعبية متمردة عنوانها: مصر الخالدة.

حين ضاق محمد حسين هيكل ببؤس الفلاح في ريف مصري كريم استذكر، في روايته "زينب"، جيوش الشمس، جيوش مصر القديمة، التي صوّرها نجيب محفوظ الشاب، بروح وطنية حاشدة، في روايته: "حصار طيبة"، حيث طرد المصريون "الهكسوس"، بعد عقود طويلة من الاحتلال. استجار هيكل، الباحث عن مصر حديثة، بخصوبة الريف وصلابة الفلاح وبأطياف حضارية عبث بها "العنصر التركي" قروناً، بلغة طه حسين.

وحين سقطت الكآبة ثقيلة على محفوظ الشاب، وهو يرى إلى مصر محكومة بإرادة إنجليزية استعمارية وملك غريب الأصول، عاد إلى النور القديم المتاح، كما قال، مستذكراً مجد الفراعنة، الذي استوى شاهقاً فوق أرض النيل. استأنس الروائي بالماضي كي يشرح الحاضر ويتحمّله، وبحث عن ضوء يخفف العتمة القائمة. كان يؤمن، حال مواطنه هيكل، بقوة التاريخ، ويؤمن أولاً بقدرة المصري على استئناس التاريخ القديم وبعثه في الحاضر. كان لديه ما يتكئ عليه، في ظروف الشدّة، وما يختبر به المصري في الحاضر الذي اختبره الماضي، وخرج من الاختبار ناجحاً. ولم يكن الحال مختلفاً لدى توفيق الحكيم، في روايته "عودة الروح"، الذي ذهب إلى أركان التاريخ المصري واستعاد حكمة: "الواحد في الكل، والكل في واحد"، إذ في طموح المصريين ما يوحدهم، وفي "خصوصية الشعب المصري" ما ينصره.

أنتج هيكل والحكيم ومحفوظ أعمالاً أدبية، وكانوا روّاداً في مجالهم، وصوّروا في كتابتهم "روح مصر"، في أحوالها المختلفة، تلك الروح القديمة المقاتلة الصابرة القنوعة الموحدة والمتأهبة للنهوض بعد انتظار. ارتكنوا إلى ما كان واشتقوا منه ما سيكون، ولم يستعيروا افكاراً خارجية، إلا بقدر ما تقبل به مصريتهم، واطمأنوا إلى ما كان وإلى ما سيأتي وانتظروا من المصريين أن يستأنفوا حضارة متعددة الأزمنة. رسموا وطنية الشخصية المصرية، التي تتعاقب عليها السنون وتحتفظ بجوهر قديم، وقرأوا: الوطنية المصرية في تشجرّها العنيد، الذي يقول إن المصري لن يكون غيره، وأنه في صبره وكياسته حريص على استقلاله، وأن استعداده للدفاع عن كرامته لا ينام.

انطوى التاريخ المصري، في أزمنته المختلفة على أطوار ثلاثة: القهر والصبر المقهور، والأنتظار المرهق ومعاناته، والخروج من القهر المتراكم إلى ثورة شاملة توحد بين المدن والريف، وبين أبناء الشعب المصري جميعاً، حال ثورة ١٩١٩، وحال الثورة القائمة اليوم، التي ازاحت عن كرسي الحكم حاكمين، مختلفين في الحسبان والكلام، ولا يختلفان كثيراً في خنق مصر والعبث بمقدراتها. وإذا كان في هاتين الثورتين ما استند إلى موروث شعبي ـ وطني متعدد الطبقات، فإن الوطنية المصرية الفاعلة اختبرت ذاتها في معاركها الخارجية، وفي مواجهاتها مع سلطات محلية، كانت تتحدث عن الشعب وتغتصب حقوقه. استلهمت هذه الوطنية الموروث وعاشته مؤكدة، بين فترة وأخرى،أن الوطنية فعل نقدي

متمرد، قبل أن تكون امتداداً لمتواليات "الحكايات والسير"، الممتدة من مقاومة "حملة بونابرت "إلى أدهم الشرقاوي.

في استذكاره "جيوش الشمس"، كان هيكل الشاب يوجه تحية مضمرة إلى "القوة العسكرية المصرية المنتظرة"، كما لو كان يقرأ مصر في فلاحها، ويقرأ "مصر المحروسة" في قوتها العسكرية عارفاً بحسبانه العقلاني التنويري، أن "فلاح الشمس" لا تستقيم أحواله إلا بجندي مصري مستعد للتضحية ورفيع الانضباط. وهذا الجندي، الذي أضعفته أسباب سلطوية مختلفة، هو الذي سيحارب في فلسطين عام ١٩٤٨ ويخرج غاضباً، ويعاود حربه عام ١٩٥٦ ويسترشد ببطولة "بورسعيد"، ويستأنف المعركة عام ١٩٦٧، إلى أن يحقق ذاته، داخل المعركة، عام ١٩٧٣، وينتظر نتائج سياسية ـ وطنية ترتقي إلى تضحياته.

ومع أن الحروب، التي ضحي فيها المصريون بالكثير، ارتبطت بسياقات متعددة، فان إسرائيل كانت موجودة فيها جميعاً: موجودة حين اغتصبت فلسطين ودفعت بالجيش المصري إلى حرب لم يتهيأ لها، وموجودة حين هندس بن غوريون مع غيره العدوان الثلاثي، وحاضرة مستعدة ومبادرة في حرب "الأيام الستة"، وقائمة بلا مبادرة في "حرب العبور" التي كادت أن تنزل بالإسرائيليين هزيمة مدوّية وغير متوقعة ، لم يعتادوا عليها، لولا عنف التدخل الأمريكي.

شكّلت مصر ، بالفعل والقوة، بلغة الفلسفة علاقة داخلية في القضية الفلسطينية، ذلك أن الاستراتيجية الصهيونية، القائمة على التوسع وعقيدة التفوق والغلبة، فرضت من إسرائيل علاقة داخلية في "المسألة المصرية". فإسرائيل تعرف، منذ ولادتها المصطنعة، أن "مصر الضعيفة" شرط لتمددها المستريح، بقدر ما يدرك الوعي الوطني المصري أن إسقاط المعادلات الصهيونية شرط لنهضة مصر وازدهارها. واعتماداً على هذا الوعي خاض الجندي المصري"حروباً أربعة"، تركت آثارها على المدن والريف والثقافة وأشكال الفكر، وعلى الذاكرة المقاتلة المصرية، التي نطق باسمها الراحل أمل دنقل في قصيدته: لا تصالح.

في هذا المسار المرهق، الذي سكن الذاكرة الوطنية، قدم الإنسان المصري من التضحيات ما استطاع تقديمه وتعلّم أن وطنيّته الفاعلة من "مصر القوية"، التي يعيش فيها وبها ومعه، فمصر المنشودة لا تأتي وحدها إلى أحد، إنما يذهب إليها "أبناء النيل"، بطرق مختلفة، تجمع بين العلم والسلاح، وبين العقل والدين، وبين الغايات والسبل المفضية إليها. لم ينتظر المصريون أحداً يذكّرهم بالمسألة الفلسطينية، منذ أن أصبحت جزءاً من وجودهم المادي والمعنوي.

٢ـ فلسطين في الذاكرة الثقافية المصرية:

ما جاء مبدع مصري إلا وكانت فلسطين حاضرة في نصه، بشكل واضح أو مضمر. ولا ضرورة للوقوف على الأسباب، التي يتمازج فيها الإنساني ـ الأخلاقي والعروبي والديني والوعي العفوي والتجارب العملية، والوعي السياسي القائم على التفسير والتحليل وصولاً إلى لغة يومية، أدخل فيها العهد الناصري مفردات كثيرة.

نبّهت القدس، في رمزيتها الدينية، وبعد وعد بلفور عام ١٩١٧، شعراء مصريين، أيقظهم الخطر الصهيوني فاستجاروا بالخليفة عمر بن الخطاب، ونادوا بحماية "المدينة المقدسة". وبعد سقوط فلسطين، بلغة اليهودي الأمريكي العادل نورمن فلنكشتاين صاحب كتاب "صناعة الهولوكست"، كتب علي محمود طه "نشيد الشرق"، الذي غناه محمد عبد الوهاب، في انتظار شعراء حداثيين، انتمى إليهم صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي، و"عبد الرحمن الشرقاوي حين "كان يحاول أن يكون شاعراً"، وانتمى إليهم في فترة لاحقة شعراء كثيرون منهم: أمل دنقل. ولم يكن حال "شعر العامية"، كما يقال، مغايراً، أكان ذلك في "رباعيات" صلاح جاهين، الرومانسي الحالم الذي "له رائحة العسل"، أو أشعار فريد حداد، الذي أراد أن يكون شعره هو "الشعر في ذاته"، وأحمد فؤاد نجم، الذي أنار طريقه الأعمى البصير الشيخ إمام، وقال في بداية "عهد مرسي": "لقد سرق الإخوان الدولة لكنهم لم يسرقوا الثورة"، وكان مصيباً.

لا تقبل البداهة بالمرور على المفكرين المصريين، الذين حللوا المزاعم الصهيونية ونددوا بها، بعد أن غدا هذا الموقف "شبه قاعدة"، وفي أزمنة الصعود الوطني بخاصة. فقد أضاء لنا الأستاذ حلمي النمنم، في كتابه "طه حسين والصهيونية" "زاوية غير معروفة"، أنزل بها مرتزقة "الإيمان والإيديولوجيا" عبثاً كريهاً، حين اتهموا، بغية مكاسب ومآرب متعددة، السيد العميد بالاقتراب من الصهيونية. وشرح عباس محمود العقاد معنى الصهيونية حين كتب مقدمة لكتاب: "بروتوكولات حكماء صهيون"، وربط بين "المذهب الصهيوني" ومراجعه الدينية. بين مقالات السيد العميد، منذ مطلع ثلاثينات القرن الماضي ومساهمة العقاد في مطلع خمسيناته، ارتفعت في مصر أصوات ماركسية، اعطت العداء للصهيونية شكل العقيدة، فنشر أحمد صادق سعد عام ١٩٤٤ كتابه: "الصهيونية"، ونشر أنور كامل، في مجلات ماركسية، دراسات عن الفكر الصهيوني في عامي ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ صدرت بعد عقود في كتاب عنوانه: "صفحات من اليسار المصري". استأنف أديب ديمتري هذه الجهود، في سبعينات القرن الماضي، ونشر: "الماركسية والمسألة اليهودية"، إلى أن كتب عمله الكبير: "تحطيم العقل" مقارناً بين الصهيونية والفاشية والايديولوجيات العنصرية والظلامية المختلفة.

لم يصدر موقف طه حسين عن ليبراليته العقلانية المتسقة، ولم يأت موقف العقاد من ليبراليته الإنتقائية، وهو الذي صاغ مسار الزمن فكره أكثر من مرة، ولا عن ماركسية متفتحة أو شبه مغلقة، بل عن روح مصرية تعرف الفرق بين الظلم والعدل، وتدرك أن "الفلسطيني فقير واقف في العراء"، لا يخشى الذهاب إلى فلسطين، بل يخاف من "حفر عميقة"، تعترض طريقه قبل الذهاب إليها. والأساسي في هذا ، مهما تكن الأحوال، هو موقف "الروح المصرية"من فلسطين، الذي يتضمنه ما هو قومي ويتجاوزه، وينطوي على ما هو ديني ويفيض عليه والمقترن بعفوية "الفلاح الفصيح"، الذي يعرف ما يجب وما لا يجب، دون حاجة إلى مواعظ وفتاوى وبلاغة تلوذ بالمقدس وتتاجر به.

في كتاب له طعم الذكريات عنوانه: "كناسة الدكان"، مرّ يحيى حقي على صور جنود مصريين، ذاهبين في اتجاه فلسطين أو عائدين منها، ومزج الحروف بالدموع. وفي "أصوات الليل" رسم محمد البساطي، الوديع الضاحك المقتصد اللغة، "ريفياً مصرياً" شهد حروب فلسطين المتلاحقة، وانتهى كسيراً تحت ثقل التعب والذكريات. ورضوى عاشور تأملت مصر وفلسطين في "أطياف" وسعت إلى استنهاض الفلسطينيين في روايتها: "الطنطورية"، التي جمعت بين التوثيق والمتخيّل وتفائل مستريح، سوف تأتي به الأيام، ربما.. كانت في أطياف رضوى صور الأديبة المقاتلة لطيفة الزيات، التي عملت مع غيرها ضد "التطبيع"، "وخالفت تعاليم الحكومة" وانتهت مع غيرها، إلى "سجن للنساء" حكت عنه في روايتها "حملة تفتيش"، حيث التفتيش في زمن الشيخوخة يبدأ بالنفس، قبل أن يدهم "عسس الحكومة" الأوراق والكتب ويفتشوا ثنايا العقل والضمير.

ما الذي دعا يحيى حقي، الرقيق المولع بالموسيقى، إلى إيقاظ صور تستدر الدموع، ولماذا جمع محمد البساطي بين أحزان مصر وفلسطين والعراق في عمل رهيف الصياغة، وما الذي جعل لطيفة الزيات فلسطينية المنظور، ولماذا انجذب ابراهيم عبد المجيد وصنع الله إبراهيم وغيرهما إلى قضايا الفلسطينيين؟.تذهب ألـ "لماذا" هذه إلى جميع الأدباء المصريين، روائيين وشعراء، وتظفر بإجابة سريعة، يعرفها الأدباء المصريون ولا ينتظرون أحداً، أكان "عالماً" متعالماً يرفع راية الإيمان كي يحجب دور مصر، أو "مفكراً تلفيقياً" يدافع عن مصر ولا يعترف بإرادة المصريين.

لا سبب عند المصريين، حاضراً أو ماضياً، يدفعهم إلى خذلان فلسطين، ليبراليين كانوا تحرّكهم مصريتهم، أم يساريين وطنيين ورثتهم الماركسية العداء للصهيونية، أو بسطاء يؤمنون بـ "الأديان السماوية" ويفصلون بين الظلم والعدالة. ومع أن تاريخ" مصر الدولة "لم يساوق، دائماً، طموحات الفلسطينيين، بسبب "تبعية"، إلزامية، أو مختارة، فصّل أسبابها سمير أمين في أكثر من دراسة، فقد حافظ المصريون على موقفهم من القضية الفلسطينية، مدركين الفرق بين زمن السلطة التابعة وتاريخ مصر التحرري الطويل.

ينهي بنيامين نتنياهو كتابه "مكان تحت الشمس" بـ"حقيقة مدهشة" تقول : "عندما طلب فريدريك الأكبر من طبيبه أن يأتيه ببرهان عن وجود الله، اكتفى بالقول: إن وجود اليهود هو الدليل على وجود الله". والله لا علاقة له باغتصاب فلسطين، ولا بولادة إسرائيل وإمكانية استمرارها. لهذا أتى الجيش المصري في "حرب أكتوبر"، ببرهان مغاير، حين أنزل بدولة "أرض الميعاد" هزيمة واسعة.

٣. الفلسطينيون وخزانة الرموز المصرية

أصالة الشعوب من رموزها، واصالتها الأكيدة من استمرارية الرموز وتجددها. ولمصر أصالتها في الحالين، منذ أن وهبتها الطبيعة نهر النيل، وغدت مصر هبة له، ومنذ أن شيّد الفراعنة الأهرامات والآثار المهيبة، إلى أن جاءت "قاهرة المعز"، وأفردت مكاناً لبناء "جامع الأزهر". عرف الفلسطيني العادي مصر المتخيلة، قبل مصر الواقعية، منجذباً إلى رموز متشجّرة، وإلى هالة لها ملامح دينية، إذ نهر النيل "ينبع من الجنة"، أو من "سدرة المنتهى"، كما كان يقول المدرّسون من أهل الريف الفلسطيني، وإذ الأزهر حافظ للعلم وتاج له، يكسو الدارس فيه وقاراً وهيبة، والهرم عنوان مجد قديم، وإذ في "قاهرة المعز" أكثر من قاهرة، كما في عبد الناصر البكباشي الريفي الأصول وعد بإرجاع "اللاجئين" إلى ديارهم. كان إرسال "الولد الفلسطيني" لطلب العلم في القاهرة حلم العائلات الميسورة وكان حلم العائلات الفلاحية "عالماً أزهرياً"، باركه علمه وأنطقه بلغة عربية خاصة. كان الفلسطيني، ولا يزال، يعرف مصر من رموزها، ويستمد من رمزيتها ثقة قائمة أو مؤجلة. أكدّت الثورة القائمة الرموز المعروفة، وأضافت إليها رمزاً جديداً، عنوانه "ميدان التحرير". انتظره فلسطينيون يتطلّعون إلى "مصر القوية".

عاش الفلسطينيون صور مصر الواقعية والمتخيلة، في خمسينات القرن الماضي وجزءاً من ستيناته، مرتين: فمصر بلد تسبقه رموزه، وتسبق أهميتها الدول العربية مجتمعة، وهي بلد كتب زعيمه عن "فلسفة الثورة"، وتحدّث عن فارس تائه ارتاح، أخيراً، على ضفاف النيل وحمل معه وعوداً كبيرة فيها مكان لقدس محررة. ما من بيت في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين إلا وتصدّرته صورة الرئيس عبد الناصر، وما من بيت إلا وبكى رحيله، واحتفظ بصورته، التي عادت، وقد علتها صفرة وشحوب، في مظاهرات اللاجئين إثر انتفاضة فلسطين الكبرى عام ١٩٨٧. كان محمود درويش قد عبّر عن "الوجد الفلسطيني"في علاقته بمصر المنشودة، حين قال "وكأن النيل تمثال من الماء استراح إلى الأبد". لم تكن استراحة النهر، الذي لم يسترح، إلا حديثاً عن "اليتم الفلسطيني" الذي وقع على اللاجئين حين "ظنوا" أن مصر خذلتهم وذهبت إلى جهة أخرى. لم يكن في الرثاء ما يخالف "حقيقة

ما"، منذ أن اقتنع الفلسطيني العاقل أن مآل قضيته من يقظة مصر ومن "سباتها" الذي يفقر العرب جميعاً. ولهذا تبدو ثورة يناير، كما ثورة يونيو التي تلتها، واقعة تاريخية مصرية، بقدر ما هي واقعة فلسطينية وعربية. ومن المحقق أن ما يحدس به الفلسطينيون يعود إلى "تجارب عملية"، بعد أن عرفوا بعد "الخمسينات الواعدة "عقوداً خانقة"، زادت شتاتهم شتاتاً، وأشعلت النار بخيامهم البائسة. تلا رحيل عبد الناصر شعور فلسطيني بالهوان.

لمصر في الذاكرة الثقافية الفلسطينية موقع لا يجاريها فيه غيرها من الدول العربية، منذ أن اختارها "المثقفون الأحرار"، عرباً وفلسطينيين، ملاذاً لهم، وأدركوا أن مصر مرجع "القول الثقافي" ومكانه الصحيح. فقد نشر الفلسطيني اللامع روحي الخالدي، رائد "النقد الأدبي المقارن" كما يقال، كتابه : "تاريخ علم الأدب عند الإفرانج والعرب وفيكتور هوكو"، عند دار الهلال في مصر عام ١٩٠٤، ومنع اسمه عن الطبعة الأولى خوفاً من السلطان عبد الحميد. واختارها خليل السكاكيني ملجئاً، حين ترك منصبه التعليمي في فلسطين، احتجاجاً على مندوب سامٍ يهودي وصهيوني معاً. عاد السكاكيني إلى مصر قبل سقوط فلسطين، حين اختاره طه حسين وغيره عضواً في "المجمع اللغوي العربي في القاهرة"، ورجع لاحقاً إلى العاصمة المصرية، مودعاً وطنه ومكتبته، ليعيش سنوات قليلة ويرحل. وكان غيره من الأدباء يتصلون بمصر عن طريق مجلة أحمد حسن الزيّات "الرسالة" وينشرون فيها، حال "إسعاف النشاشيبي"، الذي أراد أن يكون أديباً صعلوكاً في زمن لا يسمح بالصعلكة. أما اسحق موسى الحسيني، خرّيج كمبردج، فنشر في مصر روايته الوحيدة "مذكرات دجاجة"، في أوائل أربعينات القرن الماضي، سائلاً طه حسين المباركة والتعريف، الذي لم يضن عليه بمقدمة مريحة. وستعود الفلسطينية عنبرة الخالدي لتسأل السيد العميد مقدمة لكتابها عن "الإنياذة"، عارفة أن صاحب "الأيام" لا يمنع دعمه عن أحد، وأن اعتراف أديب مصري كبير بها مدخل إلى اعتراف أكثر اتساعاً.

حين أراد جبرا إبراهيم جبرا، في سيرته الجزئية "البئر الأولى" أن يذكر عناصر ثقافته، في أيام الصبا، أشار إلى مجلة "الرسالة" وإلى طبعة مصرية لكتاب "ألف ليلة وليلة" ولم ينسَ، في أكثر من مكان، "أيام" طه حسين وكتب إبراهيم المازني. والواضح لدى هؤلاء المثقفين جميعاً ماثل في : الاعتراف والانتساب، فالذين يعترف بهم المصريون يعترف بهم في فلسطين وغيرها، بقدر ما أن الانتساب إلى "الثقافة المصرية" شهادة على أديب حقيقي. من الممكن في هذا المجال قراءة أفكار خليل السكاكيني، المربي الديمقراطي والعقلاني واللغوي النبيه، على ضوء أفكار طه حسين، الذي علّمه أن الإنسان المفيد محصلة لتكامل الفردية المتحررة والمعرفة.

ومع أن أسماء الخالدي والسكاكيني والحسيني تردّ إلى فلسطين ما قبل ـ النكبة، حافظ المثقفون

المصريون، بعد النكبة، على رعاية الفلسطينيين وثقافتهم، وحافظ "هؤلاء اللاجئون" على وحدة الاعتراف والانتساب. قرأ فلسطينيو الشتات ديوان الشاعر معين بسيسو "الأشجار تموت واقفة" في طبعة مصرية، وقدمت دار الهلال "سداسية الأيام الستة" لإميل حبيبي للقراء العرب والفلسطينيين، وقام الراحل رجاء النقّاش بالتعريف بمحمود درويش الشاب في كتاب صدر عن دار الهلال أيضاً. كأن في روح مصر ما يحتضن "روحي الخالدي"، في مطلع القرن العشرين، وما يحتضن غيره بعد سبعة عقود وأكثر.

شدّت رمزية القدس المصريين إلى "المسألة الفلسطينية" في طور منها، وشدّت رمزية مصر الفلسطينيين إليها في الأطوار جميعاً، أكان ذلك على المستوى المعنوي ـ الثقافي، أم على مستوى عملي ـ كفاحي اقتنع به الفلسطينيون، قبل التجربة وبعدها. فرئيس "حكومة عموم فلسطين" أحمد حلمي باشا التي تأسست عام ١٩٤٨، أنهى حياته في القاهرة، ووضع مكتب "الحكومة" تحت تصرف "رابطة طلبة فلسطين في القاهرة"، الذي كان يشرف عليه الراحل ياسر عرفات، وعبد الناصر هو الذي قال، عشية ولادة منظمة التحرير عام ١٩٦٥: "لقد ولدت هذه المنظمة لتعيش". والأمر في التحديد الأخير لا ينفصل عن الذاكرة العادلة والتحليل التاريخي ـ السياسي الصحيح الذي يخبر الفلسطينيين أن ضعف مصر يضيّق فعلهم السياسي، ويجعل أفق قضيتهم أكثر ضيقاً.

٤. مصر وولادة تاريخ جديد:

تأمل الفيلسوف الفرنسي الكبير آلان باديو ثورة مصر، وكانت في بداياتها، وكتب مقالة عنوانها : التاريخ يولد من جديد. لم يكن بإمكانه، وهو المتعدد والمتردد والرافض للعولمة المتوحشة والمعادي لدولة إسرائيل والصهيونية، أن يختار عنوان مقالته، لو لم يكن مقتنعاً بأمرين: أن التاريخ يولد من وقائع نوعية فاصلة، تطرد زمناً وتدشّن زمناً جديداً، لن يسمح بعودة ما كان مسيطراً قبله. وأن مصر في تاريخها الوليد تنتج معه وبه "مجالاً تاريخياً" يمس مصر وغير مصر في آن. كان يفكر بالأبعاد الكونية للثورة المصرية، التي إن نجحت في مصر استولدت ثورات لاحقة، لن تترك العالم كما كان. ربما كان وعي الفيلسوف بهذه الحقيقة، كما وعي خصومه بها، هو الذي يفسّر "السعار العجيب" الذي ردّت به الإدارة الأمريكية وشركاؤها على التحوّلات الأخيرة في مصر، ذلك أن "ركود مصر"الموطّد بمنظور متخلّف تابع" ضمان "استقرار المنطقة"، الذي يعني "استقرار المصالح الغربية".

رأى الفيلسوف الفرنسي في "ميدان التحرير" مجازاً للمكان الثوري، الذي يوسع التمرد رقعته، ويستولد منه زمناً جديداً متدافعاً مفتوحاً، ينشد هدفاً يتضمن بالضرورة أهدافاً متعددة. وميدان

التحرير هو "الجماهير الثائرة"، التي تحتله لتحرّره، وتبني فيه ثورة مبدعة، مثالها في ذاتها، ولا تركن إلى مثال سبق. لا غرابة أن تكون الثورة المصرية متحررة من "النماذج السياسية السابقة"، ومتحررة أكثر من الأيديولوجيات "الجاهزة"، وأن تسترشد بأمر محدد: وحدة الأهداف العملية والفعل اليومي، فهي ثورة من أجل تحقيق "الحاجات الإنسانية اليومية"، التي تتضمن الخبز والحرية والكرامة الوطنية، ولا تهجس بنموذج سياسي معطى، ليبرالي المضمون كان، أم "عودة إلى خلافة متوهّمة"، لا مجال لعودتها على أية حال.

أنجز المصريون ثورة على غير مثال، لا تزال قيد الإنجاز، وقرأ فيها الفيلسوف الفرنسي ملامح لثورة كونية قادمة.

في "عودة التاريخ"، الذي يعني سقوط مرحلة ونهوض مرحلة مغايرة، ما يذكر برواية الحكيم "عودة الروح"، التي فصلت بين الحياة والموت، ورأت حياة مصر في شعب تمرّد على قيوده وانطلق إلى المستقبل. لا يعود التاريخ إلا بثورة، تقهر الزمن الميت بزمن فاعل، ولا تعود الروح إلا بشعب افتدى كرامته بروحه، وآمن أن في مصر الراكدة والمحروقة العروق مصراً أخرى لها آثار فاعلة في الداخل والخارج. ذلك أن قوة مصر في خارجها من قوتها في داخلها، وأن داخلها، حين يصبح قوياً، يعيد ترتيب "القيادات" في مصر والشرق الأوسط والعالم العربي والعالم بأسره. أدرك الجغرافي الراحل جمال حمدان جدل الداخل والخارج، حين برهن أن "المكان العبقري" محدد جغرافياً وعسكرياً واستراتيجياً، وأن لمصر عبقريتها المكانية الكامنة، التي تبدو جلية حين تصحو.

انطلاقاً من جدل الداخل والخارج، المرتبط بمصر قوية، لا يكون التزام مصر بفلسطين شأناً قومياً، بلغة شعاراتية لا تنقصها البلادة، ولا إلزاماً دينياً، بلغة متدروشة شاردة، ولا واجباً أخلاقياً بلغة لا معنى لها، بل يكون هذا "الالتزام ـ الإلزام" شأناً مصرياً، تمليه مصلحة مصر، التي تحتاج إلى "فضاء حيوي" يليق بإمكانياتها، لا تغلقه قوة عسكرية قريبة وافدة وغريبة عن العالم العربي، ولا تتدخل في قضاياه "قوة إقليمية" تريد أن تبني سطوتها على ركام العالم العربي، وأن تنتقم من "الماضي" بمعطيات جديدة.

تميّز لغة الفلسفة بين شكلين من الإمكانية: الإمكانية المجردة القائمة بـ "القوة" والمعوقة التحقق لأسباب مختلفة، والإمكانية الفعلية التي تنقل الإنسان إلى حقل ملموس وعياني. وما الثورة المصرية الجارية إلا آية على حضور "الإمكانية الفعلية"، التي تشمل إمكانيات متعددة، يجتمع فيها الجغرافي والإنساني والسياسي والعسكري، وتسير نحو مصر "تظللها المعرفة" وتظلل المعرفة، بلغة طه حسين وهو يغلق كتابه: "مستقبل الثقافة في مصر"..

تنسى بعض العقول الفارغة، فلسطينية كانت أو غيرها، تضحيات الفلسطينيين من أجل توحيد نسبي بين المرغوب والمتاح، وتنسى معه الرابطة الفلسطينية ـ المصرية، التي صنعتها صورة مصر في الوعي الفلسطيني ودماء الشهداء المصريين من أجل فلسطين. كتب محمد حسنين هيكل في كتابه "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل": "ما بين بداية المقاومة على أرض فلسطين ذاتها، وهي البؤرة الساخنة للمواجهة، وحتى سنة ١٩٩٣، قدم الشعب الفلسطيني ٢٦١,٠٠٠ شهيد، ١٨٦٩,٠٠٠ جريح، ١٦١,٠٠٠ معوق". كان في ذهن الصحفي الكبير عدد المصريين من الشهداء والجرحى والمعوّقين الذين خاضوا معارك من أجل فلسطين، وهو عدد كبير. أشار في كلامه العادل إلى جدل "الداخل والخارج القريب"، الذي يؤكد أن قضية فلسطين ليست من خارج مصر، وأن مصر المدافعة عن تحققها الوطني تدافع، إلزاماً، عن الحقوق الفلسطينية.

"المسألة الفلسطينية" علاقة داخلية في المسار المصري، لا تتطفل عليه ولا هي بالعنصر الغريب عنه، ومصر علاقة داخلية فيها، ذلك أن مستقبل فلسطين من آفاق التمرّد الشعبي في مصر، الذي يقرّر أن"العدل المنتظر" معركة يومية مفتوحة.

صحفي مصري بشوش الوجه يردّد، في برنامجه اليومي: "تحيا مصر"، ويرددها معه الفلسطينيون الصادقون، في مناطق شتاتهم المختلفة.

أوراق فلسطينية

© من أرشيف رواق مركز المعمار الشعبي

ابوعمار داخل المقاطعة المحاصرة
ذكريات ليست كلها شخصية

احمد قريع (ابو علاء) *

يصعب علي كثيراً، ويشق على النفس اكثر، اختيار الاستهلال المناسب لفتح بعض الصفحات الغنية، واستعادة قسط من الذكريات العزيزة، عن صاحب المكانة الاهم في حياتنا السياسية المعاصرة، والاكثر حضوراً على طول مسيرتنا الكفاحية الطويلة، عن الزعيم الوطني الكبير، والاخ القائد الشهيد ياسر عرفات (أبو عمار).

وتزداد صعوبة ذلك لدى امثالنا، نحن "ربع ابو عمار" أخوته ورفاق دربه، الذين كنا قد تعودنا على لقائه على نحو شبه يومي، نعانقه ونسأله ونستمع اليه، نطرق بابه كلما احتجنا الى مشورته، ورغبنا في الوقوف على وجهة نظره أو في نقل وجهة نظرنا إليه، في كل ما يخص امراً جوهرياً من أمورنا الوطنية، علماً أن أوقات الأخ ابو عمار جميعها كانت مكرسة للقضية، وللعمل الوطني ولشؤون شعبنا الفلسطيني ومؤسساته ، ولذلك كانت الاجتماعات القيادية تقريباً شبه يومية، فمن اجتماعات اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ومؤسساتها إلى اجتماعات السلطة الوطنية ومؤسساتها إلى اجتماعات القيادة الفلسطينية التي كانت تجمع كل الفصائل الوطنية، إلى اجتماعات حركة فتح ومؤسساتها، إلى الاجتماعات الدورية مع الاتحادات والنقابات والوفود الشعبية وغيرها، ولذلك فقد ظلت جميع المؤسسات تعمل، وتؤكد على مشاركة جميع القوى والفصائل والاتحادات في بحث مستقبل القضايا الوطنية الاساسية.

---

* عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

كان يراودني شعور مبهم، أن ياسر عرفات، بحضوره الكثيف في الذاكرة، لم يغب عنا كل هذا الغياب الذي يدخل هذا العام سنته العاشرة، ولم ينقطع عنا كل هذا الانقطاع الذي لا يصدّقه القلب وان اكدته الحقيقة الثابتة. بل إنني أكاد أن ألمس حضور روحه تحلق في سماء هذه القاعة.

لم لا، وهو لا يزال على عهده القديم، حارساً للحلم الفلسطيني المديد حتى في غيابه، رباناً للسفينة التي لم تبلغ ميناء الوصول بعد، الجبل الذي لا تهزه الريح، النموذج الوطني الذي تشد له الابصار في وقت الشدائد التي لم تبارحنا الى اليوم، النداء الذي يستنهض فينا العزائم، ويدعونا الى التمسك بالثوابت.

وأحسب أننا بقدر ما نفتقد أبو عمار في هذه الآونة، فإننا نفتقد في حقيقة الامر شجاعته وتفانيه، ورؤيته الحاذقة، ومضاء روحه التي لم تنكسر أمام كل الضغوطات وخاصة في تلك اللحظة العصيبة من ايام الحصار الجائر في المقاطعة، حين قال تحت ضوء الشموع، في غمرة لحظة شخصية ووطنية فارقة: يريدونني اسيراً او طريداً او قتيلاً، وانا اقول لهم شهيداً شهيداً شهيداً.. فكانت مقولته التاريخية هذه دليلاًعلى رباطة جأشه، وحُسن القراءة الكاشفة لمعطيات تلك المرحلة الفلسطينية الصعبة.

تعلمون انه صدرت عشرات الكتب عن الراحل الكبير بلغات مختلفة، دوّن فيها البعض ذكرياتهم الشخصية معه، وحاول البعض الآخر اعادة قراءة تجربته الكفاحية المديدة، فيما قام باحثون ومؤرخون وكتّاب سير (بعضهم من غير الفلسطينيين ومن غير الاعراب ايضاً) بسرد حكاية شخصيته الاستثنائية، في اطار حكاية شعب مناضل حر، كان فيها ابو عمار قائداً ملهماً لشعبه، هذا الشعب الذي خرج معه مبدداً كل محاولات التهميش على المسرح السياسي للشرق الاوسط، الى صدارة الخشبة، فصار الفلسطينيون معه رقماً صعباً لا يمكن تجاهله او القفز عنه.

ولا تتسع هذه المداخلة، او غيرها من الاطروحات المحدودة في الزمان والمكان، مثل وقت هذه الندوة، لاسترجاع الذكريات عن القائد الشهيد، وسرد ما تراكم في التجربة الذاتية معه، الامر الذي لا يتيح لواحد مثلي، وقد عاصرته وعملت معه لاكثر من اربعين سنة، سوى المرور بسرعة على بعض الوقائع المتعلقة بفترة الحصار في المقاطعة، وذلك نزولاً عند رغبة منظمي هذه الندوة.

والحق ودون مراء، أن أيام الحصار الطويلة، ولياليه السوداء، كانت ثقيلة علينا جميعاً وعلى القائد الذي لم يخذل شعبه في واحدة من أقسى لحظات عمره، تلك اللحظة التي كانت مرة وثقيلة وأشد وطأة علينا نحن رفاق دربه، وعلى شعبنا الذي أحبه وتعلق به، ولعل من المفارقة الفارقة أن أبو عمار بدا لنا في كثير من الأحيان وفي مرحلة إستهدافه شخصياً في الحصار الجائر، وكأنه كان أكثر

حرية منا، أكثر شجاعة وصفاء ذهن، ونفاذ بصيرة، من كل المحيطين به.

واستميحكم العذر، ونحن ندخل الى لب الموضوع، أن لا استرجع وإياكم الا الذكريات غير الشخصية عن الايام الطويلة من تلك الفترة العصيبة من حياة الزعيم الفلسطيني الخالد، حيث لا يتسع المقام، ولا الظرف الذي كان قائماً آنذاك، إلا لاستعراض بعض الجوانب من تلك الوقائع المتعلقة بسجل الواقع السياسي الفلسطيني القائم في حينه.

كنت عندما أعادت اسرائيل احتلال الضفة الغربية كلها اوائل العام ٢٠٠٢، رئيساً للمجلس التشريعي الفلسطيني، الذي كان لي شرف قيادته منذ تأسيسه عام ١٩٩٦. وبالتالي فقد قمت بصفتي هذه عقب حصار الرئيس ابو عمار بالمبادرة لعقد جلسة طارئة للمجلس في مقر الرئاسة لدعم موقف الأخ الرئيس في مواجهة الحصار. ودأب المجلس برئيسه ورؤساء لجانه على مواصلة الحضور في المقاطعة، بهدف تأكيد التمسك بالرئيس المنتخب والدفاع عنه في مواجهة كل الأخطار، بما في ذلك خطر المس بحياته في المقام الأول، وخطر إبعاده عن مقره، بل وعن فلسطين، في المقام الثاني.

لقد تعرض الوضع الفلسطيني آنذاك لسلسلة لا حصر لها من الضغوطات والتهديدات الإسرائيلية والأميركية،كما تعرضنا في القيادة أيضاً إلى محاولات ابتزاز متواصلة، للتأثير على موقفنا المساند للرئيس المهدد تارة بالقتل وطوراً بالإبعاد، خاصة بعد أن زعم الرئيس الاميركي جورج بوش الإبن في ذلك الوقت، أن الشعب الفلسطيني يستحق قيادة أفضل من قيادة عرفات، الأمر الذي قرأناه كضوء اميركي أخضر يمنح الإسرائيليين رخصة للتخلص من الرئيس أبو عمار، وهو الأمر الذي كان محل رغبة علنية وتخطيط من جانب حكومة إسرائيل بقيادة شارون.

على أي حال، فقد صمدنا جميعاً قوى وفصائل وجماهير وقيادات في وجه كل تلك الضغوط الهائلة، ونجحنا في حماية الرئيس ضد محاولات الإغتيال والإبعاد معاً. إلا أن تلك الضغوط التي لم تنقطع، نجحت في حملنا، سواء في القيادة الفلسطينية ، أو في المجلس التشريعي على ادخال تعديل على النظام السياسي الفلسطيني، يقضي بايجاد منصب لرئيس الوزراء، يشارك الرئيس ويقاسمه في حمل أعباء السلطة التنفيذية، أو قل لاقتطاع جزء من صلاحيات الرئيس وإضعاف دوره المركزي في الحياة السياسية الفلسطينية.

ومع أن مثل هذا التطور في النظام السياسي كان حاجة فلسطينية، إلا أن الضغوط الخارجية لعبت دوراً كبيراً في تسريع عملية التطوير هذه. حيث قام بهذه الضغوطات كل من مبعوث الامم المتحدة تيري لارسن، وممثل الاتحاد الاوروبي ميغيل موراتينوس، ومبعوث الاتحاد الاوروبي خافير سولانا، وغيرهم من وزراء الخارجية الأوروبيين، الذين اقاموا اقامة شبه دائمة بيننا، إلى أن تحقق ما رغبت

في تحقيقه الولايات المتحدة الاميركية.

لقد كانت هذه الواقعة وغيرها من الوقائع المشابهة، جزءاً لا يتجزأ من تاريخ مرحلة الحصار التي استمرت دون هوادة.اذ رغم التحفظات التي كان يبديها الرئيس ابو عمار على مثل هذا التعديل الذي يخاطبه ويرى أنه ينال من صلاحياته بشكل مباشر، فقد آثر التكيف مع الواقع والقبول بمقتضيات تلك اللحظة السياسية المفخخة، دون أن يتوقف عن تحذير كل من يعنيهم الأمر، من مغبة الاستعجال في اجراء مثل هذا التدبير الذي لا يأخذ بعين الاعتبار تعقيدات وخصوصيات الحالة الفلسطينية.

وبالفعل، وبعد أن تم اقرار التعديل المذكور، وتولي الأخ أبو مازن منصب رئيس الوزراء، برزت بعد وقت قصير مصاعب توزيع المسؤوليات بين الرئاسة ورئاسة مجلس الوزراء، وكان اللجوء المتكرر للمجلس التشريعي في حينه لحسم بعض تلك الخلافات، يثير لدي كرئيس للمجلس، ولأعضاء المجلس التشريعي نفسه، شعوراً عميقاً بالقلق والخشية من أن يلحق هذا النهج المرتجل والمستعجل أشد الضرر بالسلطة التنفيذية، رئاسة سلطة ورئاسة وزراء.

لذلك فقد اتخذت من داخل المجلس التشريعي خطاً قائماً على التكيف مع الضرورات الملحة، والعمل بمرونة لتفادي مظاهر الانقسام المبكر والانكشاف الشديد امام الضغوطات الخارجية. فكان نهجنا أن نجمع ولا نفرّق، أن نثبت أصالتنا الوطنية، واستقرار مؤسساتنا التشريعية، وأن نرتقي بدورنا الى المستوى الذي يتطلبه الموقف، وأن نواصل الإسهام في تلطيف الأجواء، وايجاد الحلول الوسط، التي تحفظ لمقام الرئيس مكانته الرفيعة، ولمجلس الوزراء دوره، ولمؤسسات السلطة الوطنية حيويتها.

غير أنه بعد مرور نحو مئة يوم على تشكيل تلك الحكومة، وحدوث بعض الخلافات غير الصامتة بينها وبين رئيس السلطة الوطنية، قدمت حكومة الأخ أبو مازن استقالتها من داخل جلسة عاصفة للمجلس التشريعي، خصوصاً وأن هناك عريضة نيابية كانت تهدد بسحب الثقة من الحكومة، التي قبلها الرئيس ابو عمار دون مناقشة، وبعد تدخلات عديدة، كلفني الرئيس بتشكيل الحكومة الجديدة رغماً عني، فقدمت استقالتي من رئاسة المجلس التشريعي ومثلت فيما بعد أمام المجلس ذاته في أواخر تشرين الأول لنيل الثقة بالتشكيل الوزاري الجديد.

ويقتضي القول أن استقالة حكومة الأخ أبو مازن كانت بسبب وصولها إلى طريق مسدود، بعد أن عجز طرفا الخلاف الذي لم يعد مخفياً، اي الرئيس ورئيس الوزراء، عن احتواء مظاهر ذلك الخلاف الذي اخذ يبرز الى السطح، واصبح محل نقاش داخلي فلسطيني عام. إلا أن الأخ أبو مازن

آثر أن يشير بوضوح أن أسباب إستقالته المكتوبة، تعود الى عوامل ناجمة عن الممارسات الإسرائيلية العدوانية، حيث شددت سلطات الاحتلال حالات الحصار والقمع والاجتياحات، وأوغلت في الاعتقال والاغتيال، ومضت بعيداً في هدم المنازل والمصادرات والاستيطان، الأمر الذي أدى الى انسداد آفاق عملية السلام، وانقضاء الوعود الغربية التي كانت من أسباب إحداث منصب رئيس وزراء والتعديلات التشريعية لتوزيع الصلاحيات.

كما يقتضي القول أيضاً، أن تكليفي بتشكيل حكومة جديدة لم يكن سهلاً وميسراً في ظل واقع فلسطيني ملبد بالغيوم، احتدمت فيه الخلافات وتباينت الرؤى والتقديرات، وساد خلاله الفلتان والاضطراب، في وقت ظل فيه الحصار على حاله، الأمر الذي دفعني إلى تشكيل حكومة طوارئ استمرت لمدة شهر واحد، عملاً بأحكام القانون الأساسي، من نهاية أيلول إلى نهاية تشرين الاول/ أكتوبر عام ٢٠٠٣، وبعدها كلفت من الأخ الرئيس أبو عمار بتشكيل الحكومة الفلسطينية الجديدة معززة بموافقة اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

شاءت الأقدار أن أكون، في زمن حصار القائد الزمر، رئيس الحكومة الفلسطينية، الأمر الذي القى على كاهلي مسؤولية مضاعفة، وأوجب علي ايضاً رفع درجة التواصل الحثيث معه على نحو اكثر مما كان عليه الحال من قبل، ومشاورته في امور لم تكن تحتاج الى مراجعته في اوقات سابقة، واخذ رأيه في اي مسألة او تدبير او قرار من قرارات السلطة التنفيذية.

لم تكن كثافة التواصل هذه، من اجل رفع الروح المعنوية لقائد المسيرة، وهو في واقع الحال من كان يذكي في محيطه روح الثبات، ويوقد في نفوسنا جمرات الصمود والصبر والمقاومة، بل كان ذلك من اجل الدفاع عن شرعيته، وتكريس زعامته ومرجعيته، واستمرار مركزيته في حياتنا السياسية، بل كذلك من أجل التمسك بقيادته ورمزيته، من أجل كل ما كنا قد اتفقنا عليه من مواصلة الدرب وأداء المسؤوليات الوطنية الجسيمة.

لقد كان شغلنا الشاغل في تلك الفترة العصيبة من زمن حصار المقاطعة، بل حصار شعبنا، عندما كانت الجرافات الاسرائيلية تنهش بأنيابها الحديدية جدران المقر الرئاسي تحت ضوء عدسات مراسلي شبكات التلفزيون العربية والعالمية، اقول كان شغلنا الشاغل هو تأمين حياة الاخ الرئيس بكل السبل الممكنة، بما في ذلك تكوين حائط صد بشري من حوله، وذلك من خلال تكثيف حضور الزائرين والمسؤولين والاعلاميين وغيرهم في مقره الذي ظل محور الحياة السياسية الفلسطينية.

وفيما كانت النفوس تضطرم غضباً في البيوت الفلسطينية، وفي شوارع المدن والمخيمات، كنا نعمل على الجبهة الدبلوماسية بلا كلل او ملل، نتصل مع العواصم، نهاتف المسؤولين في الخارج، نتحادث

مع كل من له تأثير على القرار الاسرائيلي الجائر، للحيلولة دون حدوث مكروه يمس حياة ابو عمار، ويمنع وقوع اضطراب لا يمكن معه التنبؤ بالمستقبل، او السيطرة على التداعيات، حتى لا اقول الانهيار الكامل للسلطة الوطنية، التي يقع في قلب القلب منها، قائد الثورة، رئيس المنظمة ، ورئيس السلطة الوطنية المنتخب، مرجعيتها وعنوانها.

بفضل كل تلك الجهود الدبلوماسية المكثفة، وما تخللها من اتصالات محمومة جرت في شتى الاتجاهات، تمكنا من كبح الاندفاعة الاسرائيلية الحمقاء في ربع الساعة الاخير، على قاعدة قوامها الحفاظ على حياة الرئيس ابو عمار، حيث نجحنا في تقليل حجم الخطر الذي كان يحيق به الى ادنى حد ممكن، بل وفي جعل مصير رئيس م.ت.ف رئيس دولة فلسطين ورئيس السلطة الوطنية الفلسطينية المهدد بالقتل في وضح النهار، قضية دولية تتصدر مختلف اهتمامات العواصم العربية والاجنبية. فقد جعلنا المقاطعة المكان الوحيد للاجتماعات الفلسطينية الدورية لكافة الأطر والمؤسسات، والمكان الوحيد للاجتماع باي ضيف او زائر لنا.

ورغم هذا النجاح النسبي، فقد كان ابو عمار، وكنا معه ايضاً، نشعر بخيبة امل عميقة وصامتة، ازاء عدم إبداء أشقاء الشعب الفلسطيني وأصدقائه، ما يكفي من الإهتمام والتضامن مع زعيم هذا الشعب المناضل. ولعل اشد مظاهر عدم الإهتمام هذه قد تمثلت في قلة عدد الوفود العربية الزائرة للمقاطعة، وفي تضاؤل الاتصالات الرئاسية من جانب الزعماء العرب مع أخ لهم كانت تطبق الدبابات الاسرائيلية حول مقره المحاصر.

وقد كانت اشد مشاعر المرارة تلك قد تجلت بصورة قوية، اثناء انعقاد مؤتمر القمة العربية في بيروت اوائل العام ٢٠٠٢، حين تواطأت بعض العواصم العربية، على منع مشاركة الرئيس أبو عمار في أعمال تلك القمة، وحجب الكلمة التي كانت مقررة له، والتي كان من المقرر بثها عبر الفيديو كونفرنس في بداية أعمال المؤتمر، مما دفع بالوفد الفلسطيني الرسمي الذي كان برئاسة الأخ فاروق القدومي (أبو لطف) رئيس الدائرة السياسية في م.ت.ف إلى التهديد بالإنسحاب من القمة إذا لم تبث كلمة رئيس دولة فلسطين، الأمر الذي أمكن معه بث تلك الكلمة في اليوم التالي، أي خارج زمن الجلسة الإفتتاحية باضوائها الإعلامية الساطعة.

لم يعوض مشاعر الخذلان التي اجتاحت نفوسنا في تلك المرحلة، ولم يقلل من حدة المرارة التي عقدت حلق القائد المحاصر، سوى ذلك التضامن الهائل، الذي ابداه الشعب الفلسطيني، داخل الوطن وخارجه، من خلال المظاهرات والمسيرات العارمة، وغيرها من الفعاليات الجماهيرية التي عبرت عن إستيائها ورفضها لهذا التجاهل الذي مارسته القمة العربية لوضع الرئيس عرفات

المحاصر دفاعاً عن فلسطين وعن الكرامة العربية ، وعدم بث كلمته في الجلسة الافتتاحية كما جرت عليه العادة. هذه الهبة الجماهيرية التي ردت لقائد الثورة كل الاعتبارات المعنوية، واعطته مزيداً من الشرعية، وطوبته مجدداً كأب وقائد لهذه الثورة، التي كثيراً ما كانت تخرج من الحصارات المتكررة، أصلب عوداً مما كانت عليه من قبل.

على إي حال، فقد تجاوزنا تلك اللحظات الحرجة من زمن الحصار الذي امتد فيما بعد، بفضل ما اظهرته القوى الفلسطينية جميعاً من اتحاد حول زعامة أبو عمار، ومن تمسك بقيادته الشرعية. وقد ساعدتنا في عبور تلك المحنة حقاً وسائل الإعلام المرئية، خصوصاً الفضائيات العربية، التي لعبت دوراً هائلاً في إذكاء روح التضامن والتفاعل مع الأخ الرئيس، الذي أحسن بصموده وفطنته استثمار الممكنات المتاحة في ثورة الاتصالات الحديثة.

صحيح أن الأخ أبو عمار ظل تحت الحصار، ممنوعاً من التنقل والسفر على النحو الذي اعتاد عليه دعماً لقضيته، الا أن مقره كان مفتوحاً أمام جميع زواره، من دبلوماسيين وصحافيين، من رفاق درب ومن مساعدين ومتضامنين دوليين، حرصوا جميعاً على عدم الإنقطاع عن مجلسه، والوقوف بجانبه، الأمر الذي حول ذلك المقر المحاصر إلى خلية عمل مركزية، تصدر منها التكليفات والتوجيهات، وتقدم الملفات والمعلومات من جانب المسؤولين الفلسطينيين جميعاً.

ورغم ذلك كله، لم تغب عن أبصارنا حقيقة أن الأخ الرئيس كان لا يزال محاصراً بالفعل، وإن كانت روحه طليقة، وأن المخطط الاسرائيلي للتخلص منه ظل قائماً ، للنيل من حياته، بل انه يمكن القول أن مؤامرة اغتيال الزعيم التاريخي، على هذا النحو او ذاك، كانت ماضية من وراء غلالة رقيقة تفضح ما كانت تخبئه الذئاب الجريحة، التي ظلت تتربص بالقائد الفلسطيني الكبير، تنتظر اللحظة المواتية للتسلل الى عرينه خلسة، بعد أن كانت قد طاردته بالطائرات الحربية علناً في أوقات سابقة.

واجد لزاماً عليّ القول بصراحة يقتضيها واجب المسؤولية، ان حيثيات حصار الرئيس ابو عمار الطويلة، لا تزال في ذمة هذه المرحلة السياسية التي لم تنقض بعد، وبالتالي فهي ليست جزءاً من تاريخ مضى وانقضى، ان لم نقل ان تفاصيلها لا تزال قائمة وممتدة الى اجل لا نعرف بعد متى يأزف اوانه، كي نتحدث بصراحة في حينه عن الحقائق والدقائق والوثائق، التي لا تزال مكتومة، لا سيما وان قضية اغتيال الزعيم الكبير، اب الوطنية الفلسطينية، لا تزال متفاعلة.

وقبل أن نطوي هذه الصفحة المؤلمة من حياة ابو عمار، وحياتنا السياسية الفلسطينية، ينبغي المرور على الفترة الأخيرة من زمن حصاره في المقاطعة، حين ألم به عارض صحي مبهم، عجز فريق الأطباء المختصين العرب عن سبر غوره، وأوصوا بضرورة نقله الى الخارج بأقصى سرعة ممكنة تداركاً لما لا

تحمد عقباه اذا ما وقعت الواقعة، ومما تجدر الاشارة اليه أن عدداً من الدول العربية والاجنبية قد أبدت رغبة وإستعداداً لاستقبال الأخ ابو عمار للعلاج فيها، ولعل أبرز من قدم دعوة كريمة لاستقبال الاخ الرئيس وعلاجه كان الملك عبد الله بن عبد العزيز الذي كان ولياً للعهد في ذلك الوقت، وقد هاتفني للاطمئنان عن صحة الرئيس، وتقدم بعرض قال بالحرف الواحد "يسعدنا في المملكة العربية السعودية ان نستضيف، ونتولى علاج الأخ أبو عمار، ولدينا كافة المتطلبات والإمكانيات اللازمة" من المستشفيات والأطباء والتجهيزات الحديثة والمتطورة لهذه المهمة، كما أن لدينا طائرة مجهزة بجميع الأجهزة الطبية والبشرية اللازمة لنقله إلى المملكة، إلا أن الأخ الرئيس وعائلته وبعض الاخوة المستشارين كانوا قد قرروا قبول الدعوة الفرنسية المقدمة من الرئيس شيراك شخصياً لاستضافة الأخ أبوعمار وعلاجه في فرنسا .

وقد قمت حينها بصفتي رئيساً للحكومة الفلسطينية بسلسلة محمومة من الإتصالات الهاتفية مع كل من يعنيهم الأمر من الزعماء العرب والأجانب من أجل ترتيب مهمة سفر الاخ الرئيس وتثبيت عودته سالماً، وقد توليت شخصياً بعد التشاور مع القيادة الفلسطينية، الاتصال بالجانب الاسرائيلي، وتحديداً مع رئيس الحكومة الاسرائيلية، اريئيل شارون، من اجل مغادرة الرئيس للعلاج في فرنسا وعودته دون قيود، وقد جرى نقاش في حينه مع رئيس الوزراء الاسرائيلي حول عودة الاخ الرئيس وخاصة حين قال سندرس موضوع عودته بعد استكمال العلاج والتحقق من سلامته، مع العلم أن شارون قد عرض إستضافته للعلاج في اسرائيل، إلا أننا أعتذرنا عن ذلك شاكرين العرض، حيث تمت الترتيبات مع الرئيس شيراك والحكومة الفرنسية. لاستضافة الأخ أبو عمار في العاصمة الفرنسية باريس لاجراء الفحوصات والعلاج اللازم، وتم الاتصال كذلك مع الحكومة الأردنية لتأمين طائرة هليوكبتر لنقله من رام الله الى مطار عمان حيث كانت تنتظره طائرة فرنسية مجهزة بالأجهزة والمعدات الطبية اللازمة مع طاقم طبي فرنسي.

بعد جهد مكثف، وبتعاون من جانب جميع الأطراف، تم تأمين سائر المتطلبات اللازمة، وجرى نقل الاخ الرئيس على وجه السرعة الى باريس عن طريق عمان، حيث جرت له الفحوصات الطبية، وباشر الاطباء في علاجه بصورة ملائمة، وذلك على نحو ما هو معروف، وعلى نحو ما وقف عليه شعبنا من تفاصيل دقيقة اولاً باول في حينه.

إثر انقضاء عدة ايام على فترة العلاج في باريس، وتضارب الأخبار حول حالة الرئيس الصحية، وتناثر الأقوال والتصريحات التي كانت تزيد الاجواء الفلسطينية ذعراً وقتامة، الامر الذي حمل القيادة الفلسطينية لاتخاذ قرارها بتكليف كل من الاخ ابو مازن ، وأبوعلاء وروحي فتوح ود. نبيل شعت للسفر الى العاصمة الفرنسية للوقوف عن كثب على حقيقة الوضع الصحي للاخ الرئيس، الذي

علمنا انه قد اخذ يتعرض لحالات متقطعة من الغيبوبة والإعياء الشديد.

هناك في باريس كلفت من قبل الجميع بزيارة الرئيس في غرفة العناية الفائقة، فوجدت ما لا يسر العقل والعين والقلب، فأجهشت في البكاء، وكدت أقع على الارض لولا ان امسك بي كل من الاخ د. رمزي خوري مدير عام مكتب الرئيس والاخ يوسف عبد الله قائد حرس الرئيس .وقد تحققت حينها أن الاخ ابو عمار الذي هو تحت لطف الله وعنايته، قد أصبح في وضع خطير، ثم خرجت من المكان بسرعة عائداً لمواصلة الاستماع الى تقرير مدير المستشفى واللجنة الطبية المشرفة على علاجه.

وليس من حاجة ، كي اعيد سرد بقية فصول الحكاية المؤلمة، التي قرأها شعبنا سطراً سطراً وكلمة كلمة، والتي شكلت لمتابعتها لجنة متابعة وتحقيق متخصصة من مجلس الوزراء، ومن ثم لجنة حركية وطنية برئاسة الاخ توفيق الطيراوي لمتابعة كل ما يحيط بملابسات استشهاد الاخ الرئيس الشهيد ابوعمار. غير ان ما وددت ان اختم هذه النتف من الذكريات غير الشخصية عن ايام حصار المقاطعة، بهذا المشهد. فقد رحل ابو عمار بجسده، وظل حاضراً ملء عين الشمس، مقيماً أبد الدهر في الذاكرة الوطنية الفلسطينية، نشتاق اليه، ونستشعر مرارة غيابه كلما وقفنا على منعطف واحتجنا فيه الى سداد رأي،، الى شجاعته وحكمته وبعد نظره.

* * * * *

وأرجو أن تسمحوا لي في نهاية هذه المداخلة، أن أتحدث عن علاقتي ورؤيتي الانسانية والسياسية للشهيد الراحل، تلك العلاقة التي ارتكزت على مدى اربعين عاماً متواصلة على عمودين أساسيَين هما: الثقة والاحترام. فقد بدأت هذه العلاقة المباشرة به، منذ أن عدت متفرغاً بالكامل إلى صفوف حركة "فتح"، في أواخر الستينات، وتميزت بخاصيتين كبيرتين هما: أولاً، الاستمرارية بما تعنيه من تواصل حثيث، وثانياً، الانسجام السياسي مع هذه الشخصية القيادية المركزية، التي طبعت بطابعها الشخصي المميز سمات مرحلة مديدة من مسيرة كفاح وطني شاق، مرحلة حفلت بالتطورات والوقائع وبالإنجازات والمؤامرات والصعوبات والأحداث الكبيرة، وتواصلت عبر العديد من المحطات والمراحل والعواصم، كان فيها القائد الراحل محور الارتكاز، ورجل كل مرحلة من هذه المراحل بامتياز، والمشترك السياسي بين الممسكين بمفاصل العمل الوطني الفلسطيني كلهم، مهما تتعدد الأفكار لديهم وتتنوع عندهم الاجتهادات.

ولا أخال اثنين ممن عملوا مع الأخ الرئيس الشهيد أبو عمار عن قرب، وتواصلوا معه في السراء والضراء، يختلفان في أنه كان يتمتع بسحر شخصي، أساسه التواضع الجم، والدفء الإنساني الغامر،

والوفاء الشديد الى حد التفاني لكل رفاق دربه وأبناء المسيرة والكفاح في سياق الوفاء لشعبه العظيم، ناهيك عن الصبر على الشدائد، وقوة احتمال الصعوبات، والقدرة الفريدة على قراءة الأحداث، وسبر غور الرجال، وحسن فن الإصغاء والتعلم، إلى جانب البداهة والبراعة والتسامح والترفع والحزم والشجاعة، وما إلى ذلك، من الصفات القيادية الأُخرى التي أهلت هذا الرجل المسكون بحرية شعب فلسطين منذ مطلع شبابه للإمساك بزمام قيادة شعبه على مدى نحو أربعة عقود، من دون أدنى منازع، باقتدار وجسارة عز نظيرهما في الزمن الفلسطيني المحتشد بالقيادات والتباينات والكمائن والأعداء والحصارات.

وبالإضافة إلى هذه الصفات القيادية كلها، كان الأخ أبو عمار يتمتع بفطرة فريدة يشترك فيها القادة التاريخيون الكبار جميعهم، وأعني بها فطرة الإلهام التي تخص أولئك الكبار وحدهم بين المشتغلين بالعمل الوطني العام. ومع أن من الصعب إدراك مفاتيح خاصية الإلهام هذه، والوقوف على منابعها الغائرة عميقاً في النفس البشرية، إلاّ إن تجلياتها سهلة الإدراك، ومُخرجاتها قابلة للوصف والقياس. ولعل أوضح مثال لذلك في حالة الراحل الكبير تلك القدرة، المشهودة له باعتراف المحيطين به جميعاً، على اتخاذ القرار الصائب في لحظات الشدة، وتقرير الاتجاه الصحيح لدى وقوفنا على مفترق طرق، وبلورة الموقف الملائم والأخذ به في أوقات الأزمة، وقيادة التوجه العام والدفع به إلى الأمام كلما اختلطت علينا الرؤى وتزاحمت أمامنا الخيارات الصعبة.

لم يكن هذا الحضور الطاغي كله لشخصية ياسر عرفات مرده بنية جسدية ضخمة، أو موهبة خطابية محلقة، كما أنه لم يكن نابعاً من شخصية متجبرة، متكلفة بمظهرها، عنيدة في آرائها، باطشة مع خصومها، حادة في علاقاتها مع الغير، غامضة في تجليات غضبها وانشراحها، بل إن ياسر عرفات، الذي تعارفنا على مناداته بلقب الختيار وهو في ريعان شبابه، كان على العكس من تلك الصفات التي أنف منها تماماً، إذ كان شديد التواضع، مجاملاً خجولاً، زاهداً في ملبسه ومأكله ومجلسه وسبل عيشه اليومي، يفطر مع الفدائيين في قواعدهم، ويسكب الطعام بيده في صحون ضيوفه من سياسيين وصحافيين ومرافقين، ويسهر إلى ساعات الفجر الأولى مع زائريه من القيادات والكوادر من دون تكلف في حوار، أو تصنع في كلام، أو استئثار برأي.

كان ذلك كله هو سحر ياسر عرفات الخاص، ومنبع شخصيته القيادية الفذة، وموئل الولاء له، ومصدر الإلتفاف حوله. فهو الذي لم يقطع الشعرة الأخيرة مع أي من خصومه، ولم ينسف جسر اتصال حتى مع أعدائه، ولم يفقد صبره في أحلك ساعات المحنة، ولم يتخل عن تفاؤله مهما تضيق عليه الدائرة. وكان لفرط تفاؤله بحتمية اجتياز هذا المخاض أو ذاك، وعبور هذه الأزمة أو تلك، يثير فينا الدهشة المختلطة بشيء من الابتسام الحييّ، وخصوصاً حين كان يقول: "يا جبل ما يهزك

ريح"، تعبيراً عن الإرادة والإصرار ورفع المعنويات والثقة، فكان كأنه يبصر ما لا نبصر، ويرى ببصيرته ما استعصت رؤيته علينا في نهاية النفق الطويل.

ولا يتسع المقام لي في هذه العجالة أن أعرض تاريخاً شخصياً طويلاً من العلاقة الإنسانية النضالية الشخصية الغنية مع زعيم لم يشق له غبار: قائد على رأس حركة التحرر الوطني الفلسطيني، ورئيس لم يُجارِه أحد لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية وحركة "فتح" والسلطة الوطنية، والقائد العام لقوات الثورة، وبطل معاركها الذي لم يتخلف عن المشاركة الشخصية في كل معاركها العسكرية والسياسية وغيرها، صانع التحول العظيم في مجرى الكفاح الذي عبرنا معه من دنيا الشتات إلى رحاب الوطن، وأقمنا معه أول سلطة على أول أرض للشعب الفلسطيني، وصمدنا وإياه في المعارك والحصارات والشدائد كافة، وبقي طوال ذلك كله القائد والأب، الفارس والفدائي، رجل المهمات الكبيرة والتفصيلات الدقيقة، لا تقعده المحن وما أكثرها، ولم يفتّ في عضده الخذلان والتنكر، ولم تضعف من ثقته برجاله الأقاويل والأراجيف الكثيرة.

فقد كنت، على مدى الأعوام الطويلة الماضية، واحداً من أبناء الحركة التي أقامها ياسر عرفات مع نخبة صغيرة من أقرانه، ثم نمت واتسعت وتجذرت عميقاً في الصفوف الفلسطينية، وغدت قائدة الكفاح الوطني وبوصلته السياسية. ودائماً كنت أرى نفسي، وبحكم علاقتي الخاصة به، وفي أي موقع كنت، واحداً من صانعي القرار الفتحاوي، ثم عضواً في الحلقة المحيطة بالرئيس، أي كنت خلال هذه المدة الطويلة واحداً ممن كانوا على اتصال غير مباشر حيناً، وعلى تواصل مباشر في أغلب الأوقات، بالقائد الذي تجمعت بين يديه مقدرات صنع القرار الوطني الفلسطيني، بكل تفصيلاته اليومية التي لا تعد ولا تحصى، وإن كانت هذه تستحق وقفة مطولة وعرضاً شفيفاً ليس له متسع الآن.

والحق، أن العام الأخير من عملي مع الأخ أبو عمار، أي العام الذي أود أن أسلط الضوء عليه، هو أكثر فترات هذه التجربة مدعاة للمراجعة والمكاشفة، ليس فقط من منطلق أنه يمثل الصفحة الأخيرة من سجل علاقتي الشخصية والنضالية بالأخ الرئيس القائد، بل أيضاً لما انطوى عليه من عناصر إشكالية مركّبة مع رئيس محاصر ومهدد بالاغتيال والإبعاد والموت البطيء، فقد تجاورت لدي اثناء عام الحصار هذا مشاعر التقدير والاحترام والحرص والولاء والوفاء من جهة، وبواعث القلق والخشية وجسامة المسؤولية وتضارب الرؤى واختلاف الاجتهادات من جهة أُخرى، وتنوعت بين ضفتيّ مجرى هذه العلاقة وتنقلت مراراً من حالة الانسجام التام، إلى وضعية الرغبة في الانصراف وإعادة الأمانة كاملة غير منقوصة إلى أصحابها، أي إلقائها مجدداً بين يدي الرئيس.

وربما لأنني واحد ممن عملوا عن قرب شديد مع القائد أبو عمار، ولا سيما في الأعوام الاخيرة، فقد كنت من القادرين على قراءته وفهمه، وبالتالي على تحاشي أي نزاع محتمل معه، حتى لا أقول مسايرته وتغليب وجهة نظره، الأمر الذي أطال عمر الحكومة التي عهد إليّ بتشكيلها في هذه الظروف الصعبة مدة طالت أكثر مما كنت أرغب فيه.

ومع أنني قدمت له استقالتي أكثر من مرة ، بعضها علني وبعضها لم يعلن، إلاّ إن محبتي الشخصية له، وتقديري العميق له ولمسيرته الكفاحية العظيمة، وحرصي الشديد إزاء ما قد يلي قبول استقالتي من تداعيات عليه وهو المحاصر في المقاطعة في رام الله، في آخر بقعة أرض ظلت ذات سيادة فلسطينية في الضفة الغربية، جعلني استجيب لرفضه وإصراره على رفض الاستقالة، والعودة مجدداً إلى العمل معه في نطاق كل المشتركات المتاحة، وهي مشتركات كانت على أي حال كثيرة وواسعة.

غير أن إدراكي العميق لخصوصية تلك الإشكالية القيادية التي تجسدها شخصية الأخ الرئيس، التي امتزجت فيها روحية الأب الكبير بكاريزما الزعيم التاريخي القدير، وتماهت فيها سمات القائد الوطني الكبير مع صفات رجل دولة لديه طاقة على المتابعة والمناورة والمرونة والصلابة والوقوف على أدق التفصيلات، جعلتني أفكر ملياً واشاطره التقدير في جدوى التعديل الذي أجريناه على القانون الأساسي، وخصوصاً في تلك المرحلة الصعبة جداً والرئيس في حصار شديد داخل المقاطعة محاط بالدبابات الإسرائيلية وتحت الضغط الدولي باشكاله كافة.

وباستعادة ذلك المشهد المروع داخل المقاطعة وحولها في رام الله، بدا ذلك التعديل الذي جرى إدخاله على النظام السياسي الفلسطيني في حينه ،أقرب ما يكون إلى خلق وضع جديد، أقحمنا فيه إقحاماً منصب رئيس حكومة في نظام سياسي بدا أنه فصّل أساساً على قياس هذا الزعيم الذي لم يكن لديه شغل شاغل سوى العمل على تدبير أمور السفينة الفلسطينية المبحرة وسط صخور ثلجية عائمة ودهاليز سياسية زلقة، وذلك على طريقته الخاصة، رجلاً لا حياة له خارج مضمار السهر على شؤون الشعب الفلسطيني ونظامه السياسي وتربية الحلم بإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف.

ومما أود ذكره قبل أن أستكمل هذه المداخلة، تلك المحادثة التي أجريتها معه قبل أيام قليلة من اعتكافه في مقر إقامته بالمقاطعة، أي قبل أن يأخذ المرض منه مأخذاً جعله يتوارى عن زواره، وذلك حين حدثته عن جلسة المجلس التشريعي الوشيكة، وأخبرته بأنني سأطرح فيها قراري بإعادة الأمانة والذهاب إلى البيت. وقبل أن أسمع ردة فعله بادرت إلى التأكيد له أن هناك ثلاثة مبادئ

أساسية ستبقى معي أينما ذهبت: أولها، الوفاء للأخ الرئيس أبو عمار في أي موضع كنت، وأي مسؤولية قد تناط بي مستقبلاً،ثانيها، الحرص على الاستمرار في لقائه، وفي تكثيف الحضور إلى مقره تحت كل الظروف وفي سائر الأحوال؛ أمّا ثالثها فالتزام بإنجاح أي حكومة يختارها الأخ أبو عمار، لاي رئيس حكومة يكلفه من بعدي.

وقد يختلف المؤرخون في شأن بعض جوانب سياسة ياسر عرفات وإدارته، إلاّ أن أحداً من هؤلاء لا يستطيع الإنكار أنه كان بمثابة أب للشعب الفلسطيني، وعنوانه السياسي لأكثر من أربعين عاماً، وأن الأخ الرئيس الراحل لم يكن كبيراً من كبار الشرق الأوسط فقط، بل أيضاً من كبار العالم في زمانه، قاد شعبه بفطنة وشجاعة لا تنقصها المرونة، وسط صراع دام، وفي محيط شديد التعقيدات، مليء بالكمائن والمنزلقات والموانع والتغيرات العاصفة، وأنه كان صاحب سياسة لا تقرأ بالتجزئة أو القطعة، وإنما تؤخذ جملة واحدة ولا تفهم إلاّ بقراءتها دفعة كاملة.

وكان يرحمه الله وحده القادر على المزج بين الثورية والدبلوماسية، بين الصلابة والمرونة، بين المتناقضات والتعارضات كلها، لم يقطع شعرة، ولم يغلق باباً، ولم يسقط رهاناً، وكان بحدسه الصائب يعرف قراءة الخريطة من حوله، ويتنبأ باتجاهات الريح سلفاً، فقد كان لديه ما يمكن أن نسميه بحق عبقرية عرفات، التي تجسدت في هذا الإجماع النادر عليه، حتى من جانب أولئك الذين كانوا إذا اختلفوا معه لا يختلفون عليه قائداً مؤتمناً، محط ثقة ومبعث إلهام.

لذلك نخاطب اليوم روح الرمز الخالد قائلين له: نحن اخوتك ورفاق عمرك، ابناؤك وتلاميذك، نعدك اننا سنظل على العهد الذي تعاهدنا عليه واياك، نحفظ الامانة الوطنية التي اودعتها بين ايدينا، نعلي الراية التي رفعتها في سماء فلسطيننا، نصون حلمك النبيل بسواعدنا وحبات قلوبنا، ونمضي على دربك الى الامام صابرين صبرك الأسطوري أمام الشدائد، وواثقين ثقتك بالنصر مهما طال الزمن، مطمئنين مثلك تماماً، ان شبلاً من اشبال فلسطين وزهرة من زهراتها، سوف ترفع علم فلسطين على اسوار القدس، وعلى مآذن القدس وقباب كنائسها بكل تأكيد

بسم الله الرحمن الرحيم "فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا ، إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَنَرَاهُ قَرِيبًا " صدق الله العظيم .... سورة المعارج....الايات ٥، ٦، ٧.

السلام عليكم ورحمة الله

© من أرشيف رواق مركز المعمار الشعبي

نحو رؤية فلسطينية جديدة للممارسة السياسية

د. جميل هلال*

موضوع هذه الورقة هو تفكك الحقل السياسي الفلسطيني بعد أن غابت أو غيّبت عنه المؤسسات والأطر والمرجعيات الوطنية الجامعة والتي مثلتها في السبعينات والثمانينات مؤسسات وهيئات وأطر منظمة التحرير الفلسطينية. هذا التفكك بان بعد اتفاق أوسلو، وبعد فشل مشروع إقامة الدولة المستقلة، وبشكل صارخ بعد قيام سلطتين متنافستين (واحدة في الضفة وأخرى في غزة) تحت الاحتلال ، وبعد استكمال تحويل الضفة الغربية إلى معازل ("بانتوستانات")، وفرض الحصار الخانق على قطاع غزة. باختصار باتت تجمعات الشعب الفلسطيني تعيش في عزلة (سياسية وتنظيمية ومؤسساتية) عن بعضها البعض ويغيب عنها آليات وأدوات مشاركة جمهورها في تقرير شؤونه الحياتية والسياسية والوطنية. لقد انتقلت هذه التجمعات من وضع كان يتم التعاطي معها كأطراف (فروع) يقودها مركز قيادي يمتلك سلطة القرار السياسي والعسكري والمالي والتنظيمي والإعلامي، إلى أطراف بدون مركز وبدون أطر تمكن من مشاركة في تقرير مصيرها وفي المصير الوطني.

تنقل مركز الحقل السياسي الفلسطيني (ومعه المراكز القيادية للتنظيمات السياسية الفلسطينية باستثناء الحزب الشيوعي الفلسطيني) بين ثلاثة مواقع رئيسة في خارج فلسطين (عمان، بيروت، دمشق/تونس، ولما عاد إلى الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ لم يأت إليها بمؤسسات وطنية لكل مكونات الشعب الفلسطيني بل كسلطة حكم ذاتي تسعى للتحول إلى دولة مستقلة وذات سيادة. بتعبير آخر كان الانتقال الأخير إشكاليا من حيث مسوغاته السياسية التمثيلية إذ جرى عمليا استبدال

* كاتب وباحث فلسطيني

المؤسسات الوطنية (كمؤسسات تمثيلية لكل الشعب الفلسطيني) رغم ما فيها من عطب وقصور، بمؤسسات (السلطة الفلسطينية) لا تقوى، فى أرقى حالاتها على تمثيل أكثر من فلسطينيي الضفة والقطاع، وما لبثت أن انشطرت إلى سلطتين واحدة في غزة وأخرى في الضفة الغربية يهيمن على كل منهما تنظيم سياسي منفصل عن ومنافس للآخر. لم يكن هناك مؤسسات ولا مرجعيات ولا استراتيجيات ولا "قواعد" لعبة سياسية تجمع بين السلطة القائمة في قطاع غزة وتلك القائمة في الضفة الغربية، مما يستدعي إجراء انتخابات رئاسية وتشريعية عاجلة بعد أن تجاوزتا الفترة الزمنية المحددة لذلك بسنوات عدة. ورغم وجود لجنة تنفيذية لمنظمة التحرير تجتمع وتصدر قرارات ومواقف إلا أنها لا تجد من يأخذ هذه، بين الشعب الفلسطيني، على محمل الجد. وهي فقدت شرعيتها التنظيمية والسياسية بعد مرور أكثر من عقدين من الزمن من تواري المجلس الوطني الفلسطيني عن الأنظار.

يستدعي توضيح التحول الذي دخل على الحركة الوطنية الفلسطينية التمييز بين مفهوم "الحقل السياسي الوطني" ومفهوم "الهوية الوطنية". ففي حين يتولد حقل سياسي كنتيجة لنشاط وفعالية وهيمنة حركة وطنية أو دولة وطنية (أو قومية) يحدد شروط وحدود وأطراف العمل السياسي الوطني، فإن الهوية الوطنية (وهي تختلف عن الجنسية التي هي تعبير قانوني) تنشأ حول رواية وطنية تاريخية و ذاكرة جمعية، وهي رواية قد تستمر بعد انهيار أو تحول الحركة الوطنية أو الدولة الوطنية. السلطة الفلسطينية التي قامت وفق اتفاق أوسلو تخلت عن فصول هامة من الرواية الفلسطينية التاريخية إذ حصرت اهتمامها ببناء دولة على الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧، وقامت على أساس اعتراف المنظمة عام ١٩٩٣ بحق إسرائيل في الوجود، وقبل ذلك (١٩٨٨) بالموافقة على حل الدولتين، إحداهما (الدولة الفلسطينية) تغير قائم ويفترض أن يقوم على ٢٢٪ من أرض فلسطين التاريخية. إصرار إسرائيل على أن يتم الاعتراف بها فلسطينيا دولة يهودية هدفه الرئيس تقويض الرواية الفلسطينية التاريخية وتفريغها من مضمونها الوطني.

الجغرافيا السياسية وبنية الحركة الوطنية الفلسطينية

لم ينتج عن انهيار الحقل السياسي الفلسطيني عام ١٩٤٨ اختفاء للهوية الوطنية الفلسطينية بل جرى إعادة تشييدها لتستوعب ما ترتب على النكبة من تشريد و تطهير عرقي وتمييز وإلحاق واحتلال استيطاني ومعاناة ومقاومة. وتحولت الهوية الوطنية الفلسطينية المتجددة إلى المحرك الرئيس لنهوض حركة تحرر وطني جديدة تمكنت، قبل نهاية عقد الستينات، من تشييد حقلها

السياسي الوطني تمثل في مؤسسات وأطر وميثاق ومرجعيات منظمة التحرير الفلسطينية التي باتت ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني.

كان من تداعيات قيام مقرات مؤسسات منظمة التحرير القيادية (والتنظيمات السياسية المنضوية في أطرها) خارج أرض فلسطين المحتلة وفي مواجهة إسرائيل إلى نمو علاقة مع التجمعات الفلسطينية المختلفة داخل فلسطين وخارجها، تقوم على علاقة بين مركز وأطراف تتباين شروط حياتها وفق محددات الجغرافيا السياسية التي نتجت عن تشريد الشعب الفلسطيني. وسار على هذا النموذج (علاقة بين مركز وأطراف) التنظيمات السياسية المختلفة بغض النظر على توجهاتها الفكرية والتنظيمية والسياسية. وعزز من هذا النموذج تعيين عضوية مؤسسات المنظمة واتحاداتها وأطرها وفق نظام "الكوتا"، الأمر الذي كرس من الفهم والممارسة النخبويين للسياسة.

هذا الفهم لدور القيادة السياسية كان وليد قراءة أحادية الجانب لمقتضيات الجغرافيا السياسية، قراءة استسهلتها الثقافة السياسية المهيمنة على النخب السياسية الفلسطينية والتي تعاطت مع السياسة باعتبارها حكراً على القيادة.، ولم تفهم السياسة باعتبارها من اختصاص ومهام الناس اليومية، كونها تعبر عن كفاحهم المتصل من أجل مصالحهم وحقوقهم. وقد عزز من هذا الفهم النخبوي للسياسة النظم السياسية السائدة عربيا (فقط الانتفاضات الشعبية في السنوات الأخيرة أحدثت تحولا ملموسا في هذا الفهم) التي أقامت المنظمة وفصائلها بينها وبنت علاقات مع بعضها كما أقامت (ومعها جميع فصائلها) أوثق علاقاتها الدولية مع النظم الاشتراكية التي كانت تحجب عن شعوبها الديمقراطية السياسية.

كما ساهم في تغذية هذا الفهم النخبوي للسياسة السمة الريعية للمنظمة وفصائلها، التي أتاحت لها تمويل نشاطاتها ومؤسساتها ومتفرغيها ليس بالاعتماد على الدعم الشعبي ودعم مناصريها وأعضائها بل من خلال التمويل من الدول العربية وبلدان اشتراكية وجميعها أنظمة تناصب الديمقراطية السياسية العداء. وفرة المساعدات المالية والعسكرية ساهم أولا في إبعاد المحاسبة للقيادة ومطالبتها بالشفافية من جانب، وساهم ثانيا في إثقال مؤسسات المنظمة والتنظيمات السياسية بالمتفرغين والأجهزة الإدارية والتنظيمية والعسكرية والأمنية والإعلامية، وساهم ثالثا في المبالغة في بناء الوحدات العسكرية النظامية والمليشيات المحلية المبنية على العلاقات التراتبية و الأوامرية لاعتبارات كان بعضها مبررا (منها طبيعة العدو الذي تواجهه، و تورطها في صراعات مع أنظمة عربية وقوى معادية لوجودها على أرضها).

بتعبير آخر لم تستطع مؤسسات منظمة التحرير ولا التنظيمات السياسية المؤتلفة في مؤسساتها

تجاوز قيود الجغرافيا السياسية ومحددات الثقافة السياسية ومدلولات علاقاتها العربية والدولية السائدة في إدارة صراع مع الدولة الاستعمارية الاستيطانية من جانب، ولا هدوءاً كافياً لتجنب التورط في مواجهات مسلحة مع دول عربية كما حدث في أكثر من بلد عربي. لقد تبين صعوبة الانفكاك من السمات الريعية والبيروقراطية والنخبوبة عند بناء مؤسسات السلطة الفلسطينية وحصر عملية اتخاذ القرار بفئة صغيرة من القيادة (على صعيد المنظمة وعلى صعيد الفصائل المكونة لها)، بل جرى تكرار العديد من الأخطاء السابقة. هذه النظرة للسياسة كاختصاص تتولاه نخبة صغيرة هو الذي يفسر الامتناع عن تجديد ودمقرطة مؤسسات منظمة التحرير وتغييب دورها، وفي الكيفية التي تمت في بناء مؤسسات السلطة الفلسطينية عام ١٩٩٤، وفي عملية انشطارها إلى سلطتين في العام ٢٠٠٧ وفي الإحجام عن إجراء الانتخابات التشريعية والرئاسية ولعضوية المجلس الوطني بدوافع الخشية من الخسارة.

التمسك بهذا الفهم لماهية السياسة بعد قيام السلطة الفلسطينية أبقى القيادات السياسية أسيرة لضعفها ولعزلتها عن الجمهور الفلسطيني داخل وخارج فلسطين التاريخية. فالمفاوضات الثنائية مع إسرائيل، المفصولة تماما عن إستراتيجية سياسية شاملة تجرى دون علم (ناهيك عن مشاركة) الجمهور الفلسطيني، والمقاومة بالمفهوم الذي طرح ومورس استبعد مشاركة فعلية لغالبية هذا الجمهور. إنه مفهوم يحوّل السياسة إلى مهنة لأقلية توفر لها امتيازات تبقيها متمايزة عن شعبها وفي عزلة عن قضاياه ومشكلاته الفعلية.

لقد سلب هذا الفهم الممارس حق الجمهور الفلسطيني، حيث وجد، مناقشة وإقرار رؤيته وإستراتيجيته النضالية والاجتماعية والسياسية وفق خصوصية واحتياجات وجوده في هذا وذاك من تجمعاته، وفي المشاركة في صياغة الرؤية الوطنية الجامعة بإشراك كل مكونات الشعب الفلسطيني وفي منحها صلاحية اختيار قياداتها المحلية ومحاسبتها، كما في اختيار ممثليها إلى المؤسسة الوطنية الجامعة (منظمة التحرير المجددة) ومحاسبتهم. ما هو مطلوب هو إيجاد الصيغة التي تكفل ممارسة التجمعات الفلسطينية لحقوقها في المشاركة المباشرة في تقرير مصيرها ومصير عموم الشعب الفلسطيني بكامل مكوناته.

كانت نتيجة هذا الفهم للسياسة تفكك الحقل السياسي الوطني إلى محليات بدون مقومات (تنظيمية ومؤسساتية وسياسية) لممارسة سياسة محلية (على صعيد كل تجمع) وبدون مقومات للمشاركة في الفعل الوطني نتيجة غياب المؤسسات الوطنية الجامعة. ومع اختفاء هذه ومعها الروابط الشعبية والمهنية والثقافية الوطنية سُلبت التجمعات الفلسطينية من الروابط الضرورية للتواصل والتداول فيما بينها، وانتهى الأمر إلى انشطار السلطة الفلسطينية إلى سلطتين على إقليمين

منفصلين يتباريان في بناء أجهزة وبنى سلطة "عميقة" أكثر من الإعداد والاستعداد لمعركة طويلة المدى مع دولة الاستعمار الاستيطاني .

وطنية فلسطينية تبحث عن أدوات ومفاهيم وتقاليد سياسية جديدة

انهيار الحقل السياسي الذي بنته وهيمنت عليه منظمة التحرير لا يعني غياب الوطنية الفلسطينية بل هي حاضرة ومتمسكة بالرواية التاريخية للشعب الفلسطينية بل نجد أنها تتولى بنفسها، بعيدا عن النخب السياسية المتنفذة، عملية إثراء الحياة الفكرية والثقافية في حقولها المختلفة و الحفاظ على الذاكرة الجماعية وتوثيقها.

الوطنية الفلسطينية تغذت، ولا تزال، من حالة صراع ومعاناة ومقاومة طويلة للشعب الفلسطيني، ومن سردية متجددة لهذه الحالة. ويبدو أن الوطنية الفلسطينية قد باتت في حالة استنفار دائم لاستشعار قطاعات تتسع من الفلسطينيين بأن قضيتهم الوطنية دخلت في مرحلة خطر شديد. ولعل غياب المركز القيادي الممسك بكل القرارات المصيرية قد حرر التجمعات الفلسطينية من تبعات وقيود هذه العلاقة وفتح أمامها المجال للبحث عن وسائل للمشاركة في تقرير المصير الوطني عبر أشكال ومساهمات مختلفة ثقافية وفكرية وفنية وعبر حراكات موقعية متنوعة داخل فلسطين التاريخية، وفي الشتات والجاليات. من محفزات هذا الاستنفار ما يجري من استمراء لإدامة الانقسام والتصارع الداخلي حول مصالح فئوية وسلطوية وما ساد ويسود من أساليب عمل وتنظيم ومواقف من النخب السياسية والحزبية التي فقدت قدراتها التعبوية بسبب جمودها السياسي والتنظيمي والفكري.

كما تغذت الوطنية الفلسطينية من مرحلة طويلة من التسييس والممارسة الكفاحية ومن المعاناة والانكشاف للتمييز والتنكيل. والوطنية هي المحرك لمبادرات شبابية (وغير شبابية) في الضفة والقطاع التي عملت، ولا تزال، على تجاوز الخطاب الفصائلي وتهتم بالتركيز على مهام التحرر الوطني ورفض منطق الخمول والانصياع لما هو قائم. وهي المحرك لرفض منطق التعاطي مع الشعب الفلسطيني باعتباره مجموعة من الشعوب على كل منها تولي متابعة مصالحه بعيدا عن المصالح والحقوق الجامعة. ولذا رفعت هذه المبادرات شعار إعادة بناء الحركة الوطنية (أو منظمة التحرير الفلسطينية) على أسس ديمقراطية كحركة تحرر وتمثيلها لكل تجمعات الشعب الفلسطيني واتجاهاته السياسية والفكرية بهيئة (مجلس) وطنية منتخبة قاعديا، وتغيير وظائف السلطة الفلسطينية جذريا.

ولعل من دلالات حيوية الوطنية الفلسطينية تعدد وتواتر الحراكات النضالية الموقعية في الضفة الغربية (بلعين والمعصرة والخضر ونعلين والنبي صالح، على سبيل المثال...)، وما جرى من ابتداع أشكال جديدة في تحدي الاستيطان الإسرائيلي عبر بناء قرى فلسطينية في المناطق المهددة بالاستيطان (كما حدث في إقامة قرى باب الشمس، وأحفاد يونس وغيرها والتي جوبهت باستنفار وحدات من الجيش الإسرائيلي). وفي قطاع غزة كان اللافت الحشود الجماهيرية الواسعة في مدينة غزة بمناسبة انطلاقة الثورة في العام ٢٠١٣، والاستقبال الشعبي للشاب محمد عساف بعد فوزه بلقب محبوب العرب في حزيران ٢٠١٣ تحديا لمواقف سلطوية في قطاع غزة. ومن هذه الدلالات ما تشهده المراكز والحلقات والأندية الثقافية والفكرية والبحثية على طرفي الخط الأخضر وخارج فلسطين التاريخية من نشاطات وتداولات وندوات وحراكات، وما شهدته الذكرى الثالثة والستين للنكبة من اقتحام لحدود فلسطين التاريخية حيث سمح للجمهور الفلسطيني بالتوجه نحو هذه الحدود. ومنها تنظيم التحركات لمقاومة التمييز والاستيطان اليهودي في إسرائيل، وفي مقاومة سكان النقب لمصادرة أراضيهم وتهجيرهم. كما شهدت السنوات الأخيرة تطورا ملحوظا في حملات مقاطعة إسرائيل اقتصاديا الذي تولته حركة مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها، ومن فعاليات استهدفت فك الحصار عن قطاع غزة. كما يلفت التنسيق الجاري بين المنظمات الأهلية داخل وخارج فلسطين التاريخية في قضايا مختلفة (منها الدعوة إلى وقف التنسيق الأمني بين أجهزة السلطة الأمنية والأجهزة الأمنية الإسرائيلية، والدعوة إلى تبني إستراتيجية وطنية جديدة للمقاومة الشعبية، فض العمل وفق بروتوكول باريس الاقتصادي، وغيرها).

كما تحضر حيوية الوطنية الفلسطينية في نشاط عشرات الجمعيات واللجان والاتحادات والمراكز التي تتولى الدفاع عن حق العودة وتحرص على إبقائه حيّا في أذهان الأجيال الصاعدة. وهي حاضرة في تنوع الإنتاج الثقافي (السينما، الغناء، الرقص، الرواية، الشعر، الفن التشكيلي، المسرح، تجديد المهارات الحرفية، وما شابه) الذي أخذ تسارعا في تواتره في العقدين الأخيرين، هذا بالإضافة إلى ما يجري بثه وتناقله يوميا عبر مواقع التواصل الاجتماعي المتعددة.

هذه الفعاليات والحراكات بقدر ما تعكس حيوية الوطنية الفلسطينية فإنها تتولى إثرائها وتحديدا من قبل مجموعات ومؤسسات وأطر تحرص على إبقاء المضمون الديمقراطي التحرري والتقدمي لهذه الوطنية حيا ومتجددا، وترفض فرض سيطرة أيديولوجية شمولية سواء جاءت باسم الدين أو باسم الوطنية أو تحت شعار الواقعية السياسية، وهي تصر على وحدة القضية الوطنية وتكامل مطالب وحقوق الشعب الفلسطيني في تجمعاته المختلفة.

في مواجهة التهميش وتغييب المؤسسات الوطنية

يقف الحال الفلسطيني أمام واقع مركب قوامه تهميش وتآكل وغياب المؤسسات الوطنية السياسية والشعبية والمهنية الجامعة التي تشرك مكونات الشعب الفلسطيني داخل فلسطين التاريخية وفي الشتات والجاليات)، وأمام حالة تغيب عنها قيادة سياسية موحدة للشعب الفلسطيني، وأمام استفحال واقع الانقسام السياسي-الجغرافي-المؤسساتي بين الضفة والقطاع، وبعد اتضاح وصول "حل الدولتين" لطريق مغلق تماما، وتهافت السياسة الفلسطينية وتواصل تبعية وهشاشة اقتصاد الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين، وتشويه تاريخ وجغرافيا وسكانية الشعب الفلسطيني والتنكر لحقوقه التاريخية والوطنية والإنسانية .

لقد هيأت الانتفاضات الشعبية التي قامت من أجل "الخبز والحرية والعدالة والكرامة الوطنية" التي شهدها عدد من البلدان العربية بيئة ملائمة للنخب السياسية الفلسطينية لاستخلاص مفهوم ورؤية جديدين للسياسة ولكيفية الشروع في استعادة الوحدة الوطنية في سياق إعادة بناء المؤسسات الوطنية الجامعة على أسس ديمقراطية تمثيلية وتحويل كل تجمع إلى مركز قائم بذاته ومتآلف مع المراكز الأخرى في إطار مؤسسات وطنية جامعة ومرجعية ميثاقية (او تعاقدية) ملزمة. لقد بيّنت التجربة الطويلة فشل التعاطي مع المفاوضات الثنائية مع إسرائيل باعتبارها إستراتيجية للتحرير ولبناء دولة فلسطينية سيادية. كما كانت التجربة كافية تماما لتبيان حدود ومخاطر اختزال المقاومة إلى شكل واحد فقط بدلاً من التعامل معها كفعل شعبي متعدد الأشكال والمضامين تقوده إستراتيجية وطنية مجمع عليها وتشرك كل مكونات الشعب الفلسطيني داخل فلسطين التاريخية وفي الشتات والمهجر.

ما زالت القوى السياسية الفلسطينية تحجم عن السير لإعادة إحياء وتجديد الحركة الوطنية الفلسطينية، فما زال بين هذه القوى من يراهن على أن تعود المتغيرات الجارية في المنطقة لما في صالحه، ومن هنا كان التأجيل والمماطلة والبحث عن الأعذار وصيغ التسويف. وهكذا وضع المصير الوطني رهن العوامل الإقليمية والدولية رغم وضوح أن بقاء الوضع على ما هو عليه يعني وضع الحال الفلسطيني في حالة انكشاف تام. هذا رغم وضوح أن سنوات الانقسام أنتجت مصالح فئوية بفعل آليات التفرد في سلطة واهمة هنا وهناك، حيث نمت شريحة اجتماعية واقتصادية ترى إلى إنهاء الانقسام على أسس وطنية تهديدا لمصالحها.

لعل اتضاح أن "حل الدولتين" قد وصل إلى طريق مسدود تماما لغالبية من الشعب الفلسطيني،

واتضاح عقم استخدام شعار المقاومة كما تحولت المفاوضات الثنائية تحت الإشراف الأمريكي إلى تعاويذ لتبرير التفرد بالسلطة ولإدارة الظهر لضرورة اعتماد إستراتيجية جديدة تماما، سوف يشد من عزم الوطنية الفلسطينية ويستفز القوى الحية بين صفوف الشعب الفلسطيني. كما أن المواجهة المستمرة مع الدولة الاستعمارية الاستيطانية على جانبي الخط الأخضر كفيلة بإثراء الوطنية الفلسطينية في مناهضتها التمييز العنصري ومن أجل حقوقها الوطنية والتاريخية. ولعل من شأن تزايد المبادرات والنشاطات الثقافية والفكرية والاجتماعية الشبابية (وغير الشبابية) داخل فلسطين وخارجها أن يعيد الديناميكية إلى الأطر السياسية والنقابية والحزبية التقليدية للنهوض من جديد على أسس جديدة تعيد لحق تقرير المصير مضمونه التحرري الديمقراطي التقدمي.

تدفع الأوضاع الحالية للتجمعات الفلسطينية نحو تطوير مفهوم جديد للفعل السياسي مغاير تماما للنمط النخبوي الذي ساد وما زال. يُلحظ هذا بين صفوف الأقلية الفلسطينية في إسرائيل، نتيجة الوعي باستحالة التعايش مع نظام عنصري ودولة تصر على أن تُعرّف نفسها كدولة يهودية وأن تدعي الديمقراطية في آن، وتشترط من الشعب الفلسطيني الاعتراف بها بهذه الصفة بكل ما يعنيه ذلك من إنكار لحقوقه ولروايته التاريخية والوطنية والانسانية، وما قد يترتب عليه من تهجير جديد تحت شعار حماية يهودية الدولة. كما يسري هذا التسييس الديمقراطي الآخذ في التبلور في صفوف تتسع (وإن ببطء) بين صفوف المجتمع الفلسطيني في الضفة والقطاع بعد أن عاين بالملموس بؤس سياسة القيادات السياسية التي ولدت الانقسام ومنحت الأولوية للمصالح الفئوية على المصالح الوطنية وتركت حالات البطالة والفقر والفساد تستشري. أما تجمعات الشتات فوجدت أن موجبات اتفاق أوسلو ومواقف إسرائيل إزاء حقوقهم قد تركتهم دون حماية أو دور أو رأي.

بيّنت الانتفاضات الشعبية الديمقراطية في العالم العربي حماقة اختزال الديمقراطية بصندوق الاقتراع المفرّغ من مضامين اجتماعية وقيميّة (كالمشاركة السياسية والمساواة والعدالة الاجتماعية وحرية التعبير والتنظيم والمعتقد والتظاهر..) ذات الضمانات الدستورية والبنى المؤسساتية. وكشفت كاريكاتورية اختزال المجتمع إلى مجرد مجموعة ما فيه من منظمات غير الحكومية بمعزل عن مكوناته الاقتصادية والثقافية والحزبية وما فيه من حركات اجتماعية ومؤسسات مدنية متنوعة. كما لم يعد من السهل اختزال الدولة أو السلطة إلى مكونها التنفيذي بمعزل عن مكونهما التشريعي والقضائي المستقلّين. و خطورة اختزال التنظيمات السياسية بزعمائها، و اختزال العمل السياسي لمجرد التعليق على ما يجرى من أحداث وليس الفعل فيها، وسذاجة عزل السياسة عن الاقتصاد وعن شؤون الناس الحياتية (التعليمية والصحية والثقافية والغذائية، والأمنية، والمعيشية، وغيرها).

يستحق مطلب إعادة بناء مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية على أسس ديمقراطية وتمثيلية لمختلف مكونات الشعب الفلسطيني - وبما يستدعيه من وثائق مرجعية (ميثاق وطني أو عقد اجتماعي-سياسي) ومن إستراتيجية وطنية شاملة (لا تخص تجمعاً بعينه بل تشملها جميعا) - أن يمنح أولوية. فمن حق التجمعات الفلسطينية المشاركة في صياغة السياسات الوطنية، ومن حقها التقرير بشأن ما يخص القضايا المتصلة بمجتمعها/جاليتنا/ تجمعها ورفض "ديمقراطية" النخبة التي تعني تسلط فئة محدودة بالتقرير بشؤون المصير الوطني. ومن حق، بل من واجب، جميع مكونات الشعب الفلسطيني أن تتعاهد على رفض أي مشروع تسوية يتم على حساب حقوق تجمع آخر أو تجمعات أخرى.

تجديد مؤسسات وأطر وبنية منظمة التحرير (الحركة الوطنية) على أسس ديمقراطية تعددية وتمثلية وإشراكية يعني حصر مهمات السلطة الفلسطينية بالشأن الحياتي المباشر لفلسطيني الضفة والقطاع، كمساهمة في تثبيت وصمود هذا الجزء من الشعب الفلسطيني على أرضه ، وترك الشؤون الوطنية التمثيلية والسياسية والإستراتيجية لهيئات منظمة التحرير بعد تجديدها. ولعل المهمة الأولى تتلخص بإعادة بناء منظمة التحرير على أسس ديمقراطية منفتحة على كل التيارات السياسية والاجتماعية والفكرية، وضمان تمثيل كل التجمعات الرئيسة في المؤسسات الوطنية وفق حجمها النسبي على قاعدة التزام الجميع بالميثاق الوطني المقر (أو العقد السياسي الاجتماعي)، ورفض اختلاق تعارض بين التحرر الوطني والنضال من أجل تقرير المصير (السيادة الشعبية) من جهة، وبين القيم والمبادئ التي تقوم عليها الديمقراطية العميقة (كتجسيد قيم الحرية والمساواة والتكافل والعدالة الاجتماعيين). وهي قيم تحتفي بتراث الشعب الفلسطيني المقاوم ذي التاريخ النضالي المديد والغني، وقيم لا تضع المقاومة بمفهومها كفعل شمولي في تعارض مع قيم المساواة والعدالة الاجتماعية والحرية.

© من أرشيف رواق مركز المعمار الشعبي

مسيرة التسوية الفلسطينية ومصيرها

(من ايرل بيل/١٩٣٧ الى جون كيري/٢٠١٣)

عبد الفتاح القلقيلي*

التسوية بالاساس مصطلح تجاري، وتحديدا في "المحاسبة"، ويدل على عملية مقابلة الأرصدة الدائنة والمدينة، وخصمهما من بعضهما لتحديد النتيجة التي تسمى الرصيد. والتسوية ايضا تعني مسح قطعة أرض و/أو تمهيدها، وغالبا ما توجد دائرة "تسوية" ضمن دائرة الأراضي والطابو. ولكن المصطلح بهذا المعنى وذاك نادرا ما نراه او نسمعه، بينما مصطلح التسوية الذي يتردد دائما هو التسوية السياسية. وغالبا ما يلحق بمصطلح التسوية السياسية وصف "السلمية".

يحمل مصطلح "التسوية السلمية" معنى محاولة فض النـزاع بين طرفين أو أكثر حول القضية مثار الخلاف بالطرق السلمية. وعادة ما تتم بقبول الأطراف لحلٍّ يوقعون عليه، ويلتزمون بتنفيذه، بناء على اتفاقية محددة. وليس شرطاً أن تكون التسوية السلمية "عادلة"، أو حلاً "وسطاً"، إذ إنها تعكس في غالب الأحيان موازين القوى، وحالات الانتصار والهزيمة، والضغوط الداخلية والخارجية. كما أن التسوية السلمية ليست بالضرورة حلاً دائماً، إذ قد تلجأ إليها القوى المتصارعة لأخذ فسحة من الوقت بانتظار تغير الظروف إلى الأفضل، من أجل فرض تسويات جديدة تعكس تَغيُّر موازين القوى.

ولكن هذا المصطلح قد يكون مُضللاً عندما يتعلق بالشأن الفلسطيني، إذ إن معظم مشاريع التسوية السلمية تكون عادة بين دول مختلفة متنازعة او متحاربة، أو بين أطراف داخلية متنازعة

* كاتب وباحث فلسطيني

من أبناء الوطن الواحد. أما المعاهدات التي تنتزعها قوى منتصرة نتيجة احتلالها لأرض شعب آخر وتشريد أهله واستغلال خيراته، فهي معاهدات بين غاصب محتل وبين شعب مقهور، وهي تعكس حالة استسلام من الطرف الضعيف إلى الطرف الأقوى. وهي بالتالي ليست صراعاً حدودياً أو إسقاطاً لنظام حكم، وإنما هي حالة استعمارية تكون أي تسوية فيها (مهما كانت) تسوية ظالمة لأهل الأرض المحتلة، لأنها بالضرورة ستنتقص ولو جزءاً من أرضهم، أو حريتهم في تقرير مصيرهم، أو سيادتهم التامة على أرضهم أو في إقامة دولتهم.

تعرّضت القضية الفلسطينية لأكبر عدد من التسويات المقترحة. كانت الأولى رؤية "ايرل بيل" رئيس اللجنة الملكية البريطانية عام ١٩٣٧ والقاضية بتقسيم فلسطين الى قسمين: في الأول تُقام دولة يهودية، أما الثاني فيُضم لإمارة شرقي الأردن لتقوم دولة عربية. أما التسوية الأخيرة المقترحة فهي رؤية الرئيس الأمريكي باراك اوباما عام ٢٠١١ والقاضية بإقامة دولة فلسطينية عزلاء ومنقوصة السيادة على ٢٢٪ من الأراضي الفلسطينية، واعتراف العرب ومنهم الفلسطينيون بدولة يهودية على الباقي منها. وتتطوّر هذه الرؤية على يد "جون كيري" وزير خارجيته عام ٢٠١٣ لتقضي ببقاء قوات اسرائيلية في الغور الفلسطيني إما على أساس الإستئجار أو كضرورات أمنية. ولقد صدر العديد من الكتب حول مشاريع الحلول السياسية وكان اشملها كتاب مهدي عبد الهادي بعنوان "المسألة الفلسطينية ومشاريع الحلول السياسية ١٩٣٤- ١٩٧٤".

وفي هذه الورقة سأستعرض تلك المسيرة لنرى ما هو المصير.

نستطيع أن نقسم المسيرة إلى أربع حقب:

الحقبة الاولى من النكبة الى النكسة (١٩٤٨ – ١٩٦٧)، والحقبة الثانية من النكسة حتى حرب اكتوبر (١٩٦٧- ١٩٧٣)، والحقبة الثالثة من حرب اكتوبر الى حرب الخليج الثانية (١٩٧٣- ١٩٩١)، والحقبة الرابعة من مؤتمر مدريد الى يومنا هذا (١٩٩١- ٢٠١٣).

الحقبة الاولى من النكبة الى النكسة (١٩٤٨- ١٩٦٧)

كان القاسم المشترك لمشاريع التسوية في هذه المرحلة هو التعامل مع قضية فلسطين بوصفها قضية لاجئين، أي الشق الإنساني من الموضوع وليس السياسي. ففي ١١ ديسمبر ١٩٤٨ وبناء على مشروع بريطاني وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على إصدار القرار ١٩٤ القاضي بوجوب السماح بالعودة للاجئين الفلسطينيين الراغبين في العودة إلى بيوتهم في أقرب وقت ممكن، ووجوب دفع تعويضات عن ممتلكات الذين يقررون عدم العودة إلى بيوتهم، وأن يتم تعويض أي مفقود أو مصاب بضرر من الجهة المسؤولة عن ذلك.

ومن الجدير ذكره أن قرار حق العودة هذا قد جرى التأكيد عليه سنوياً في اجتماعات الأمم المتحدة، وصدر أكثر من ١١٠ مرات حتى الآن، مع رفض "إسرائيلي" مستمر لتنفيذه، ودون أن تتحرك الأمم المتحدة بأي خطوة عملية لإلزام اسرائيل به.

وتوالت المشاريع التي تركز على قضية اللاجئين وعلى تحقيق تسوية بين الدول العربية والكيان الصهيوني، دونما إشارة لإنشاء كيان سياسي فلسطيني.

وكان أهم هذه المشاريع مشروع برنادوت.

مشروع برنادوت:

في ١٩٤٨/٥/٢٠ عيّنت الأمم المتحدة الكونت فولك برنادوت السويدي وسيطا دوليا للاتصال بالاطراف المتنازعة في فلسطين، وبذل مساع حميدة بين الطوائف والفئات والقوات المتقاتلة لايجاد تسوية بينها. وقد استطاع أن يحقق الهدنة الاولى في فلسطين في ١٩٤٨/٦/١١. وتمكن بعد مساع لدى الجانبين العربي والاسرائيلي من الاتفاق على مفاوضات ستُعقد في رودس في نهاية عام ١٩٤٨. وخلال نشاطاته، واتصالاته، وحواراته مع جميع الاطراف، وفي ضوء ما تلقاه من ردود على مقترحاته السابقة، أعدّ مقترحا جديدا باسم "مشروع برنادوت" من اجل إعادة السلام الشامل للأراضي المقدسة، وعودة العلاقات الطيبة بين العرب واليهود. وبعث به الى الامين العام للامم المتحدة، ونُشر هذا المشروع في ١٩٤٨/٩/٢٠(بعد ثلاثة ايام من اغتياله) كوثيقة من وثائق الامم المتحدة. واهم نقاط المشروع:

١- يعترف العالم العربي انه قد اصبح في جزء من فلسطين دولة يهودية ذات سيادة تدعى اسرائيل، وهي تمارس سلطانها فوق ارضها.

٢- تكون حدود هذه الدولة ضمن الحدود التي اقترحها قرار الامم المتحدة رقم ١٨١(التقسيم)، مع التعديلات التالية:

أ- تُضم منطقة النقب بما فيها مدينتا المجدل والفالوجة للمنطقة العربية.

ب- تُضم منطقة الجليل بكاملها الى الدولة اليهودية.

٣- يُترك للدول العربية أن تقرر مصير الاراضي العربية في فلسطين بالتشاور مع سكانها (اقامة دولة مستقلة، او متحدة مع شرقي الاردن). ولكن نظرا للعلاقات المميزة بين المنطقة العربية في فلسطين وشرقي الاردن، فمن الافضل ضمها الى شرقي الاردن.

٤- تُعلن حيفا (بما في ذلك منشآت البترول) مرفأ حرا للطرفين

٥- توضع القدس تحت اشراف الامم المتحدة، ويتمتع العرب واليهود كل في منطقته بإدارة ذاتية، مع حرية تامة للجميع في العبادة وزيارة الاماكن المقدسة.

٦- تؤكد الامم المتحدة على حق اللاجئين في العودة الى ديارهم، على ان تُدفع تعويضات لمن لا يرغب منهم بالعودة.

٧- يضمن كل من الطرفين حقوق الاقلية التي تسكن منطقته.

رُفض مشروع برنادوت من قبل جميع الاطراف العربية واليهودية، غير ان الرفض اليهودي كان اعنف، إذ قامت عصابة "شتيرن" باغتياله جهارا نهارا يوم ١٩٤٨/٩/١٧، ليقوم مساعده الأمريكي "رالف بانش" بمتابعة مهام الوسيط الدولي، فيشرف على اتفاقيات الهدنة الدائمة بين اسرائيل وكل من مصر والاردن ولبنان وسوريا.

ويمكن القول أن هذه المقترحات كانت اساسا في انشاء لجنة التوفيق الدولية التي كونتها الامم المتحدة، كما أنها كانت اساسا لقرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ في ١٩٤٨/١٢/١١ الخاص بحق اللاجئين الفلسطينيين بالعودة الى ديارهم، والتعويض عن ما لحق بهم من خسائر وأذى(١).

وكانت هناك مشاريع اخرى:

فمثلا كان هناك المشروع النرويجي في ٢٦ نوفمبر ١٩٥٢ الذي دعا إلى توقف الأعمال العدوانية والدخول في مفاوضات مباشرة بين الأطراف المعنية. وكان هناك مشروع "جاما" الأمريكي ١٩٥٥ - ١٩٥٦، حيث يذكر مايلزكوبلاند أن روزفلت حصل على موافقة كل من بن جوريون وجمال عبد الناصر على عقد لقاء سرِّي على متن يخت في البحر المتوسط. ولكن عبد الناصر أصَّر أن توافق "إسرائيل" من حيث المبدأ على قبول عودة الفلسطينيين الراغبين في العودة وأن تحصل مصر على ممر يوصلها بالأردن، لكن المشروع فشل لرفض الجانب الإسرائيلي مناقشة أي تنازلات من طرفه. وهناك مشروع جونستون الأمريكي ١٩٥٣ - ١٩٥٥ الذي استهدف تصفية قضية اللاجئين وقضية فلسطين، عن طريق تعاون الدول العربية مع الكيان الإسرائيلي في استثمار مياه نهر الأردن بطريقة تكفل تطور المنطقة زراعياً، وتهيئة سبل الاستقرار فيها للاجئين، ولمزيد من المهاجرين اليهود. وقد رفض مؤتمر اللاجئين المنعقد في القدس في ٢٠ مايو ١٩٥٥ المشروع (٢).

وهناك مشروع دالاس وزير الخارجية الأمريكي الذي دعا في ٢٦ أغسطس ١٩٥٥ إلى إنهاء مشكلة اللاجئين بعودتهم إلى وطنهم "إلى الحد الذي يكون ممكناً"، وبتوطين الباقي في المناطق العربية التي

يقيمون فيها، ودعا إلى إجراءات جماعية لمنع أي حرب أو عدوان بين دول المنطقة، وإلى تسوية الحدود بين البلاد العربية والكيان الإسرائيلي (٣).

وفي ١٥ يونيو ١٩٥٩ صدر عن همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة مشروع ركز على حل مشكلة اللاجئين بتوطينهم واستيعابهم عبر مساعدة الدول التي يتواجدون فيها اقتصادياً، رغم إشارته إلى حقهم في العودة. وقد رفض الفلسطينيون هذا المشروع بقوة وأقام ممثلوهم في لبنان المؤتمر الفلسطيني الذي عقد في ٢٦ يونيو ١٩٥٩، والذي رفض تذويب الفلسطينيين في اقتصاديات الشرق الأوسط (٤).

أما المشروع العربي الوحيد في تلك الفترة الذي يستحق الإشارة باعتباره اختراقاً للإجماع العربي حول "السلام" مع الكيان الصهيوني، فكان المشروع التونسي الذي قدمه الحبيب بورقيبة رئيس تونس في ٢١ إبريل ١٩٦٥ وتضمن:

أن تعيد "إسرائيل" إلى العرب ثلث المساحة التي احتلتها منذ إنشائها لتقوم عليها دولة عربية فلسطينية، ويعود اللاجئون إلى دولتهم الجديدة، وتتم المصالحة بين العرب وإسرائيل بحيث تنتهي حالة الحرب.

وقد قوبلت مقترحات بورقيبة باستهجان ورفض عربي شعبي ورسمي عارم، اما اسرائيل فرحبت بمقترحات بورقيبة بوصفها اتجاهاً جديداً في التفكير العربي، واقترح اشكول (١٩٦٥/٥/١٧) تعديلات طفيفة على حدود الامر الواقع، ومفاوضات مباشرة (٥).

الحقبة الثانية من النكسة حتى حرب تشرين (١٩٦٧- ١٩٧٣)

بعد الانسحاب الإسرائيلي من سيناء (١٩٥٧) تمركزت القوات الدولية في شرم الشيخ فكان وجودها سبباً في تمكن السفن الإسرائيلية أو السفن المتوجهة إلى إسرائيل من عبور مضائق تيران بحرية تامة.

وفي ١٦/مايو/١٩٦٧ طلبت مصر سحب هذه القوات ثم ما لبثت أن احتلت في ٢١/مايو/١٩٦٧ منطقة شرم الشيخ وأعلنت إغلاق المضيق في وجه الملاحة الإسرائيلية وعودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل العدوان الثلاثي.

وفي الخامس من يونيو ١٩٦٧ حدث العدوان الإسرائيلي الجديد بدعم من الولايات المتحدة وأسفر عن استيلاء إسرائيل على شرم الشيخ وسيناء وغزة والضفة والجولان وتحكمها في مضائق تيران.

سميت هذه الحرب بـ"حرب الايام الستة" كما اطلق عليها المصريون "النكسة". وكانت فعلا نكسة

للآمال العربية، واحدثت ضجة عالمية، والتأم مجلس الامن الدولي في١٩٦٧/١١/٢٢، واتخذ قراره الاشهر رقم ٢٤٢، والذي اشتهر برقمه لا بمضمونه كقرار التقسيم مثلا. وكان هذا القرار انجليزيا وافق عليه بقية اعضاء المجلس.

رفضته الجماهير العربية وفي مقدمتها المقاومة الفلسطينية، وانقسمت الانظمة العربية بين قابل ورافض، ولكنه بقي الأساس لأي تسوية حتى قبلته منظمة التحرير. طغى جدول جديد لمشاريع التسوية، تركَّز على أراضٍ لم تكن محتلة أصلاً بحيث أصبحت هي موضوع المساومة، وقد أصبحت مشاريع التسوية من الكثرة بحيث يصعب مجرد سردها، غير أن الإطار العام للمشاريع العربية (وخاصة المبادرة العربية عام ٢٠٠٣) سيتركز على انسحاب اسرائيل من الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧، واقامة دولة فلسطينية على هذه الارض. والإطار العام للمشاريع الإسرائيلية سيتركز على إنهاء حالة الحرب وإقامة علاقة طبيعية مع البلاد العربية، مع إنكار حقوق الشعب الفلسطيني. أما الإطار العام للمشاريع الدولية فسيحاول الجمع بين الرؤيتين العربية والاسرائيلية، (بميلان نحو احد الطرفين) بحسب الجهة التي تقدم المشروع وطبيعة علاقتها بالطرفين:

١- الخيار الاردني: وهو اخطر وأهم مشاريع التسوية التي طُرحت منذ النكسة حتى يومنا هذا. وهو باختصار "حل القضية الفلسطينية عن طريق الاردن جغرافيا وسياسيا". وهذا الخيار كان مطروحا منذ عام ١٩٣٧، ولكنه عاد بحدة منذ مؤتمر مدريد عام ١٩٩١.

في عام ١٩٣٧، وعلى إثر ثورة ١٩٣٦، جاءت "لجنة بيل" البريطانية، وقدّمت اقتراحا لحل القضية الفلسطينية بتقسيم فلسطين الى كنتونين: الاول يشمل منطقة الساحل باستثناء المنطقة ما بين يافا وغزة، ويكون دولة لليهود. والكنتون الثاني يشمل ما تبقى من فلسطين ويُضم لشرقي لاردن. واعلن الملك عبد الله ترحيبه بالحل، ولكنه كان مرفوضا فلسطينيا وعربيا.

وفي عام ١٩٤٦ عُقدت معاهدة بريطانية أردنية، وجرى تعديلها في بداية عام ١٩٤٨ لتسمح لقوات اردنية ان تحل في المناطق العربية (حسب قرار التقسيم رقم ١٨١) محل القوات البريطانية التي ستغادر فلسطين في ١٥ أيار من ذات العام. وايضا رُفض هذا الحل فلسطينيا، فاقيمت "حكومة عموم فلسطين" ومقرها في غزة. كما رُفض عربيا فتقرر ان تدخل يوم ١٥ أيار قوات عربية، كرد على الحل الأردني.

وفي أواخر عام ١٩٤٨، وعلى اثر الهزيمة العربية التقى محمد الجعبري، ويحيى حمودة، وعجاج نويهض، وبعض آل النشاشيبي، وشخصيات أخرى من فلسطين، وعدد من الشخصيات الأردنية، وشكلوا ما سمي مؤتمر اريحا الذي أقرّ "الوحدة الأردنية الفلسطينية". وبايع المؤتمرون الملك عبد الله ملكا على هذا الكيان الجديد. وأعطي كل الفلسطينيين المقيمين في فلسطين (خارج اسرائيل

وغزة) الجنسية الاردنية وفق المادة الثالثة من الدستور الاردني.

وفي عام ١٩٦٤، وحينما أنشئت منظمة التحرير الفلسطينية، جاء في المادة ٢٤ من ميثاقها القومي ان المنظمة لا تمارس اية سيادة اقليمية على الضفة الغربية من المملكة الاردنية، ولا على قطاع غزة (الذي كان تحت الادارة المصرية)، ولا على منطقة الحمّة (التي كانت تحت السيادة السورية).

وبعد عام ١٩٦٧، واحتلال اسرائيل الضفة الغربية وغزة، بدأت سلسلة مشاريع الخيار الاردني من قرار ٢٤٢، الى التقاسم الوظيفي (بين الاجهزة الامنية الاردنية والاسرائيلية)، الى التوطين، الى المملكة المتحدة، الى الكونفدرالية.

كان الخيار الاردني أحد خيارات النظام الاردني والقيادة الفلسطينية، ولكن منذ بداية هذا القرن صار مرفوضا اردنيا رسميا وشعبيا، وكذلك فلسطينيا، وعربيا. وهذا الحل هو الافضل لاسرائيل، ولكنهم لم يعودوا يأملون بتحقيقه، فلم يعد مطروحا الا عند اليمين الاسرائيلي المتشدد، ولكنه غير مستبعد كخيار امريكي قد تفرضه على المنطقة.

واذا كان الحل غير اردني، فستكون سياسة النظام الاردني فيما يخص الفلسطينيين عنده هي "الاحتفاظ بأكثر ما يمكن من مالهم، واقل ما يمكن من ناسهم". واما السياسة الاسرائيلية فيما يخص الفلسطينيين عندها فستكون "الاحتفاظ بأكثر ما يمكن من ارضهم، واقل ما يمكن من ناسهم".

٢- مشروع روجرز (وزير خارجية امريكا) في ١٩٧٠/٦/٢٥، ويستند الى تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ من خلال مفاوضات بين الطرفين للتوصل الى اتفاق سلام "عادل ودائم" على اساس الاعتراف بالسيادة وسلامة الكيان الاقليمي لكل طرف (اسرائيل ومصر والاردن). قبلته كل من مصر والاردن، ورفضته منظمة التحرير الفلسطينية، فتوترت علاقتها بمصر، وازداد توترها مع الاردن (٦).

٣- مشروع جولدا مائير (رئيسة وزراء اسرائيل) في ١٩٧١/٢/٩. ركز هذا المشروع على الدخول في محادثات سلام دون شروط مسبقة، كما عرض انسحابات من سيناء بشرط أن تكون منـزوعة السلاح، وعرض انسحابات من أجزاء من الضفة الغربية، وأصر على بقاء القدس الموحدة (الشرقية والغربية) عاصمة لاسرائيل، مع رفض إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية (٧).

٤- مشروع آلون: كان يغئال آلون (وزير العمل الاسرائيلي عام ١٩٦٧، ووزير الخارجية عام ١٩٧٦) اول اسرائيليي يعرض مشروعا محددا وتفصيليا للتسوية الاسرائيلية الفلسطينية في تموز (يوليو) ١٩٦٧. لقد عرضه وحاور على اساسه العديد من الشخصيات العالمية والعربية، وخاصة الاردنية لسنوات عديدة، ولكنه لم يغير فيه ما يمس جوهره، المتمثل بأن شرط الحدود الاسرائيلية الآمنة والتي يسهل الدفاع عنها يتقدم على كافة الشروط والمقتضيات الاقتصادية والسياسية والدبلوماسية

والاخلاقية والانسانية. وأن خلق الحقائق على الارض بالحرب والإجراءات سيقود حتما للاعتراف بهذه الحقائق يوما ما من قبل الصديق والعدو.

ومنذ طُرح هذا المشروع حتى يومنا هذا ما زالت كل المشاريع التي تطرحها الجهات الاسرائيلية والامريكية (بما فيها مشروع جون كيري الاخير) لا تتجاوز إطار هذا المشروع.

وقد تكوّن مشروع آلون، بعد التأكيد على وحدة القدس عاصمة ابدية لاسرائيل، من النقاط الثمانية التالية:

١- تكون حدود اسرائيل الشرقية على نهر الاردن بامتداد خط يقطع البحر الميت من منتصفه وعلى طول امتداده. وتُعتمد حدود فلسطين الانتداب مع الاردن على طول وادي عربة. وبذلك يجب ان تضم اسرائيل المناطق التالية:

أ- شريطا يتراوح عرضه ما بين١٠ و١٥ كم على امتداد غور الاردن (من غور بيسان وحتى شمال البحر الميت) على ان يبقى فيه الحد الادنى من السكان العرب.

ب- شريطا عرضه بضعة كيلومترات من شمال القدس حتى البحر الميت، بحيث يتصل في مكان ما مع طريق عطاروت.

ت- صحراء يهودا من مشارف الخليل الشرقية وحتى البحر الميت.

٢- يجب ان تُقام في تلك المناطق مستعمرات ريفية ومدينية، وقواعد عسكرية وفق متطلبات الامن.

٣- يجب ان تقام شرقي القدس ضواح بلدية مأهولة بالسكان اليهود، بالاضافة الى الاسراع في تعمير الحي اليهودي في البلدة القديمة وتأهيله. وإقامة مجالس لهذه الاحياء ضمن بلدية مركزية.

٤- توطين سكان غزة (وخاصة اللاجئين) في المناطق العربية في الضفة تمهيدا لضم المنطقة الممتدة من جنوب غزة حتى التلال الرملية على المداخل الشرقية لمدينة العريش في المستقبل.

٥- تبادر اسرائيل الى إقامة روابط مع زعماء وشخصيات من سكان الضفة الغربية للاطلاع على مدى استعدادهم لإقامة حكم ذاتي في اطار اقتصادي مشترك سواء مع اسرائيل او الاردن، وتعاون تقني وعلمي.

٦- تبادر اسرائيل لوضع خطة لحل مشكلة اللاجئين على اساس تعاون اقليمي يحظى بمساعدة دولية.

٧- تقيم اسرائيل سلطة عليا لمعالجة مشكلة المناطق المحتفظ بها.

٨- يكون ممر بين غزة والضفة الغربية، وكذلك بين رام الله واريحا (لا سلطة للعرب عليه) يشبه قانونيا الممر الذي يربط امريكا بألاسكا عبر كندا، او ممر مندلبوم في القدس قبل ١٩٦٧ (٨).

الحقبة الثالثة، من حرب اكتوبر حتى حرب الخليج الثانية (١٩٧٣- ١٩٩١)

كانت حرب اكتوبر هي الجولة الرابعة في الحروب العربية الاسرائيلية التي اندلعت في السادس من تشرين الاول/اكتوبر ١٩٧٣ الموافق العاشر من رمضان، والذي تصادف مع عيد الغفران اليهودي، ولذلك تسمى حرب اكتوبر او حرب تشرين او حرب رمضان او حرب الغفران.

ورغم انها اول خطة عربية للهجوم الا انها كانت (كما ارادها السادات) حرب تحريك وليست حرب تحرير، فسرعان ما اجتمع مجلس الامن ليصدر قراره رقم ٣٣٨ الذي يؤكد على قرار رقم ٢٤٢، وشارك بها الفلسطينيون بشكل رمزي ليكونوا جزءا من الحل. وبعد استقرار الوضع "فاعت" مشاريع التسوية من مؤتمر جنيف، الى مؤتمر كامب ديفد مرورا بالمشروع الامريكي السوفييتي ومشروع بريجنيف ومشروع ريغن. وكافة هذه المشاريع (كما اسلفنا لم تخرج عن اعتراف باسرائيل دولة آمنة وبجانبها حكم ذاتي فلسطيني يتطور الى دولة فلسطينية عزلاء، وديموقراطية و"عاقلة جدا". وطبعا لم يتحقق اي منها. واهم هذه المشاريع:

١- مشروع كامب ديفد: استمرت القمة الثلاثية (كارتر وبيغن والسادات) في منتجع كامب ديفد ثلاثة عشر يوما، وشهدت مفاوضات شاقة، وكادت ان تؤدي للفشل. واخيرا يوم ١٩٧٨/٩/١٨ اعلن الرؤساء الثلاثة اتفاقهم على اتفاقيتين، سميت الاولى "إطار عمل للسلام في الشرق الاوسط"، واما الثانية فكانت "إطار عمل للسلام بين مصر واسرائيل". وقد وقّع الوثيقتين كل من السادات وبيغن كطرفين، وكارتر كشاهد.

وكانت الاولى تعني دول الطوق عموما والشعب الفلسطيني بشكل خاص، اذ تنصّ على انه "ينبغي ان تشترك مصر واسرائيل، والاردن، وممثلو الفلسطينيين في المفاوضات الخاصة بحل المشكلة الفلسطينية بكل جوانبها.

وكانت هذه الاتفاقية تكاد تتطابق مع مشروع بيغن الذي كان قد طرحه في مؤتمر حزب الليكود الثاني عشر عام ١٩٧٥ .

وفيما يخص الضفة الغربية وغزة هنالك ثلاث مراحل:

في المرحلة الاولى تتفق مصر والاردن واسرائيل على كيفية نقل سلمي ومنظم للسلطة في مناطق الضفة الغربية وغزة، مع أخذ الاهتمامات الامنية لكل الاطراف بعين الاعتبار، وبذلك تكون هناك ترتيبات انتقالية لفترة لا تتجاوز خمس سنوات. ولتتوفر ظروف مناسبة لحكم ذاتي كامل ستنسحب الحكومة الاسرائيلية العسكرية وادارتها المدنية من الضفة الغربية وغزة فورا بعد أن ينتخب سكانهما سلطة الحكم الذاتي التي ستحل مكان السلطة الاسرائيلية. ولكن، كما يجب تأمين الاعتبار اللازم للحكم الذاتي، يجب تأمين الاعتبار للأمن الضروري لكل أطراف النزاع.

وفي المرحلة الثانية تتفق اسرائيل مع مصر والاردن، اللذين قد يضم وفداهما ممثلي الضفة الغربية وغزة وفلسطينيين آخرين، على وسائل ممارسة سلطة الحكم الذاتي المنتخبة في الضفة الغربية وغزة لصلاحياتها. وسيتم الاتفاق بين الوفود الثلاثة على ترتيبات الامن الداخلي والخارجي والنظام العام. حيث سيتم تشكيل قوة شرطة محلية قوية من أهل الضفة والقطاع، وتضم ايضا مواطنين اردنيين من أصل فلسطيني، وستكون قوة الشرطة على اتصال وتنسيق مع الضباط الاسرائيليين والأردنيين والمصريين. كما ستشترك دوريات اسرائيلية -اردنية مشتركة لضمان امن الحدود مع الاردن.

وفي موضوع العودة تُشكل لجنة من الاطراف الاربعة للاتفاق على تنظيم عودة الذين تركوا البلاد بعد حرب ١٩٦٧، بشكل يحفظ النظام ولا يثير الاضطراب. وتدرس هذه اللجنة اوضاع اللاجئين، ولها ان تتخذ الاجراءات العادلة والدائمة لحل مشكلتهم وانصافهم.

ومع انجاز ذلك يجب ان يكتمل التطبيع بين جميع الاطراف، وانهاء كل حالات التوتر والمقاطعة باشكالها المختلفة، وكذلك التحريض التربوي والادبي والفني.

اما الفترة الثالثة، الفترة الانتقالية (ذات السنوات الخمس)، فستجري فيها المفاوضات بين الاطراف الاربعة : اسرائيل، والاردن، ومصر، وممثلي الضفة وغزة، وذلك لتحديد الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة، وعلاقتهما مع جيرانهما. كما سيشترك الوفد الاردني وممثلو الفلسطينيين في التفاوض مع اسرائيل حول اتفاقية سلام جديدة بين الاردن واسرائيل. ومن حيث المبدأ سيلتزم اي اتفاق بقرار مجلس الامن ٢٤٢، وبالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومطالبه العادلة، وبالأمن الدائم لاسرائيل.

ويمكن ملاحظة ان مشروع كامب ديفد هذا لا يختلف كثيرا عن اتفاق اوسلو باستثناء غياب القيادة الفلسطينية البديلة لمنظمة التحرير الفلسطينية التي كانت اسرائيل تخطط لانشائها (٩).

اي ان الجديد في "اتفاق اوسلو" ليس الاعتراف بالشعب الفلسطيني، بل الجديد هو الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا لهذا الشعب.

٢- مشروع بريجنيف:

بعد نحو اسبوعين من جلاء منظمة التحرير عن لبنان، واعلان الرئيس الامريكي ريغان لمشروعه، وبعد نحو اسبوع من مؤتمر القمة الثاني عشر، أي في يوم ١٩٨٢/٩/١٥ ألقى رئيس مجلس السوفييت الأعلى ليونيد بريجنيف خطابا بيّن فيه أن الاتحاد السوفييتي يرى أن السلام الراسخ العادل الشامل في الشرق الاوسط، يقوم على مبادئ تنسجم مع القواعد العامة للقانون الدولي، وقرارات الشرعية

الدولية (وخاصة الجمعية العمومية ومجلس الامن)، وهذه المبادئ هي:

أ- تطبيقا لمبدا عدم جواز الاستيلاء على اراضي الآخرين عن طريق العدوان، يجب أن تُعاد الى العرب جميع الاراضي التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧. كما يجب ان تُعلن الحدود بين اسرائيل وجيرانها العرب ثابتة وغير قابلة للتغيير.

ب- وجوب تأمين الحق الثابت للشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره، وإقامة دولته المستقلة في الاراضي الفلسطينية (الضفة الغربية وقطاع وغزة) التي سيتم تحريرها من الاحتلال الاسرائيلي. كما يجب تمكين اللاجئين الفلسطينيين من العودة الى ديارهم، او الحصول على تعويض مناسب لممتلكاتهم المتروكة، وفقا لقرارات الامم المتحدة.

ج- إعادة الجزء الشرقي من القدس الى العرب (وهو الجزء الذي احتلته اسرائيل في حزيران ١٩٦٧)، والذي ينبغي ان يصبح يتجزءا لا يتجزأ من الدولة الفلسطينية. كما يجب ان تؤمّن حرية ممارسة الشعائر الدينية للاديان الثلاثة في القدس.

د- وجوب تأمين حق جميع دول المنطقة بالوجود والتطور السلميين الآمنين، وذلك بشرط مراعاة مبدأ التعامل بالمثل، لانه لا يمكن ضمان أمن البعض بانتهاك أمن الآخرين.

هـ - وجوب انهاء حالة الحرب، واحلال السلام بين الدول العربية واسرائيل. وهذا يعني ان على جميع الاطراف، ومنها الدولة الفلسطينية واسرائيل ان تلتزم بالاحترام المتبادل لسيادة واستقلال ووحدة اراضي بعضها بعضا. كما تلتزم بحل النزاعات الناشئة بينها بوسائل سلمية، وعن طريق المفاوضات.

و- وجوب إعداد وإقرار ضمانات دولية للتسوية. ويمكن ان يقوم بمهمة الضامنين الاعضاء الدائمون في مجلس الامن او المجلس كله.

ز- وهذه التسوية الشاملة والعادلة والثابتة، لايمكن إعدادها وتحقيقها الا بواسطة الجهود الجماعية، وبمشاركة جميع الاطراف ذات الشأن، ومنها بالطبع منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني.

رحبت بعض الحكومات العربية، ومنظمة التحرير الفلسطينية بالمشروع، واشارت الى ما في المشروع من مبادئ ايجابية، وكذلك فعلت اجهزة الإعلام العربية، وخاصة اليسارية منها.

اما اسرائيل، فقد رفضته، وأفاضت اجهزتها الاعلامية بنقد المشروع، وإدانة اهدافه ونوايا اصحابه (١٠).

٣- مشروع ريجان:

والسفن مازالت في عرض البحر مُجلية منظمة التحرير وقواتها عن بيروت، القى الرئيس الامريكي ريغان يوم ١٩٨٢/٩/١ خطابا في الاذاعة والتلفزيون، معلنا بفخر النجاح التام لعملية "سلامة الجليل"، لانها، وبرغم ما فيها من مآس، مهدت الطريق لاحلال السلام في الشرق الاوسط. فلم يكن هدفها القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية، ولكن إضعافها الى المستوى الذي لا تعود تشكل قوّة للحرب بل أداة للسلام، واثبات ان الجيش الاسرائيلي لايقهر، ولكنه ايضا لا يستطيع فرض السلام على العرب. فجوهر عملية السلام هو " التوفيق بين المطالب الأمنية المشروعة لاسرائيل والحقوق المشروعة للفلسطينيين".

ورسم ريغان إطارا عاما، وخطوات لعملية السلام في الشرق الاوسط. وكان الاطار كما يلي:

١- السلام والعدل لا يمكن تحقيقهما الا عن طريق المفاوضات المباشرة بين الاطراف المعنية.

٢- اسرائيل واقع شرعي داخل المجتمع الدولي، وعلى العرب تقبل هذه الحقيقة.

٣- لاسرائيل الحق في الوجود، وراء حدود آمنة ويمكن الدفاع عنها.

٤- الأمن الذي تتطلع اليه اسرائيل يتحقق من خلال سلام حقيقي.

٥- التطلعات السياسية للشعب الفلسطيني مرتبطة بحق اسرائيل بمستقبل آمن.

٦- لا عودة الى حدود حزيران (١٩٦٧/٦/٤)، حيث عرض اسرائيل في بعض النقاط لا يتعدى عشرة اميال (تقطعها الاسلحة المتوسطة).

٧- النزاع العربي الاسرائيلي لا يُحل الا بمفاوضات على اساس مبادلة السلام بالأرض.

انطلاقا مما تقدم، واستنادا عليه، يقترح الرئيس ريغن الخطوات التالية:

أ- إقامة حكم ذاتي كامل للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة. ويستمر هذا الحكم خمس سنوات، تبدأ بعد انتخابات حرة لاختيار سلطة فلسطينية للحكم الذاتي، تهدف الى اثبات ان مثل هذا الحكم لن يشكل تهديدا لامن اسرائيل.

ب- وتعميرا للثقة بالطرف الاسرائيلي، يتم تجميد المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال تلك الفترة.

ت- بعد الفترة الانتقالية سيلاحظ ان السلام غير ممكن باقامة دولة مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، كما انه غير ممكن بضمهما لاسرائيل، او بسط سيطرتها عليهما، ولكن ضمان السلام

هو حكم ذاتي فلسطيني مرتبط بالاردن.

ث- عندما يجري التفاوض بين الاردن واسرائيل بشأن مسألة الحدود، فإن حجم الاراضي التي يمكن ان يُطلب من اسرائيل التخلي عنها، سيتأثر، الى حد كبير، بما يتحقق من سلام حقيقي وتطبيع للعلاقات، وبالترتيبات الأمنية المعروضة في المقابل.

ج- تبقى مدينة القدس موحدة، الا ان وضعها النهائي يجب ان يتقرر بالتفاوض في ضوء الانجازات العملية في عملية السلام.

ح- في مراحل التفاوض، سوف تعارض امريكا اي اقتراح من اي طرف اذا كان يمكن ان يهدد امن اسرائيل.

لم تُعلق الدول العربية على المشروع، وانتظرت مؤتمر القمة الثاني عشر (١٩٨٢/٩/٩) لتكون قراراته الرد الجماعي غير المباشر على المشروع. اما اسرائيل فقد رفضته مباشرة(١١).

الحقبة الرابعة من حرب الخليج الثانية الى الآن (١٩٩١-٢٠١٣)

تمتاز هذه الحقبة باحداث مصيرية منها ماهو ايجابي كاندلاع الانتفاضة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٨٧، واستثمار منظمة التحرير لهذه الانتفاضة لتكون متراسا لقرارات المجلس الوطني في ١٩٨٨/١١/١٥ التي تضمنت قبول قرارات مجلس الامن بما فيها ٢٤٢، والاعتراف باسرائيل على حدود ١٩٦٧، واعلان الاستقلال الفلسطيني في الاراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، وما لحقها من اعلان رئيس اللجنة التنفيذية عن إدانته للارهاب بالصيغة التي ارادتها امريكا مما وفر امكانية للحوار الامريكي مع منظمة التحرير الفلسطينية. أما الأحداث المصيرية السلبية فكان أهمها دخول صدام حسين للكويت، واحتساب دول الخليج أن منظمة التحرير الفللسطينية مع العراق وسياسته في الخليج، ولذلك شكل عام ١٩٩١ قمة مأزق منظمة التحرير الفلسطينية حيث جفّت (تقريبا) منابع دخلها، كما ظهرت بعض البوادر السلبية في مسيرة الانتفاضة، فكان من الطبيعي ان تقبل منظمة التحرير التفاوض مع اسرائيل بوفد من ضمن الوفد الاردني في مؤتمر مدريد، ليتحول هذا الوفد الى وفد مستقل، ومن تحته تجري مياه المفاوضات المباشرة بين منظمة التحرير ووفد اسرائيلي في اوسلو (عاصمة النرويج) وليجري التوقيع على اتفاقية اوسلو في حديقة البيت الابيض ويجري تبادل الرسائل بين رئيس وزراء اسرائيل (اسحق رابين) ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية (ياسر عرفات) في ١٩٩٣/٩/١٣.

وفي العام التالي يقام الحكم الذاتي الديموقراطي في غزة واريحا اولا على امل ان تقام الدولة

الفلسطينية عام ١٩٩٩. ولكن، وبعد عشرين عاما مازالت الحال على حالها بل ازداد الامر سوءا بفيضان الاستيطان، ومطالبة الحكومة الاسرائيلية ان يعترف الفلسطينيون والعرب من بعدهم باسرائيل كدولة لليهود، بحيث يصبح كل يهود العالم مواطنين لهذه الدولة، بينما كل اسرائيلي وليس يهوديا (اي العرب) لا يعود مواطنا اسرائيليا بل مقيما (فقط) في اسرائيل، وتصبح مسألة عودة اللاجئين الفلسطينيين الى بيوتهم مسألة غير قابلة للبحث. وتتوجت هذه المأساة باعتراف المؤسسات الامريكية بذلك، كما تبنى الطرف الامريكي من رئيسه باراك اوباما الى وزير خاجيته جون كيري هذا الطرح، وحاولوا الضغط على الفلسطينيين والعرب لتمرير هذا الاعتراف، وبذلك يسعى الليكود الاسرائيلي، ومن وراءه المؤسسات الامريكية لتحويل القضية الفلسطينية من مشكلة تحتاج حلا الى إشكالية تحتاج إدارة.

ويتطرّف جون كيري اكثر من رئيسه فيقترح بقاء وحدات من الجيش الاسرائيلي في الغور الفلسطيني (كما اسلفنا في بداية الورقة).

الهوامش

١_ الموسوعة الفلسطينية- المجلد الأول ص ٣٧٩.

٢- منير الهور وطارق الموسى، "مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية، دار الجليل عمان،١٩٨٦ (ص ٥٠- ٥٥).

٣- المصدر نفسه (ص ٦٠- ٦٣)..

٤_ الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد ٤ (ص٥٤٨)

٥-منير الهور وطارق الموسى، مصدر سبق ذكره، (ص٦٣).

٦-الموسوعة الفلسطينية المجلد ٢، (ص١٨٤).

٧-جريدة القدس١٩٧١/٢/١١، نقلا عن"هاآرتس).

٨-موسوعة المصطلحات والمفاهيم الفلسطينية، تحرير د. محمد إشتيه، اصدارالمركز الفلسطيني للدراسات الاقليمية، رام الله ٢٠٠٨، (ص٥٥٢).

٩-عبد الفتاح القلقيلي، موسوعة اجيال الميسرة، موسوعة الكترونية تذاع على محطة اجيال الاذاعية يوميا.

١٠- المصدر السابق.

١١- المصدر نفسه.

© من أرشيف رواق مركز المعمار الشعبي

أوراق عربية

مصر بعد الثلاثين من يونيه وآفاق المستقبل

فريدة النقاش*

بتأييد المصريين للدستور الجديد، بنسبة تجاوزت التسعين في المئة، في الاستفتاء الذي جرى يومي ١٤ و١٥ يناير، تكون الخطوة المبدئية قد اكتملت نحو إنجاز خريطة المستقبل التي توافقت عليها القوى الوطنية والديموقراطية في الثالث من يوليو عام ٢٠١٣ في مصر بعد عزل الرئيس" محمد مرسي " إثر مظاهرات عمت البلاد من أقصاها إلى أدناها، تطالب بعزله في الثلاثين من يونيه، وهو اليوم المتمم لعام كامل من حكم جماعة الإخوان، وحلفائهم وضمت هذه المظاهرات التي رُفعت، شعار يسقط يسقط حكم المرشد، مصر دولة مدنية مش ولاية إخوانية، ما بين ثلاثين وثلاثة وثلاثين مليونا من المصريين، بعد أن كانت حركة تمرد المكونة من شباب ناصريين، ويساريين، وليبراليين قد نجحت في جمع ٢٢ مليون توقيع، تطالب بإجراء انتخابات رئاسية مبكرة وهي التوقيعات والمطالب التي سخر منها الرئيس السابق " محمد مرسي " الذي لم يستمع لمخاطبات القوات المسلحة ودعوتها لإجراء مصالحة مع القوى السياسية والاجتماعية التي توحدت ضده، حتى بعد أن منحه القائد العام " عبد الفتاح السيسي " فرصة أسبوع للوصول إلى مصالحة وطنية شاملة.

كان السبب الرئيس الذي دعا كل من حركة تمرد والقوات المسلحة إلى المطالبة بإجراء مصالحة وطنية، وانتخابات رئاسية مبكرة، هو وصول نظام الحكم إلى مأزق شامل، وكانت هناك أزمة

* كاتبة وناقدة فلسطينية

مع الأحزاب السياسية الديموقراطية، وحتى مع بعض أطراف التحالف اليميني الديني الحاكم، وكانت هناك أزمة مع القضاء، إذ قام أنصار الرئيس بمحاصرة المحكمة الدستورية العليا ومنع قضاتها من الدخول، وقطع الطريق إليها، حتى يمنعوها من إصدار حكم قد يحل مجلس الشورى الذي إحال إليه رئيس الجمهورية سلطة التشريع دون أن تكون مثل هذه السلطة جزءاً من صلاحيات مجلس الشورى ولا من صلاحيات الرئيس نفسه.

وكان الرئيس السابق " محمد مرسي " قد قام بإصدار إعلان دستوري في ٢٢ نوفمبر ٢٠١٢، وهو الإعلان الذي وصل بالأزمة إلى ذروتها، ونص على جعل قرارات الرئيس نهائية غير قابلة للطعن، من أي جهة أخرى منذ تولي " محمد مرسي " لمنصب رئيس الجمهورية حتى إنتخاب مجلس شعب جديد، وإقالة النائب العام المستشار " عبد المجيد محمود " وتعيين نائب عام جديد إختاره رئيس الجمهورية هو المستشار " طلعت إبراهيم "، ومنح كل من مجلس الشورى الذي انتخبه ما يقل عن ٧٪ من القوة الناخبة المصرية ومنح الجمعية التأسيسية لصياغة الدستور حصانة ضد الحل، ومد عمل الجمعية التأسيسية لكتابة الدستور لفترة من ٤ إلى ٦ أشهر، وإعادة محاكمة المتهمين في القضايا المتعلقة بقتل وإصابة وإرهاب المتظاهرين، وكان هذا الإعلان الذي نصب " مرسي " ديكتاتورا بطريقة لم يسبق لها مثيل في تاريخ مصر يريد بفقرة إعادة محاكمة قتلة المتظاهرين تملق الحركة العارمة المناهضة لحكمه.

ونشبت أزمة كبرى بين مؤسسة القضاء وحكم اليمين الديني قبل وبعد الإعلان الدستوري، قبل الإعلان الدستوري لأن المحكمة الدستورية العليا كانت قد أصدرت حكماً بحل مجلس الشعب لعدم دستورية قانون الانتخابات، وكان تحالف الإخوان مع قوى اليمين الديني الأخرى يحظى بالأكثرية فيه وبعد الإعلان الدستوري لأن الرئيس قام متجاوزاً صلاحياته بعزل النائب العام غير القابل للعزل وتعيين نائب عام جديد وصفته القوى الوطنية بأنه نائب عام ملّاكي، وأصبحت النيابة العامة خلال الشهور التي تولاها فيها المستشار " طلعت إبراهيم " أداة طيعة في أيدي الرئاسة ومكتب الإرشاد وخاض القضاة المصريون صراعاً مجيداً ضد العدوان على استقلال القضاء، وكان الحكم قد أعد خطة مخيفة لعزل ثلاثة آلاف وخمسمئة قاض من مناصبهم، وإحالتهم إلى التقاعد واستبدالهم بمحامين من الإخوان المسلمين ليسيطروا تماماً على مؤسسة القضاء، ويستكملوا ما كانوا قد بدأوه من زرع أعضائهم ومناصريهم بكثافة في كل الأماكن

الحساسة في الدولة.

وفيما يتعلق بالقضاء، على نحو خاص، الذي استهدف الإخوان تقويضه ضمن مشروعهم لتقويض الدولة لإقامة الدولة الدينية أو دولة الخلافة كما سموها، كانوا قد بدأوا منذ سنوات طويلة في إنشاء قضاء عرفي، في القرى والمدن الفقيرة التي تواجدوا فيها بكثافة متجنبين التعامل مع القضاء، وكان هذا القضاء العرفي هو أخطر أشكال المؤسسات البديلة، لمؤسسات الدولة التي أنشأوها، ومن ضمنها شبكة المدارس والمستوصفات والمستشفيات وشركات الصرافة والنقل وغيرها، وكانوا قد استفادوا في كل ذلك من السياسات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التي أرتبطت بالمؤسسات المالية الدولية؛ صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية وهيئة المعونة الأمريكية، وهي السياسات القائمة على المنافسة الطليقة التي حملت عنوان التكيف الهيكلي والإنكماش الاقتصادي.

ويقول " جان زيجلر " الأمين العام السابق للحزب الاشتراكي السويسري إن تمجيد المنافسة من دون حدود بين الأفراد يعني أن قراصنة وول ستريت ومرتزقتهم في منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي يتعاملون باحتقار مع ألوف من سنوات الجهد الصبور لدفع عجلة الحضارة إلى الأمام.. ويضيف كل هذا يدل على أن عصر الغابة قد بدأ بالنسبة إلى بلاد الجنوب؛ حيث يعيش ٨١٪ من سكان الأرض البالغ عددهم ٦ر٢ مليار نسمة، ولكن أيضا بالنسبة لبلاد الشمال "

وكانت " مارجريت تاتشر " وهي تدشن سياسات الليبرالية الجديدة في مطلع ثمانينات القرن العشرين قد قالت :

" ليس هناك مجتمعات، هناك أفراد فقط ".

وأدت هذه السياسات الليبرالية الجديدة إلى التقليص المضطرد للانفاق الحكومي على الخدمات العامة بعد خصخصة القطاع العام، والاعتماد المتزايد على القطاع الخاص والالغاء التدريجي لكل الضوابط الحكومية باسم حرية السوق، وكان أن تزايد الفقر في مصر، وطبقا للبنك الدولي هناك ٤٠٪ من المصريين يعيشون تحت خط الفقر، كما تزايدت البطالة مع ما يصاحب كل هذا من انتشار اليأس والإحباط خاصة بين الشباب الذين يشكلون ٨٥٪ من العاطلين ٨٧٪ منهم من

النساء.

وكانت هذه بيئة ملائمة تماما لعمل اليمين الديني وما أسميه استثمارهم الكبير في الفقر فقد توسعوا في تقديم الخدمات للفقراء، وأقاموا شبكة واسعة من الخدمات في كل ميادين الحياة حتى قال بعض الاقتصاديين إن اقتصادهم أقوى من اقتصاد الدولة، كما أنهم استثمروا اليأس والإحباط لبث الوعود بالجنة في الآخرة، وتجنيد مئات الآلاف خاصة من النساء الفقيرات للتصويت لهم في الانتخابات، ودفع الناخبين للقسم على المصحف أنهم سوف يصوتون لهم.

وقصة حملتهم الدعائية للتصويت على التعديلات الدستورية في مارس ٢٠١١ بعد الموجه الأولى من الثورة بشهرين إبان تحالفهم مع المجلس العسكري الذي كان حاكماً للبلاد في ذلك الحين ما تزال تروى في الحياة السياسية دلالة على مخاطر إقحام الدين في السياسة في ذلك الحين إذ تركزت الدعاية على أن من يصوت بنعم سوف يدخل الجنة، ومن يصوت بلا سوف يدخل النار، كما نجحوا في وضع علامة خضراء لنعم وعلامة سوداء للا.

أخونة الدولة

ابتكرت القوى السياسية بذكاء مصطلح أخونة الدولة بدلا من أسلمتها لأن الأسلمة تعبير مراوغ يخدم اليمين الديني الذي يصور نفسه باعتباره المسلم الوحيد، فغالبية المصريين مسلمون ومعظمهم متدينون تديناً سمحاً مفتوحاً واسعاً، ولم يعرف المصريون أشكال التعصب والتطرف الديني وارتباط ذلك كله بالابتزاز المسلح للمجتمع المصري إلا مع نشوء حركة الإخوان في بداية القرن العشرين ثم نشوء التوابع التي خرجت من معطفها مثل الجماعة الإسلامية، الجهاد، التكفير والهجرة، الناجون من النار، الشوقيون بدءً من سبعينات القرن العشرين مع الهجرة الكثيفة للمصريين إلى دول الخليج إثر فورة النفط في أعقاب حرب ١٩٧٣ ومع بداية سياسات الليبرالية الجديدة.

أعد الزميل مصطفى المرصفاوي في جريدة المصري اليوم في ٢٠١٣/١٢/٧ ملفاً عن أخونة الدولة في ٨ شهور من حكم مرسي، جاء فيه :

في ظهر الثامن والعشرين من حزيران/يونيو الماضي اجتمع الرئيس محمد مرسي مع الإعلاميين

والصحافيين خلال سلسلة اجتماعات عقدها بعد توليه الرئاسة، جلس أول رئيس مدني منتخب يرد على كل الأسئلة وتحدث بقوة وحسم : " البلاد ستحتفظ بطابعها الوطني دون أن تصطبغ بصبغة فصيل سياسي معين، (وأخونة) الدولة المصرية مستحيلة، ولا يستطيع فصيل واحد قيادتها بمفرده ".

على العكس تماماً تحدث وزير الإعلام صلاح عبد المقصود، القيادي بجماعة الإخوان المسلمين، ظهر ٢٠ كانون الثاني/ديسمبر الماضي بمجلس الشورى بناء على دعوة رئيس لجنة الثقافة والإعلام، نافياً أخونة الدولة " والله لو عندي إخوان لفضلتهم وأدتهم أولوية في التعيين لأني عندي حكم قضائي بيقول إن الإخوان المسلمين هم أقدر الناس في الوظائف العامة وربنا بيقول إن خير من أستأجرت القوى الأمين... أنا لو عندي إخوان في ماسبيرو لأدتهم الأولوية في التعيين للكفاءة ولكن للأسف ماعنديش ".

حوالي ٨ شهور فقط مرت على وصول رجل الجماعة إلى سدة الحكم عين خلالها بالأمر المباشر ٨ وزراء و٥ محافظين و٨ في مؤسسة الرئاسة، ولم يتوقف الأمر عند ذلك، لأن رجال جماعته نجحوا في اختراق مفاصل ٢٠ وزارة من خلال تعيين مستشارين للوزراء ومتحدثين إعلاميين ورؤساء للقطاعات، ومديرين لمكاتب الوزراء إضافة إلى تعيين ٥ نواب محافظين، ١٢ رئيس حي ومركز، و١٣ مستشارا للمحافظين، هكذا وعد الرئيس.. وهكذا نقض الرئيس وعده.

كما سجل الزميل " المرصفاوي " أن الجماعة نشرت كوادرها في المناصب التنفيذية في المحافظات المختلفة، وفوضت كوادرها ممن تولوا مناصب نائب المحافظ بالإدارة الفعلية لشؤون المحافظات التي عينوا فيها بقرارات صادرة عن الرئاسة مباشرة، وعين محافظ كفر الشيخ عشرة مستشارين له من أعضاء جماعة الإخوان بالإضافة إلى ستة نواب لرؤساء المدن الأكبر، واستحوذ الأخوان على المناصب التنفيذية في ١٩ محافظة أخرى من ٢٦ محافظة.

ولم تكن مشكلة المصريين مع ما أسموه بالأخونة هو الدفع بهذا العدد الهائل من الموظفين إخواناً وأنصاراً إلى الوزارات وصولا إلى ٤٥٣ ألف موظف لدى الدولة من العاملين المؤقتين من الأهل والعشيرة فمثل هذه الإجراءات قد يقوم بها أي حزب حاكم وإن ليس بهذه الفجاجة والسرعة وإنما تعلقت الأسباب الحقيقية بأن الدفع بهؤلاء الموظفين جاء في الغالب الأعم متجاوزاً بفجاجة للقوانين واللوائح والدرجات الوظيفية.

أما السبب الأهم فهو إنعدام الكفاءة التام لأن الإختيار كان يتم لأهل الثقة وليس لأهل الخبرة.

يقول د. سمير عبد الوهاب أستاذ الإدارة العامة بجامعة القاهرة " جماعة الإخوان المسلمين تستغل فرصة وجودها في الحكم لتنفيذ سيناريو التمكين من خلال السيطرة على الوظائف التنفيذية والإدارية في المحافظات لضمان الاستمرار لسنوات طويلة في الحكم، ولا توجد لديهم رؤية محددة لتحسين الأوضاع في محافظاتهم ومواجهة مشاكلها.

وفي المنيا قال أحد المرشحين السابقين للبرلمان " منذ توليهم لم نر أي إنجاز على الأرض، حتى أن المحافظ الجديد في بداية توليه عقد عدة لقاءات مع شباب الثورة في المحافظة، وكان يقوم بجولات كثيرة، ولكن هذه اللقاءات توقفت واقتصرت لقاءاته على أعضاء جماعة الأخوان فقط، ووجد أطباء بلا حقوق أن وجود جماعة الإخوان في الوزارة، وزارة الصحة، أضر بها وقال أحد المرشحين لمنصب نقيب المهندسين، " إن الجماعة دفعت بمستشارين ينتمون إليها بهدف تقييد عمل الوزارات من خلال آراء وتعليمات مكتب الإرشاد، وقال خبير مصرفي إنه لا يرى في آداء أعضاء حزب الحرية والعدالة المنتمين للمجموعة الاقتصادية في الوزارة أي دلائل على سياسة واضحة المعالم.

وباختصار أثبت الإخوان فشلا ذريعا في إدارة الدولة المصرية ليس في السياسة الداخلية فحسب وإنما أيضا في السياسة الخارجية، وكان تعامل الرئاسة فاضحاً مع ملف سد النهضة الأثيوبية الذي يهدد حصة مصر من مياه النيل وكانت ممارسات الرئيس المعزول وجماعته وأنصاره في المجالين مثيرة للسخرية، لا لأنهم إخوان وإنما أساساً لأنهم عديمو الكفاءة لا يعرفون شيئاً عن الوطن فهم لا يعترفون به، أما معرفتهم بالدين ففضلا عن أنها محدودة بحدود المصادر الفقيرة والمحافظة التي يستمدون منها هذه المعرفة فإنهم لا يعترفون بأصحاب الديانات الأخرى ولا حتى بإسلام من يختلفون معهم من المسلمين.

وكان طبيعياً أن تنعكس قلة الكفاءة وفقر الخبرة كما عكسه مشروع الأخونة على الأوضاع الاقتصادية في البلاد التي تراجعت بعد ثورة ٢٥ يناير بسبب اضطراب الأمن أولاً ثم أضافت ممارسات الإخوان وعجزهم عناصر جديدة لتدهور الوضع الاقتصادي في البلاد، وسوف أسوق رقماً واحداً سجله الاقتصاديون وهو حجم الدين الخارجي للبلاد التي تسلمها " مرسي " وكان الدين يصل إلى ٣٤ مليار دولار، وحين غادر " مرسي " كان هذا الدين قد وصل إلى ٤٥ مليار

دولار إذ اقترضت حكومة الإخوان ١٢ر٥ مليار دولار في سنة واحدة من حكمها، بينما ارتفعت فاتورة الفساد.

وعلى المستوى الاجتماعي تراجع مستوى المعيشة وزادت البطالة وإنفجرت مجدداً وتماماً كما كان الحال عليه قبل ثورة ٢٥ يناير الاحتجاجات الفئوية والاجتماعية المختلفة، وحدثت الصدامات بين قوات الأمن والجماهير التي تزايدت حشودها الاحتجاجية على امتداد الوطن وصولا إلى الثلاثين من حزيران /يونيو.

وبينما ينشط إيديولوجيو الجماعة في دعوة النساء إلى الخروج من العمل للاهتمام بأسرهن وتربية الأطفال باعتبار أن البيت هو مكانهن الرئيسي قالت دراسة عن مكاسب الاقتصاد من المساواة بين الجنسين إن رفع نسبة مشاركة الإناث في القوى العاملة إلى مستويات مشاركة الذكور حسب كل بلد من شأنها أن ترفع إجمالي الناتج المحلي في مصر بنسبة ٣٤٪ وفي الإمارات العربية المتحدة بنسبة ١٢٪.

هذا وجرى إغلاق مئات المصانع في القطاعين الخاص والعام دون أي تصور حكومي لإعادة تشغيلها وهو وضع مستمر حتى بعد إزاحة حكم اليمين الديني.

الثورة الديموقراطية والثورة الاجتماعية

سارت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، وموجتاها التاليتان على طريق الثورة الوطنية الديموقراطية الطويل مع سمات اجتماعية عميقة ودفعت الموجتان التاليتان في ٣٠ يونيه ٢٠١٣ و٢٦ يوليو ٢٠١٣، والتاريخ الأخير لا يذكره كثيرون رغم أهميته هو التاريخ الذي طلب فيه القائد العام ووزير الدفاع ونائب رئيس الوزراء الفريق أول عبد الفتاح السيسي من المصريين أن يفوضوه لتصفية الإرهاب، فخرج إلى شوارع مصر ما يزيد على أربعين مليون مواطن يحملون شعارا واحداً " فوضناك ".

وكانت عمليات قتل الجنود المصريين في سيناء ومازالت تتم يومياً، وكانت قوى اليمين الديني قد نظمت اعتصامين مسلحين في ميدان نهضة مصر أمام جامعة القاهرة، وميدان رابعة العدوية بالقرب من جامعة الأزهر، وكانت الشرطة المصرية تعرف جيداً أن الاعتصامين مسلحان ولدى بدء المواجهة في رابعة يوم ١٤ أغسطس سقط ثلاثة وأربعون من رجال الأمن قتلى، وفي سيناء

كانت منظمتا حماس والقاعدة قد أنشأتا ركائز مهمة مستثمرتين حكم الإخوان المسلمين في مصر لإقامة ما أسموه بالإمارة الإسلامية هناك، ومما زاد الطين بلة كما يقولون قيام الرئيس المعزول " محمد مرسي " أثناء حكمه بالإفراج عن عدد كبير من المسجونين والمحكوم عليهم في قضايا إرهاب واغتيالات من أعضاء الجماعات الإسلامية وذلك دون التشاور مع الأمن، وذهب هؤلاء إلى سيناء وإنفتحت أمامهم سبل التواصل مع القاعدة، وتعيد الحكومة الانتقالية في مصر الآن النظر في هذه القرارات بالإفراج خاصة بعد أن ضبطت الشرطة بعض هؤلاء المفرج عنهم يحاربون ضد الجيش في سيناء.

وانشغلت السلطة الجديدة التي ساندتها الأحزاب والقوى الشعبية، وكانت دلالة تلك المساندة أن توقفت كل المطالبات الفئوية لبضعة شهور ـ إنشغلت هذه السلطة بإنجاز أهداف ثورتي ٢٥ كانون الثاني/ يناير و٣٠ حزيران/ يونيه، فمنذ إنهاء الاحتلال الإسرائيلي لسيناء ـ بثمن سياسي باهظ عام ١٩٨٢ ـ لم تواجه مصر عدواناً خارجياً إلا في مرحلة حكم اليمين الديني الذي لا يرى في مصر وطنا بل مقراً لأنها ستكون مجرد ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية وعاصمتها القدس الشريف وليس القاهرة.

وتولى التنظيم الدولي للإخوان توجيه عمل الأعضاء والأنصار في مصر بالريموت كونترول، وبإغداق الأموال. هذا التنظيم الذي قال عنه المتحدث السابق باسم الجماعة " د. كمال الهلباوي " أن كل مخابرات العالم ممثلة فيه وتسهم في تمويله.

وهناك قول شهير للمرشد العام السابق لجماعة الإخوان المسلمين " محمد مهدي عاكف " حين رد على الزميل الصحافي " سعيد شعيب " قائلا إنه يقبل بمنتهى الرضا أن يحكم مصر ماليزي أو أندونيسي مادام مسلماً وطظ في مصر ، وهو قول لا ينساه المصريون أبداً لأنه سخر من اعتزازهم الوطني بمصريتهم واختزل الهوية في الدين وحده، والدين الإسلامي على نحو خاص وطبقاً لرؤيتهم هم له

كما أن التنظيم الدولي وفر لهم شبكة دعاية عالمية واسعة حتى أن مؤسسات إعلام كبيرة في العالم مازالت تصف ما حدث في ٣٠ يونيو من هذا العام بالإنقلاب العسكري، فالإدارة الأمريكية لن تغفر لمصر إطاحتها بحكم الإخوان، وعلى حد تعبير الزميل " عماد الدين حسين " رئيس تحرير جريدة الشروق ناسباً إلى مصدر حكومي مهم " أن دوائر صنع القرار الغربية لن تترك

مصر الجديدة في حالها، وستجعلها تدفع ثمناً فادحاً جراء تحديها للإدارة الأمريكية والحملات الغربية لن تتوقف ضد مصر، لأن الغرب لا يغفر أبداً لمن يتجرأ عليه ".

ويتطلع المصريون الآن لإنهاء المرحلة الإنتقالية التي من المفترض أن ينجزوا فيها المرحلة الأولى من الثورة الوطنية الديموقراطية ذات الطابع الاجتماعي بإقامة مؤسسات الدولة، وتحريرها من العبث الإخواني، ولكن سياسات الحكومة الانتقالية لم تبين أي توجه نحو إعادة النظر في السياسات الرديئة التي أنتجها " مبارك " ومن بعده " مرسي " بكل فسادها وإنحيازها الاجتماعي ضد الفقراء والطبقة الوسطى، وتبديدها أموال وموارد مصر لدعم الرأسمالية الأجنبية والمحلية الكبيرة والأثرياء وإعادة إنتاج السياسات القديمة تفتح الباب لمرحلة جديدة من الثورة سوف يكون عنوانها إجتماعياً في الأساس، ويبقى مثل هذا الخيار هو الأفق المفتوح في الغالب الأعم إذ تبدو هذه المرحلة الجديدة من الثورة حتمية وعاجلة إلا إذا نجحت القوى الوطنية الديموقراطية يسارية وقومية في التأثير على الليبراليين الأقوياء وتغيير ولو بعض إنحيازاتهم الاجتماعية في الحصول على مقاعد في مجلس النواب القادم تمكنها من التأثير الفعلي في وضع السياسات الاقتصادية والاجتماعية، وإعادة توزيع الثروة في البلاد، والخروج من أسر الاعتماد على المساعدات الخارجية بالاعتماد على الذات والسيطرة على العجز الداخلي والعجز الخارجي، والاعتماد على الذات هنا ليس مجرد آلية اقتصادية تدعم استقلال الإرادة الوطنية ولكنه أيضا آلية سياسية لمواجهة الثمن السياسي للمساعدات الذي يطلبه مانحو هذه المساعدات كما سبق أن فعل الأمريكيون فهناك مخاوف في الأوساط السياسية الآن من أن تستثمر المملكة العربية السعودية الأموال التي دفعتها لمصر لكي تدفع إلى المقدمة بحزب النور السلفي الذي طالما دعمته لكي يحصل على الأغلبية البرلمانية كبديل للإخوان لتدخل مصر سياسياً وثقافياً في صراع طويل ممتد حول الهوية والثقافة مجدداً وبأموال النفط مرة أخرى ليجري استنزاف جهد البلاد وطاقتها الخلاقة في معارك جانبية بعد أن أزاحت ثورة ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٣٠ حزيران/ يونيه ٢٦ تموز/يوليو الغطاء الطائفي عن الصراع الطبقي.

ويتناقض هذا الوضع المحتمل تناقضاً كبيراً مع الطابع الثقافي للثورة وعنوانه الشباب الذي إستطاع أن يلتف حول القيود التي فرضها نظام " مبارك " على الحريات العامة بالتوجه إلى وسائل الاتصال الحديثة والتعامل معها بمهارة ملفتة في الحشد والتعبئة وترويج شعارات

وأهداف الثورة حتى أن حكومة مبارك قامت في الثامن والعشرين من يناير عام ٢٠١١ بوقف خدمة الإنترنت والرسائل القصيرة والتليفون المحمول في كل الشبكات.

إن كل ثورة تلغي المجتمع القديم، وبهذا المعنى فهي ثورة اجتماعية، وكل ثورة تلغى السلطة القديمة ولذلك فهي ثورة سياسية وكل ثورة تحدث تغييراً عميقاً في ذهنية الطبقات الشعبية والجمهور العريض لذلك فهي ثورة ثقافية.. والثورة الثقافية ليست نتاجاً فحسب للثورتين الاجتماعية والسياسية ولكنها أيضا إحدى أدوات إنجازهما وهو ما تجلى في ثورة ٢٥ يناير/كانون الثاني، ٣٠ حزيران/يونيه و٢٦ تموز/يوليو.

لن تكون مصر بعد الثورة كما كانت أبداً. هكذا يقول لك كل من يحدثك عن الثورة.. والكل يحدث الكل عن الثورة دون أن تغيب عن الأذهان حقيقة أن ما حدث، رغم عظمته هو تبدل للسلطة داخل الطبقة المهيمنة نفسها حتى الآن. ولم يجر بعد أسقاط الطبقة الرأسمالية وبعض مؤسساتها الكبرى التي من صلبها وبها تمارس هذه الطبقة الرأسمالية سلطتها.

وإدراكاً لهذه الحقيقة الواضحة كالشمس أعلن الثوار أنهم سيواصلون مظاهراتهم التي أسقطت الرؤساء إلى أن تسقط المؤسسات التي بناها نظامهم ونخرها الفساد، وهو إدراك يعي حقيقة أن الثورة هي سيرورة سياسية واجتماعية وثقافية طويلة المدى تضع البلاد على عتبة المرحلة الانتقالية الطويلة إلى الاشتراكية سلمياً في الغالب الأعم رغم وحشية المجرمين وسفالة الطفيليين الذين هاجموا المتظاهرين بهمجية بدائية تنم عن طبيعة الثقافة التي شكلت وجدانهم وأساسها النهب والسلب وغسل الأموال وتجارة المخدرات وقد استدعوا في هجومهم هذا كل تراث الفاشية والرجعية عبر العصور.

اندلعت ثورة ٢٥ يناير بعد أن تبين للطبقات الشعبية أنه قد تعذر تماماً الإطاحة بالطبقة السائدة وتغيير النظام الاقتصادي الاجتماعي والحقوقي السياسي بالسبل الأخرى، ومع ذلك فإن السبل الأخرى لم تكن عبثاً ولا طحناً في الهواء، بل إن أشكال المقاومة المتنوعة التي شهدتها البلاد على امتداد السنين من وقفات احتجاجية وإضرابات واعتصامات وإبداع أدبي وفني ونقدي يكشف عن تفسخ الواقع بطريقة وأشكال تنظيمية انفلتت من قبضة الدولة البوليسية الأمنية سواء في المسرح أو السينما أو الشعر والرواية، وقيم التضامن التي تخلقت عبر هذا المسار لتجعل الكادحين قادرين على مواجهة القمع والعنف بوحدتهم ورؤيتهم المستقلة للعالم.. وفي ظل هذا

الواقع بتناقضاته تشكل وعي الشباب.

وتعلم الشباب الذكي القلق من ثورة ثقافية أخرى تدور وقائعها بسرعة الضوء على الصعيد العالمي هي ثورة الاتصال وما خلفته من شبكات التواصل الاجتماعي التي أحسنوا استخدامها وطوعوها بمهارة لتكون أداة لعملهم المجيد.

ومن تناقضات هذه الثورة التي ستحملها معها في الأيام القادمة أن الخبرة والمهارات التي أكتسبها الشباب من تملكهم المهاري لوسائل الاتصال الحديثة تجد نفسها وجهاً لوجه وبعد أن تحولت الثقافة إلى سياسة من طراز رفيع أمام هوة عميقة لأن ثورتهم نشأت في مجتمع بلا قاعدة صناعية كبرى ومتينة.

إن ما جرى إنجازه حتى الآن لا يزال خطوة صغيرة على طريق التعويض ثقافياً عن تأخر البلاد الصناعي، وسوف تعطي الجماهير الأوسع ثقتها لهذه الثورة على طريق إنجاز مهمات ثلاث أولاها تطوير الصناعة وتصنيع الريف، وإعادة بناء الدولة، وإنشاء مؤسسات ديمقراطية حقيقية تتأسس على رؤية جديدة لعالم خال من الفساد والاستغلال ويقوم على المساواة الحقة سواء أمام القانون أو في الواقع أنها أيضا ثورة رمزية ناجحة على حد تعبير " بيير بورديو".

الجيش الوطني

لن يكون أي تحليل للأوضاع في مصر موضوعياً وصحيحاً دون أن نتوقف أمام الأدوار ـ ولا أقول الدور ـ فهي فعلا أدوار التي تلعبها القوات المسلحة في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية للبلاد.

فالقوات المسلحة المصرية كانت شريكة في حكم مصر بشكل مباشر وغير مباشر، منذ قام تنظيم الضباط الأحرار في ٢٣تموز/ يوليو ١٩٥٢ بإسقاط النظام القائم في البلاد وعزل الملك في ٢٦تموز/ يوليو، وإعلان الجمهورية في ١٨حزيران/ يونيه ١٩٥٣ ثم تولى مجلس قيادة الثورة حكم البلاد حتى صدور دستور ٢٣حزيران/ يونيه ١٩٥٦.

وتولى رئاسة الدولة عسكريون من " محمد نجيب " وجمال عبد الناصر " " لأنور السادات " و" حسني مبارك " وصولا للمشير " حسين طنطاوي " بعد ثورة ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١ وحتى دور الفريق أول " عبد الفتاح السيسي " في الانتصار لثورة ٣٠حزيران/ يونيه، ووضع خريطة

المستقبل، وهو ما تقبله المصريون برضى وحظي السيسي بعدها بشعبية كاسحة جعلت الشاعر " أحمد فؤاد نجم " قبل رحيله يقول للشباب، وهو يشير إلى السيسي " عبد الناصر أهه " ومما عزز هذه الشعبية موقف السيسي ضد النفوذ الأمريكي في البلاد وفي كل خطاباته يؤكد السيسي أن الجيش المصري يتكون من كل الفئات والطبقات، إنه يمثل مصر كلها.

ورغم هذه الأدوار جميعاً للقوات المسلحة فلم يتم النص في الدساتير المختلفة على دور للقوات المسلحة في حكم البلاد، وبقى النص الدائم: هو أن " القوات المسلحة ملك للشعب ومهمتها حماية سيادة البلاد وسلامة أراضيها وأمنها، والدولة هي وحدها التي تنشئ القوات المسلحة، ولا يجوز لأي هيئة أو جماعة إنشاء تشكيلات عسكرية أو شبه عسكرية ".

وكما نعرف فإن مثل هذا النص كان دائماً مصدر قلق لجماعة الإخوان المسلمين الذين أنشأوا التنظيمات العسكرية منذ بدء حياتهم السياسية، وكانت هذه التشكيلات موضوعاً دائماً للنزاع بينهم وبين سلطات الدولة.

ففي عام ١٩٤٨ حل " النقراشي " رئيس وزراء مصر حينذاك جماعة الإخوان واعتقل أعضاءها بعد أن ضبطت قوات الأمن سيارة لهم تحمل أسلحة ومتفجرات وحينها جرى إكتشاف التنظيم الخاص المسلح، وقاموا بعد ذلك بإطلاق النار على " النقراشي " وأردوه قتيلا، وتنكر القاتل في زي ضباط وهو ما يفعلونه الآن حيث يضبط الأمن بين الحين والآخر في حوزتهم ـ مع الأسلحة ـ أزياء ضباط جيش وشرطة برتب مختلفة.

وحكاياتهم حول تصفية من يخرج على الجماعة مشهورة منها إرسال صندوق ديناميت كهدية من حلاوة المولد " لسيد فايز " الذي خرج على الجماعة.

وقتلوا القاضي " الخازندار " الذي حقق مع أعضاء جماعتهم وأصدر ضدهم أحكاماً عام ١٩٨٤ وحين شنت إسرائيل هجومها على غزة عام ٢٠٠٨ صرح المرشد العام حينذاك " محمد مهدي عاكف " أن الجماعة على استعداد لإرسال عشرة آلاف مقاتل مدرب لمعاونة الفلسطينيين، وكانوا قد أجروا استعراضاً عسكرياً في جامعة الأزهر، اعتبرته القوى السياسية حينها رسالة تهديد، وفي كل المواجهات الأخيرة بينهم وبين الأمن ضبطت معهم أسلحة مختلفة وصولا إلى مدافع الجرينوف والمدافع الرشاشة.

وكان الرئيس المعزول " محمد مرسي " حريصا على أن يكون له دور وسلطة على القوات المسلحة أبعد من السلطة الشرفية فنص الدستور الإخواني السلفي عام ٢٠١٢ لأول مرة في الدساتير المصرية في المواد ١٩٤ و١٩٥ و١٩٧ و١٩٨ على أن يكون للقوات المسلحة مجلس أعلى على النحو الذي ينظمه القانون ووزير الدفاع هو القائد العام للقوات المسلحة ويعين من بين ضباطها ".

وأنشئ مجلس الدفاع الوطني ونص على أن يتولى رئيس الجمهورية رئاسته " وكان هذا هو الهدف الأصلي لإدراج النص في الدستور، وظل الرئيس السابق " محمد مرسي " يردد في كل خطاباته ولقاءاته خاصة حين كانت تتأزم الأمور " أنا القائد الأعلى للقوات المسلحة أنا رئيس مجلس الدفاع الوطني.

وتواصل جماعات مختلفة جمع التوقيعات لدفع الفريق السيسي لترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية تحت عنوان " كمل جميلك " وذلك استناداً إلى الشعبية الكاسحة التي يحظى بها بين المصريين من كل الطبقات باعتباره منقذا ومحرراً لمصر من أسر التبعية لأمريكا التي كانت تساند حكم الإخوان، بل وهناك شواهد أن الإدارة الأمريكية لعبت دوراً في إنجاح " محمد مرسي " على حساب المرشح المنافس الفريق " أحمد شفيق " ويحظى الجيش المصري بمكانة خاصة في تاريخ مصر منذ إبراهيم باشا وأحمد عرابي وجمال عبد الناصر

كتب المفكر الراحل " أنور عبد الملك " عن بعض هذه الحقائق الغائبة أي عن الدور الوطني التاريخي للجيش المصري، هو الذي كان قد أعد رسالته للدكتوراه في باريس قبل خمسين عاما بعنوان " مصر مجتمع يبنيه العسكريون "، ثم نشرها باللغة العربية بعد ذلك بعنوان " نهضة مصر "، واستخلص فيها أن مصر منذ " محمد علي " أي قبل قرنين من الزمان، قد إستمرت في الداخل وكذا في الخارج بواسطة الدولة، أي بواسطة الجهاز الإداري والبيروقراطية القائمة منذ آلاف السنين، وذلك من حيث التحليل المسطح للأمر ٠٠ وإنما مصر تستمر أيضا بواسطة جهاز الإجبار والعنف العقلاني المنهجي الذي تتكون منه النواة العميقة لكل دولة ممكنة، وهنا سوف يتجه التركيز إلى الجيش ".

ويقول " عبد الملك " أيضا إنه في دراسته الحالية عبر نهضة مصر الوطنية في القرن التاسع عشر، وبشكل أوضح في نظام الحكم السياسي النابع من إستيلاء " الضباط الأحرار " على السلطة في ٢٣تموز/ يوليو ١٩٥٢، نتبين أن الدولة هي الطبقة الحاكمة والمالكة في آن واحد، وليست جهاز

إدارة وتمثيل يمارس سلطات غير مباشرة بالتوكيل والإنتداب.

ثم يؤكد على أهمية توجه رآه أساسياً في التاريخ المصري الحديث " أن ندرك الالتقاء بين شعب المدن وشعب الريف خاصة مع الجيش المصري، وتأكيدا لذلك كتب الشاعر أحمد فؤاد نجم قصيدة بعد ملحمة انتصار ١٩٧٣ على إسرائيل قال فيها :

دولا مين ودولا مين

دولا عساكر مصريين

دولا ولاد الفلاحين

وتوجه آخر يؤكده الباحث هو " وحدة رجال الفكر والسلاح " منتقدا ما سماه بأساطير الفكر الليبرالي الذي وصفه بالتسيب حين ركز هذا الفكر على الانفصام بين رجال الفكر والسلاح، وهو الإنفصام الذي لعبت عليه بذكاء أجهزة الاستعمار والصهيونية لعزل قطاع هام من المثقفين المصريين والعرب في عصرنا عن العمل السياسي الوطني القومي ".

بل إن " أنور عبد الملك " يذهب إلى أبعد كثيراً من القرن التاسع عشر ليقول " إن مصر أم الدنيا تتمتع بعمق المجال التاريخي ولابد أن يكون قد أعطى لمكوناتها صيغاً من الخصوصية علينا أن نكتشفها، والصيغة الأولى هي صيغة العروة الوثقى، صيغة " الجبهة الوطنية المتحدة"، صيغة التلاحم بين رجال الفكر والسلاح.

وفي هذا السياق أهدى كتابه " نهضة مصر " إلى الشيخ " رفاعة رافع الطهطاوي "، رائد النهضة الفكرية والثقافية في عصر " محمد علي " والذي قال :

وليكن الوطن مكان سعادتنا أجمعين نبنيه بالحرية والفكر والمصنع، وإلى إبراهيم باشا ساري عسكر جيوش مصر الذي قال " إني أصبو إلى تحقيق هدفين ٠٠ أولاً صيانة شرف مصر الخالدة، ثم إعادة مجدها التليد إليها، علينا أن نسعى إلى الاستقلال بوصفه الطريقة الوحيدة لنجاتنا ".

وبرز هذا التوجه نحو ضرورة وحدة الفكر والسلاح في أعمال مناضلين ومفكرين من أجيال لاحقة كان على رأسهم " شهدي عطية الشافعي " الباحث والمناضل الشيوعي الذي جرى تعذيبه في سجون عبد الناصر حتى الموت، ولكنه تحت التعذيب هتف بحياة عبد الناصر وأعلن تأييده له.

كذلك توقف إثنان من أنبغ أبناء الجيل التالي لكل من أنور عبد الملك وشهدي عطية الشافعي رحلا بدورهما، أمام الدور المميز للجيش المصري. هما " د. احمد عبد الله " و " د. محمد السيد سعيد " وكانا من قادة الحركة الطلابية الذين أشعلوا الاحتجاجات بعد تراجيديا هزيمة الجيش المصري في عام ١٩٦٧. ومع ذلك وصلا إلى فكرة وحدة الفكر والسلاح التي أصلها " أنور عبد الملك " مركزاً على الدور المحوري للجيش في تطور البلاد.

ومن المؤكد أن الشباب الغاضبين الذين يهتفون بحرقة الآن يسقط يسقط حكم العسكر لا يعرفون شيئاً عن هذا التاريخ، وربما حجبت عنهم أوجاع المواجهات العابرة مع القوات المسلحة والممارسات الهمجية لبعض أفرادها، فضلا عن تكوينها الفكري كمؤسسة محافظة، أقول ربما حجبت هذه الممارسات حقيقة دور الجيش عبر التاريخ وهو الدور الذي عليهم أن يعرفوه جيداً حتى يتجنبوا الخطأ في التحليل..

* * *

وتسير الحكومة الانتقالية القائمة في مصر على الخطى القديمة ذاتها باستثناءات قليلة، وتتسع الفجوة يوماً بعد يوم بين أدائها وسياساتها من جهة وبين تطلعات شعب أنجز المراحل الثلاثة للثورة بأدائه العبقري النادر من جهة أخرى ووصفها محللون بالبطة العرجاء، وأخذت الاحتجاجات الفئوية تتوالي مجدداً التعبير عن عدم الثقة والضجر من البطء؛ إذ تواصل الحكومة السير على طريق السياسات القديمة بل وتعمقها فمن ضمن المشروعات التي طرحتها على المستثمرين الخليجين برز توجه حكومي لدخول رأس المال الخاص في مشروعات بنية أساسية استراتيجية، وفي الخدمات، والمرافق العامة في واحدة من أعمق وأكثر صور الخصخصة تأثيراً. وينتظر المصريون استكمال مراحل خريطة المستقبل ليكون لهم قول آخر وحكومة أخرى.

والشيء المؤكد هو أن هذا الشعب الذي تعذب طويلاً في ظل الديكتاتوريات المتوالية مدنية وعسكرية ودينية لن يقبل بعد اليوم أن يحكمه ديكتاتور آخر، وهي الحقيقة التي يدركها كل الساسة وكل الطامحين إلى حكم مصر، فإذا كانت الثورة بمراحلها الثلاثة لم تغير النظام بعد فإنها بالقطع قد غيرت الشعب بعمق تخطئه الرؤية السطحية للأمور، وهذا التغير هو العنصر الحاسم في صناعة مستقبل مصر الجديدة.

الثقة الاجتماعية والقانون

د. محمد عبد العزيز ربيع*

الثقة الاجتماعية مفهوم قديم جديد. مفهوم قديم بقدم الثقافة نفسها، لأن الثقة جزء أساسي من الثقافة السائدة في كل مجتمع، إذ تولد الثقة في حضن الثقافة، وتنمو في كنف المجتمع، تؤثر فيه وتتأثر به. ومفهوم جديد بسبب أهمية رأس المال الاجتماعي الذي ينبثق عن الثقة الاجتماعية، ودوره المحوري في العملية التنموية المجتمعية.

على الرغم من اهتمام العديد من العلماء بموضوع رأس المال الاجتماعي وعلاقته بالتنمية الاقتصادية، إلا أن المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما كان أكثرهم تركيزاً على أهمية رأس المال الاجتماعي في العملية التنموية وعلاقته بالثقة الاجتماعية. يقول فوكوياما إن رأس المال الاجتماعي هو أهم ضرورات التقدم والازدهار، وأنه لا يمكن لمجتمع أن ينتج رأس مال اجتماعي من دون أن يتمتع بثقة اجتماعية. ويضيف فوكوياما وغيره من مفكري الغرب القول بأن الثقة الاجتماعية هي نتاج ثقافي، وأن تباين الثقافات يجعل المجتمعات المختلفة تملك مستويات متباينة من الثقة الاجتماعية. مع أهمية هذه الأقوال، تشير دراساتنا وتأملاتنا في إشكالية التنمية إلى أن التنمية عملية مجتمعية تشمل كافة أوجه الحياة في المجتمع، تؤثر في جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والقانونية وتتأثر بها، ما يعني أن الثقافة لا تحمل وحدها وزر التخلف، ولا تستحق وحدها وسام التقدم.

* استاذ جامعي

ويمكن تعريف الثقة الاجتماعية بأنها حالة مجتمعية تتوفر فيها ومن خلالها الثقة بين مختلف الأفراد والمؤسسات في المجتمع، ما يعطي الفرد والمؤسسة والجماعة على السواء إحساساً بالاطمئنان تجاه الغير، وقناعة بأن بالإمكان التعامل معهم بارتياح ومن دون شكوك تعيق عمليتي التفاعل والتواصل البناء. وبكلمة أخرى، الثقة الاجتماعية هي حالة مجتمعية تقوم على احترام كل فرد في المجتمع لرأي غيره من المواطنين، والاعتراف بحق كل مواطن في السعي لتحقيق مصالحه الخاصة، شريطة الالتزام بعدم الاعتداء على حقوق غيره من الناس أو المجتمع. إذ من خلال هذا الاعتراف المتبادل بحقوق ومصالح متكافئة تسـود الثقة في المجتمع، ويطمئن الناس إلى بعضهم البعض دون حاجة لمعرفة شخصية، ودون احتكاك مباشر فيما بينهم. وهذه ثقة تؤسسها الفلسفة المجتمعية السائدة، ويوطدها القانون، وتصونها الدولة وتحميها. إنها ثقة غير مباشرة تتبلور من خلال القانون، وتُمارس من خلال احترام كل فرد للقانون، وتتجدد وتتجذر من خلال تطوير القوانين وشموليتها لكافة أوجه الحياة ونشاطاتها المتشعبة والمتطورة باستمرار.

إن النظرية التي تركز على أهمية الثقافة في العملية التنموية تقول بشكل أو بآخر أن هناك ثقافات تتميز بدرجة عالية من الثقة الاجتماعية، وأن هذه الثقافات قادرة على إنتاج قدر كبير من رأس المال الاجتماعي، ذلك العنصر الأساس في تحقيق التنمية والنمو. في المقابل، هناك ثقافات ليس لديها ما يكفي من الثقة الاجتماعية لإنتاج رأس مال اجتماعي بالقدر المطلوب لتنشيط العملية التنموية، ما يجعلها عاجزة بطبيعتها عن تحقيق التقدم والنمو. ويقول المتطرفون المنتمون لهذا التيار أن قابلية عامة الثقافات للتغير ضعيفة للغاية، ما يعني أن هناك مجتمعات تملك القدرة على التطور، وأخرى لا تملك تلك القدرة، وأنه ليس بالإمكان تغيير هذه الحقيقة، ما يستوجب القبول بها والتعامل مع ما يترتب عليها من نتائج وتبعات. لذلك أطلقت على فكر هؤلاء المفكرين اسم "الحتمية التاريخية".

تعرضت في كتابي الذي صدر بالانجليزية في أواخر عام ٢٠١٣ عن دار مكملان في نيويورك تحت عنوان "Global Economic and Cultural Transformation" لمقولات فوكوياما وهنتنجتون وغيرهم من مفكري الغرب المهتمين بالقضية الثقافية، وقمت بالرد على تلك المقولات في فصل عنوانه "Cultural Determinism"، أي "الحتمية الثقافية". ومن جملة ما احتوى عليه الكتاب تطوير نظرية جديدة في فهم التاريخ ومسيرة الحضارة الإنسانية عبر العصور. وتثبت تلك النظرية

التي أطلقت عليها اسم "قطار الزمن" (The Train of Time)، أن الثقافات نتاج حضاري يتطور ويتحول تبعاً لتطور نظم الإنتاج في المجتمع والانتقال من مرحلة حضارية لأخرى. لذلك حين انتقل المجتمع الأوروبي من عصر الزراعة إلى الصناعة شهدت الثقافة تحولاً كبيراً ونوعياً أفقدها الصلة بالثقافة التي كانت سائدة قبل بدء عملية التحول إلى العصر الجديد. في المقابل، تسبب عدم انتقال المجتمعات العربية إلى عصر الصناعة في بقاء الثقافة العربية تُراوح في مكانها، تتحول ببطء، ليس تحت تأثير نمط الإنتاج الصناعي، وإنما تحت تأثير نمط الاستهلاك والتوجهات المادية الغربية. لذلك نلاحظ أن الثقافة العربية تشوهت وفقدت سماتها الزراعية والقبلية القديمة، من دون أن تكتسب ثقافة الإنتاج الغربية أو الآسيوية. وهذا جعلها تفقد صلاحيتها للعصور القديمة والجديدة على السواء، وتصبح في أمس الحاجة لتحولات جذرية في المواقف والقيم والتقاليد والنظرة إلى العمل والوقت وغير ذلك.

لو عدنا إلى الوراء بضعة قرون وقمنا بإلقاء نظرة فاحصة على ثقافات ذلك العصر لوجدنا أن الثقافات التي توصف اليوم بغياب الثقة الاجتماعية والعجز عن إنتاج رأس مال اجتماعي كالثقافة العربية، كانت الأقدر على تحقيق التنمية والازدهار في العهود الغابرة. في المقابل، كانت الثقافات التي توصف اليوم بأنها تملك ثقة اجتماعية كبيرة وقدرة على إنتاج رأس مال اجتماعي هي الأكثر تخلفاً وعجزاً عن تحقيق التنمية والازدهار في الماضي. وهذا يعني أن الثقافة الصالحة لعصر معين، كالثقافة العربية والإيرانية والصينية التي سادت قبل قرون حين كانت الزراعة هي نمط الإنتاج الأهم، ليس في مقدورها ولا من طبيعتها أن تبقى صالحة على مدى الزمن، إذ لا بد وأن يتجاوزها الزمن حين تنتقل المجتمعات الإنسانية إلى عصر حضاري جديد ذا نمط إنتاجي مختلف. وحيث أننا نعيش اليوم في عصر الصناعة والمعرفة، فان الثقافة التي كانت تتمتع بقدرة كبيرة علي إنتاج رأس مال اجتماعي صالح لمجتمع زراعي تقليدي، أصبحت متخلفة عن الزمن الراهن، وبالتالي غير قادرة على إنتاج القدر المطلوب من رأس المال الاجتماعي لمجتمع صناعي ومعرفي سريع التطور، دائم التحول.

الثقة التقليدية والثقة الاجتماعية

تنقسم الثقة في المجتمع في رأينا إلى نوعين: ثقة تقليدية وثقة اجتماعية. وفيما تتمتع المجتمعات

الزراعية، أو بالأحرى المجتمعات التي تعيش في عصر ما قبل الصناعة بدرجة عالية من الثقة التقليدية، لا تملك إلا القليل من الثقة الاجتماعية. وفي المقابل، فيما تتمتع المجتمعات التي تعيش في عصر الصناعة وما بعد الصناعة بدرجة عالية من الثقة الاجتماعية، لا تملك إلا القليل من الثقة التقليدية. أما المجتمعات التي تمر في مرحلة انتقالية من عصر حضاري لآخر، كالمجتمعات العربية وغالبية مجتمعات آسيا وأمريكا اللاتينية، فتتصف بفقدان غالبية ما كان لديها من ثقة تقليدية، وعدم استحواذها على قدر معقول من الثقة الاجتماعية. وهذا يجعل تلك المجتمعات، خاصة المدن الكبيرة المكتظة بالمهاجرين من الأرياف والبوادي، تتصف بفقدان الثقة الاجتماعية والثقة التقليدية على السواء، ما يجعلها تعاني عجزاً في الثقة، أو ما أطلقت عليه بالإنجليزية (Trust Deficit). وهذا يقود في العادة إلى تدني الإنتاجية، وتدهور القيم، وسوء المواقف، وضعف الشعور بالمسؤولية، والعجز عن تحديد الأهداف المجتمعية. وفي الواقع، وكما توصلت في العديد من الدراسات المنشورة، لم تعد هذه المجتمعات مجتمعاً واحداً يتصف بالحد الأدنى من التجانس، ولم تعد له ثقافة تتصف بالتميز. وعلى من يريد معرفة المزيد عن هذا الموضوع أن يراجع كتابنا: "الثقافة وأزمة الهوية العربية" الصادر عن منتدى الفكر العربي عام ٢٠١٠.

الثقة التقليدية هي نتاج مجتمع مستقر، بطيء التطور، يعيش أفراده في قرى وأحياء صغيرة شبه معزولة عن المجتمع الأكبر، ما يتيح لأعضاء هذا المجتمع فرصة التعرف على بعضهم البعض عن قرب، والتواصل بشكل يومي أو شبه يومي. ولما كان كل فرد من أفراد هذه القرى والأحياء يعرف الآخر بشكل مباشر بسبب القرابة أو الجوار أو النسب، أو بشكل غير مباشر عبر العلاقات الاجتماعية والمهنية والمعاملات التجارية البسيطة، فإن الثقة تسود في المجتمع دون حاجة لتدخل خارجي من قبل الدولة أو القانون. إذ تقوم التقاليد والعادات والأعراف والهياكل الاجتماعية التقليدية بالدور الأكبر في بلورة هذه الثقة والحفاظ على استمراريتها.

أما الثقة الاجتماعية فهي نتاج مجتمع كبير، سريع التطور والتحول، يعيش أفراده في مدن كبيرة وأحياء مترامية الأطراف، وخلف أبواب مغلقة وأسوار عالية، حيث تتمحور نشاطات الفرد الرئيسية حول نفسه وأسرته الصغيرة. وهذا لا يتيح لأفراد هذا المجتمع فرصة التعرف على بعضهم البعض عن قرب بشكل مباشر أو غير مباشر، ما يجعل من المتعذر تكوين ثقة تقليدية. لذلك يجد هذا المجتمع نفسه مضطراً، كي يحافظ على بقائه وسير الحياة فيه بشكل طبيعي، أن

يطور ثقة اجتماعية بديلة للثقة التقليدية. وتأتي الثقة الاجتماعية هذه من خلال اخضاع العلاقات غير الشخصية لتشريعات رسمية، وتقنين المعاملات التجارية والمالية والعقارية وغيرها، إذ من دون تنظيم تلك العلاقات والمعاملات بشكل رسمي يصبح من المتعذر تسيير شؤون الحياة اليومية، وحماية حقوق الناس وتحقيق التقدم.

إذا كانت الثقة التقليدية هي سمة من سمات المجتمعات التقليدية التي تعيش في عصور ما قبل الصناعة، وتعتمد أساساً على علاقات الجوار والقرابة والنسب، فإن الثقة الاجتماعية هي سمة من سمات المجتمعات غير التقليدية التي تعيش في عصور ما بعد الزراعة، وتعتمد أساساً على القانون والترتيبات الرسمية. إن محدودية روابط النسب، وضعف روابط الجوار، وضيق روابط القرابة بين أعضاء مجتمع كبير يجعل بناء ثقة تقليدية فيه أمراً غير ممكن، ما يفرض عليه أن يطور مبادئ عامة في مقدورها تنظيم العلاقات الاجتماعية والإنتاجية في المجتمع، وسن قوانين وتشريعات ملزمة لكل أعضائه من أفراد ومؤسسات. وهذا من شأنه خلق ثقة اجتماعية تسمح لأفراد المجتمع بالتعامل مع بعضهم البعض بارتياح، والتواجد جنباً إلى جنب باطمئنان. وفي الواقع، لا يمكن للثقة التقليدية والثقة الاجتماعية التعايش في مجتمع واحد، إذ حين تضعف الثقة التقليدية يصبح لزاماً على المجتمع تطوير ثقة اجتماعية بسرعة، وحين تتطور الثقة الاجتماعية تتراجع أهمية ودور الثقة التقليدية في المجتمع.

القانون والثقة الاجتماعية

القانون هو مجموعة المبادئ والتشريعات التي تقرها الدولة من أجل تنظيم العلاقات بين الأفراد والمؤسسات في المجتمع الواحد، وتحديد حقوقهم ومسؤولياتهم تجاه غيرهم من الناس، وتجاه المجتمع والدولة والوطن على السواء. ويشمل القانون إلى جانب التشريعات، القواعد والترتيبات المتعلقة بتنظيم المعاملات التجارية والمالية والنشاطات الاستثمارية والعمل السياسي والتطوعي وممارسة المهن على اختلاف أنواعها. وفي الكثير من الحالات والأحيان، تعتبر التقاليد والأعراف والأسبقيات التي تقرها السلطة القضائية جزءاً من القانون، أو قانوناً موازياً ينطبق على حالات معينة أو أقليات محددة. فعلى سبيل المثال، أقر القانون الأمريكي والأوروبي عامة بحق العمال في التفاوض الجماعي مع الشركات التي يعملون لديها، كما أجاز مبدأ توسط المحاكم في حل النزاعات

الناجمة عن اختلاف العمال مع أرباب العمل بسبب الأجور وغير ذلك من حقوق وامتيازات اجتماعية. وفي العديد من الدول العربية اعترفت القوانين المرعية بعادات الأخذ بالثأر والعطوة وإشكالية "الشرف" التي توارثتها الشعوب العربية عن الأعراف العشائرية وعصر القبلية البائد.

يلاحظ الباحث حين ينظر إلى التشريعات السارية في مختلف الدول وجود اختلافات نوعية بين بلد وأخر. ويعود السبب في ذلك إلى اختلاف البيئة الطبيعية، وتباين الخلفيات الثقافية والتجارب الحضارية بين مجتمع وآخر، وتباعد مستويات التنمية والدخل والتحضر داخل المجتمع الواحد وبين المجتمعات المختلفة. فالتشريعات التي تتعامل مع قضايا واحتياجات سكان الريف مثلاً تختلف قليلاً أو كثيراً عن التشريعات التي تتعامل مع قضايا واحتياجات سكان المدن. والقانون السائد في بريطانيا يختلف عن القانون المعمول به في أمريكا، وهذا يختلف بدوره عن القوانين المعتمدة في دول أمريكا الجنوبية والدول العربية ودول القارة الأفريقية.

يعتمد نظام التشريعات في كل دولة على منطلقات فكرية وفلسفية وأسس أيديولوجية معينة، ويحاول عادة التجاوب مع احتياجات المجتمع وضمان أمنه واستقراره. وبسبب اختلاف الحاجات غير الأساسية كثيراً، وكذلك متطلبات الحفاظ على الأمن والاستقرار بين بلد وآخر، فإن المُشرعين وجدوا أنفسهم يقرون قوانين وقواعد مختلفة، وأحياناً مناقضة. ولما كانت الثقافات المختلفة تميل إلى استخدام معايير متباينة للحكم على الأشياء المتشابهة، خاصة تصرفات الأفراد وعلاقاتهم بالدولة والغير، فإن المُشرعين اختلفوا من حيث المواقف والآراء تجاه ما هو خير وما هو شر، ما هو وسطي وما هو تطرف، ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي، ما هو ديمقراطي وما هو غير ديمقراطي وغير ذلك من أمور. وفي الواقع لا تقتصر الاختلافات على المُشرعين المنتمين لدول مختلفة، بل وتشمل أيضاً المُشرعين المنتمين لفلسفات أيديولوجية متباينة داخل الدولة الواحدة. ولهذا قلما أجمع قضاة على حكم بشأن جريمة، أو على قضية ذات أهمية خاصة بالنسبة لقطاع من قطاعات الشعب أو النشاطات الاقتصادية أو المالية.

بعد حدوث الثورة الصناعية في إنجلترة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وانتقال تلك الثورة إلى غالبية دول أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، تغيرت الهياكل الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الصناعي الجديد بشكل جذري، ما جعل ذلك المجتمع بحاجة لنظم مجتمعية جديدة تتلائم مع نمط الإنتاج الجديد وطريقة الحياة المستجدة. وهذا حتم إعادة تنظيم العلاقات في المجتمع، خاصة

ما كان يتعلق منها بنواحي الحياة الاقتصادية والمعاملات التجارية والمالية التي أصبحت أكثر تعقيداً وتشعباً وذات أبعاد دولية، ما فرض على القانون أن يتغير ليتجاوب مع احتياجات المجتمع الجديد.

كان من القضايا الهامة التي واجهت المجتمع الصناعي قضية الحرية بمفهومها الواسع، خاصة الحرية الاقتصادية والملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، وحرية الرأي والفكر، وحق المواطنين في المشاركة في العملية السياسية. ومع تبلور الفكرة الديمقراطية وتأسيسها كنظام حكم سياسي اضطرت التشريعات مجدداً إلى تطوير نفسها وإعادة النظر في أسسها وأهدافها، ما أدى إلى زيادة تعقيد الحياة وحاجتها إلى المزيد من التشريعات. ولما كانت الفترة التي سبقت حدوث الثورة الصناعية وفصل الدين عن الدولة قد شهدت خضوع المعاملات التجارية والمالية لسلطة الكنيسة، فإن التشريعات الجديدة التي أقرتها الدول في ظل الديمقراطية اهتمت اهتماماً كبيراً بتعريف حقوق الفرد وحمايتها من سلطة الكنيسة وتسلط الدولة على السواء. ولهذا تميزت التشريعات الجديدة بالتوجه نحو تقنين حقوق الفرد وحرياته والتركيز عليها، دون تعريف واجباته تجاه الدولة والمجتمع بنفس القدر من الوضوح. وهذا تسبب في تشجيع الفردية والسماح لها بالسيطرة على ثقافة المجتمع الغربي عامة، خصوصاً بعد انتصار فكرة السوق الحر ونجاح الأثرياء في الاستيلاء على الجزء الأكبر من الثروات.

وفيما تُركز الثقافات الغربية على حقوق الفرد أكثر من تركيزها على واجباته، تركز الثقافات التقليدية التي أفرزتها عصور الزراعة والقبلية على واجبات الفرد تجاه الجماعة والدولة أكثر من تركيزها على حقوقه. وهذا جعل الفردية كمسلك وموقف وقيمة اجتماعيـة تزدهر في الغرب على حساب المجموعة والمجتمع، وقاد إلى كبت الفردية والمبادرات الخاصة في المجتمعات التقليدية، فيما منح الجماعة والدولة في تلك المجتمعات حقوقاً صادرت بموجبها غالبية حقوق الفرد، وأحياناً إنسانيته. في المجتمعات الغربية، يعرف الفرد حقوقه بدقة، وتقوم القوانين والدولة بمساعدته على معرفتها، ما يجعله يعي ما له من حقوق وما عليه من واجبات، ويعمل جاهداً على حماية حقوقه، فيما يحاول التهرب من بعض واجباته. وهذا تسبب في تمكين النخب في الغرب من توظيف القانون لتحقيق مآرب خاصة على حساب الصالح العام، وجعل من الصعب تأمين حق كل مواطن في ابداء رأيه بحرية، وضمان مبدأ تكافؤ الفرص وتحقيق العدالة الاجتماعية.

في المقابل، يعي الفرد في المجتمعات الشرقية واجباته، وتعمل الدولة على زيادتها وتذكير المواطنين بها باستمرار، ما يجعل الفرد يعيش حياته يكافح من أجل تخفيف أعباء تلك الواجبات، فيما

يحاول أن يعرف حقوقه التي تقوم الدولة والسلطة التقليدية عادة بمصادرة الجزء الأكبر منها. ولقد تسبب هذا في تشجيع الفرد على الارتماء في حضن الجماعة المذهبية أو الطائفة أو العشيرة أو القبيلة التي ينتمي إليها سعياً لتأمين حمايته من القانون والحصول على بعض حقوقه. ولقد تسبب هذا بدوره في تفشي الواسطة والمحسوبية والفساد، وشرعنة تلك التصرفات بوصفها تقاليداً وأعرافاً متوارثة. في الغرب الديمقراطي، حقوق الفرد وحرياته أشياء مقدسة تولد معه وتعيش معه العمر كله، وتتكفل الدولة بتأمينها وحمايتها. أما في الشرق، فإن حقوق الفرد تعتبر منحة من الحاكم تخضع لمشيئته ومزاجه، يمنح من يشاء القدر الذي يشاء، ما يجعله يشعر بأن من حقه استردادها وحرمان الفرد منها متى شاء.

كان موقف الشرق هذا من الفرد وحقوقه في مقابل المجتمع وحقوقه أحد القضايا الخلافية بين الصين والدول الإسلامية من ناحية، وأمريكا وغيرها من دول غربية ديمقراطية من ناحية ثانية. إذ فيما دأبت أمريكا على انتقاد الصين والدول الإسلامية بسبب مواقفها من حقوق الإنسان في بلادها، دأبت هذه الدول على الادعاء بأن حقوق المجتمع تأتي في المقام الأول قبل حقوق الفرد. لكن حين تغيب الحقوق الفردية، وتتحكم الجماعة والدولة في تلك الحقوق، يصبح من السهل سيادة نظم الحكم المستبدة، ومن الصعب تأسيس الديمقراطية. وهذا يُحوّل الفرد إلى مجرد أداة في يد الدولة وسجيناً في وطنه، يعيش معظم حياته في غيتوهات ثقافية مظلمة لا تتيح لسكانها مجالاً لرؤية النور. نتيجة لذلك يُحْرم الفرد من حرية التفكير والعمل والابداع والعيش حياة سوية بعيداً عن المخاوف والقيود الرسمية والثقافية، ويتحول المجتمع إلى تراث يجتر ذاته، ويتخلف كل يوم عن زمنه. لذلك كان على كل مجتمع يسعى لحماية حقوق الفرد والمجتمع، وتحقيق مبادئ الحرية والعدالة وتكافؤ الفرص والتقدم، سواء كان شرقياً أو غربياً، صناعياً أو زراعياً، أن يعمل على إقرار تشريعات تجعل حقوق الفرد مساوية لواجباته تجاه المجتمع، وتجعل حقوق المجتمع معادلة لواجباته تجاه الفرد.

وإذا كانت الثقة التقليدية تعتمد أساساً على علاقات القرابة والنسب والجوار، فإن الثقة الاجتماعية تعتمد أساساً على القانون والتشريعات المرعية. حين يكون المجتمع كبيراً متشعب النشاطات، تضعف الروابط الشخصية، وتتلاشى إمكانيات بناء ثقة تقليدية، وتصبح الحاجة ماسة لتطوير القوانين والتشريعات لبناء ثقة اجتماعية. المجتمع الصناعي الغربي والشرقي يتصف بسيادة القانون

واحترام النظام والتشريعات التي تقنن التعامل بين الناس والمؤسسات في المجتمع. أما المجتمع الزراعي الآسيوي والافريقي واللاتيني فيتصف بضعف القانون وميل الناس إلى عدم احترامه. وهذا يجعل من السهل تعامل الناس مع بعضهم البعض ومع الدولة بثقة واطمئنان في المجتمع الصناعي، لأن التعامل يأتي من خلال القانون وبضمانته، فيما يجعل من الصعب تعامل الناس مع بعضهم البعض ومع الدولة بثقة واطمئنان في المجتمع الزراعي والقبلي، لأن التعامل يأتي في غياب القانون كلياً أو جزئياً، وعدم قدرته على حماية حقوق المتعاملين.

وعلى سبيل المثال، حين يقود أحدنا سيارته في مدينة أوروبية يشعر باطمئنان أكبر مما يشعر به حين يقود سيارته في مدينة عربية. ففي أوروبا يحترم السائق عموماً قوانين السير ويعرفها تماماً، وهذا يعزز الشعور بالأمن والثقة بالسائق الآخر. في البلاد العربية مثل مصر والأردن والمغرب ولبنان، يميل السائق إلى عدم احترام قانون السير، وغالباً لا يفهم ذلك القانون، وهذا يضعف الشعور بالأمن والثقة بالسائق الآخر. لذلك يميل السائق في أوروبا إلى الثقة في السائق الذي يقابله على الطريق من دون معرفته معرفة شخصية، فيما يشك السائق في الدول العربية في السائق الذي يواجهه على الطريق حتى وإن توفرت المعرفة الشخصية. إننا نثق في السائق الأول لأننا نثق بأنه يحترم القوانين التي نحترمها، ولا نثق في السائق الثاني لأننا ندرك أنه لا يحترم غالباً القوانين التي نحترمها، ما يعني أن الثقة وعدم الثقة في الحالتين تأتي من خلال فهمنا لدور القانون في المجتمع واحترامنا له.

إن نمو سكان المدن في البلاد العربية بسرعة، واكتظاظ تلك المدن بسكان قدموا من أرياف وبوادي متباعدة ذات ثقافات وطرق حياة مختلفة، جعلهم يشعرون بأنهم غرباء يعيشون في أماكن غريبة. لذلك أصبح من الصعب عليهم تطوير طرق حياة جديدة تجمعهم حول منظومة ثقافية واحدة وتوحدهم حول أهداف مشتركة، ما جعلهم يفقدون ما كان لديهم من ثقة تقليدية. لذلك لم يعد بإمكان الثقة التقليدية أن تقوم بوظائفها المعتادة في تلك المدن، لان الجيران لا يعرفون بعضهم بعضاً، ولأن الأقارب والأصدقاء تشتتوا في مدن متباعدة وأحياء مختلفة. وفي الوقت ذاته، تسببت ظروف الحياة المتغيرة وتزايد تعقيداتها في المدينة من ناحية، وتخلف القانون والتشريعات وعجز الدولة عن تطبيق الموجود منها من ناحية ثانية، في تعذر توفير الحد الأدنى من الثقة الاجتماعية. نتيجة لذلك ظهر عجز في الثقة في كل مدينة في كل دولة ما تزال تعيش في عصور ما قبل الصناعة، وهذا تسبب بدوره في انتشار الفساد والرشوة والاحتيال، وانعدام القدرة على تحقيق التقدم والازدهار.

الثقافة العربية التي نعرفها اليوم هي ثقافة انتقالية تعيش مرحلة تحول غير صحية وغير هادفة وغير منتجة. لقد فقدت هذه الثقافة جذورها الثقافية القبلية والزراعية وما كان لديها من ثقة تقليدية. وهذا يجعلها تعيش في حالة عجز شبه كامل، لا تستطيع تكوين ثقة اجتماعية ورأس مال اجتماعي بإمكانه توفير الحد الأدنى من متطلبات النهضة والتقدم. وهذا يعني أن الثقافة العربية أصبحت، بفعل الانفتاح على عصر العولمة والمعلوماتية وهيمنة النزعة الاستهلاكية على المجتمعات العربية، ثقافة مشوهة، وبالتالي غير مؤهلة لتحقيق التقدم والازدهار. لذلك أصبحت الثقافة العربية بحاجة ماسة لإعادة هيكلة جذرية تمكنها من تتجاوز تقاليد المجتمع الزراعي وعشائرية المجتمع القبلي والنزعة الاستهلاكية وعبادة المال المستوردة من الغرب، وتطوير قيم احترام العمل والوقت وثقافة القانون.

تأثير الحراك الديمقراطي العربي على الوضع الفلسطيني

ورقة مقدمة لمؤتمر "عشرون عاماً على إعلان اوسلو وخمسة وعشرون عاماً على إعلان الاستقلال في الجزائر": مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رام لله، ٢٧ و٢٠١٣/٩/٢٨.

فيصل حوراني*

تمهيد

منذ إعلان اتفاق اوسلو، ثابرتُ على إبراز نقاط بعينها في معرض التحليل النقدي لهذا الاتفاق وتطبيقه أو تعثر التطبيق. وقبل عشر سنوات، تحدثتُ هنا، في رام لله، في مؤتمر فكري انعقد لتقييم حصيلة السنوات العشر، فبلورتُ في حديثي النقاطَ كلَّها التي سبق أن تناولتُها مُتفرقة. وها أنذا أرى الآن أن تلك النقاط ما تزال صالحة لأنطلق منها في حديثي في هذا المؤتمر الذي تعقده مؤسسة الدراسات الفلسطينية بعد انقضاء عشرين سنة على الاتفاق ذاته. وهي هذه التي أوجزها في ما يلي:

النقطة الأولى: هي التي تُجسِّد قاعدة تنطبق على أيّ اتفاق ينعقد بين طرفين متعاديين. فأهمية الاتفاق في هذه الحالة لا تنبع من نصوصه، وحدها، بل تنبع، أولاً وأساساً، من طبيعة الظرف الذي ينعقد الاتفاق فيه، هل هذا الظرف موائم لهذا الطرف أو موائم للطرف الآخر أو هو موائم لطرفيه كليهما. وقد انعقد اتفاق اوسلو في ظرف كان كلّ ما فيه موائماً لإسرائيل وغير موائم للطرف الفلسطيني.ولئن بثّ الاتفاق وعوداً على الجانب الفلسطيني فإن الظرف لم يكن ليأذن بتحقق هذه

* كاتب فلسطيني.

الوعود،حتى لو صاغتها عباراتٌ مستقيمة الدلالة، فكيف وقد جاءت هذه الوعود في عبارات ملتوية وغامضة! والواقع أن التفكير الرغبي لدى فريق أوسلو الفلسطيني تضافر مع التضليل المتعمد متعدد المصادر، ففتن بعض الراغبين في تحقيق السلام، وبضمنهم ناس حسنو النيّة.

النقطة الثانية: باتفاق أوسلو، ارتهنت إسرائيل قيادة م.ت.ف. وناسها لإملاءات القوة الإسرائيلية المتفوقة. وفي تطبيق الاتفاق، اتبعت إسرائيل نهجاً يُطوّق القيادة الفلسطينية وناسها ويجرد الجانب الفلسطيني من عناصر قوته ويحول بينه وبين تأسيس عناصر قوة جديدة. وفي السياق، تعمدت إسرائيل دفع المفاوض الفلسطيني إلى تخفيض سقف مطاليبه أولا بأول، كما تعمدت تهيئة الجمهور الفلسطيني لاعتياد الرضوخ لإملاءات القوة والقبول بالتخفيض. وأُمِلت إسرائيل في أن يجيء وقتٌ تتلاشى فيه مطاليب الفلسطينيين الوطنية فيما هي تواصل بالاستيطان وغيره خلق وقائع حلِّها المنفرد على الأرض، فيعجز الفلسطينيون عن تحقيق مطاليبهم إذا ظلوا متشبثين بها.

النقطة الثالثة: في ظل اتفاق اوسلو، اشتدت القبضة الإسرائيلية على المصير الفلسطيني، وواصلت إسرائيل سياستها التقليدية التي تستهدف تدمير البنى التحتية،الروحية والمادية ، للشعب الفلسطيني. ولأن البنى التحتية هذه هي التي تنتج، في العادة، البنى الفوقية وتأذن بتجديدها كلما اقتضى الأمر،فإن إسرائيل استهدفت الحيلولة دون تطور المجتمع الفلسطيني، ما عنى أن تَعْتَقَ النخبُ والهيئاتُ التي تقود هذا المجتمع وتتهرأ دون أن يتمكن المجتمع، هذا، من إنتاج نخب وهيئات معافاة تحل محلّ ما تهرأ. والذي حدث، كما أمكن رصده حتى بالعين المجردة، أن إسرائيل استكملت، في سنوات أوسلو العشرين، خصوصاً منذ العام ٢٠٠٠، تدمير معظم البنى التحتية في الضفة والقطاع المحتلَّين، وحوّلت أكثر من ثلثي سكانهما الفلسطينيين إلى ناس يعيشون على الغوث ولا يستطيعون أن ينتجوا ما يحتاجون إليه. وقد تجلت نتائج هذا التدمير تباعا، فوهنت البنى الفوقية،وتشرذمت، وتقسمت،وتفاقمت مظاهر الفساد السياسي والتنظيمي والمالي، وتواترت الإنقسامات، واطّرد تبدُّد السمات المشتركة التي تُبقي الشعب شعباً وتصون وحدته، واكتمل، أو كاد، العجزُعن تكوين بنى جديدة معافاة.

النقطة الرابعة: قبل ١٩٤٨ وبعده، جرى الكفاح الوطني الفلسطيني ضدّ تحالف قُوى متفوقة ومصممة على إلغاء وجوده الوطني، وظل من العسير أن يظفر هذا الشعب بتحقيق أيّ من حقوقه الأساسية. غير أن هذا الوضع لم يلغ، في أيّ وقت قبل أوسلو، حقيقتين ساطعتين اقترن وجود كل

منهما بوجود الأخرى: سعةَ المقاومةِ الفلسطينية لهذا التحالف وشدَّتها وعظمَ التضحيات التي بُذلت في سياقها، من جهة، ودورَ هذه المقاومة في محيطها العربي، خصوصاً تأثيرها العميق في منع استقرار العلاقة بين الدول الامبريالية وبين الأنظمة والقوى العربية التابعة لهذه الدول، من الجهة الأخرى. وقد كان الدور الذي لعبته المقاومة الفلسطينية قبل ١٩٤٨، وبعده، خصوصاً بعده، شديد الفعالية في التحفيز على شتى أشكال المجابهات التي تنهمك فيها الأنظمة والقوى العربية المهيأة بحكم طبائعها للوقوف في وجه إسرائيل ولفيفها الإمبريالي. كما كان هذا الدور فعالا، أيضاً، في تأثيره على القوى والأنظمة التابعة للإمبريالية. وهذا الدور، بوجهيه هذين،هو الذي أسهم مع عوامل أخرى في إطلاق مقولة أن قضية فلسطين هي قضية العرب الأولى وموضع إجماعهم، وهو الذي أبقى العمل العربيّ المشترك مجنّداً في مواجهة إسرائيل لعقود كثيرة، أكثر مما هو مجنّدٌ في أيّ مواجهة أخرى.

بموافقتهم في اتفاق اوسلو على طيِّ المقاومة الساخنة للاحتلال الإسرائيلي، وبقبولهم التفاوض مع إسرائيل نهجاً وحيداً في السعي إلى تسوية معها، وبتوجههم إلى استرضاء الولايات المتحدة والتعويل على الأنظمة العربية التابعة لها أو المستكينة أمامها، بهذا، وبما يماثله، قوّض المفتونون باتفاق أوسلو انفسُهم بأنفسهم أهمّ الأسس التي انبنى عليها الدورُ الفلسطيني في الساحة الإقليمية والأخرى العالمية؛ طقّ شرشُ الحياء في وجوه حكام التبعية العرب، فتهافت هؤلاء على خدمة الأسياد جهاراً نهاراً، وصار بإمكانهم أن يتهافتوا على خدمة إسرائيل سراً وعلناً، كما صار بإمكانهم أن يحجبوا العون عن الفلسطينيين، وأمكن أن يفعلوا هذا كلّه دون أن يخشوا أيّ عواقب. والحاصل أن غياب الدور الفلسطيني، وهو الذي كان يحول دون استقرار العلاقة الخطيرة بين الإمبريالية وبين الأنظمة العربية التابعة لها، قد رفع سوية تأييد الأسياد الإمبرياليين لإسرائيل و أطماعها السابقة والمستجدّة إلى ذرى غير مسبوقة.

النقطة الخامسة: في سنوات اوسلو وبتأثيره، مع الانحدار المتواتر في الحال الفلسطيني الإجمالي نحو العجز، استفحلت سطوةُ الأوهام وسوء التقدير. ويمكن أن يُعدّ في مقدمة الأوهام وهمُ اقتراب التوصل إلى تسوية متوازنة مع إسرائيل، ووهمُ الدمج بين مرحلتي التحرر من الإحتلال وبناء الدولة المستقلة، ووهمُ فصل الصلة الثابتة والدائمة بين العدوانية الإسرائيلية وبين العدوانية الأميركية.أما سوء التقدير، فما أكثر ما يمكن أن يُعدَّ من مظاهره ونتائجه! وفي صلب هذه النقطة يكمن خطأ

أخطاء اوسلو الفكري: إلغاء الفهم العلمي للواقع وتطوراته، وإحلال الرغبات محلّ الواقع، وتَغييب التمييز بين الواقع والوهم.

سمات عامة للحراك العربي

ما ذُكر أعلاه وما أُغفل ذكره مما يماثله أسهما في تشكيل الوضع الذاتي الفلسطيني الماثل أمامنا الآن عشية بداية العقد الثالث من سنوات اوسلو،الوضع الذي وصفه من سبقوني وسيصفه من سيتحدثون بعدي. في هذا الوضع، كما أُجيز لنفسي أن أوجز وصفه، لم يبق من الحركة الوطنية الفلسطينية التي تشكلت بعد ١٩٤٨ إلا مزقٌ واهنة، ولم يعد الطريق سالكا أمام تشكل حركة وطنية جديدة معافاة. إنه وضع يُجسِّد قاع الفشل كما يجسِّد الجمود الذي لحق بحركة تحرر وطني كانت في وقت سابق مالئة الدنيا وشاغلة ناسها.والجمود، عندي، هو أخطر من الفشل. فالفشل قد يعني بقاء كل شيء على حاله. أما الجمود فيعني التراجع. وها هي ذي نتائج التراجع ماثلةٌ أمامنا: انسدادُ طريق التسوية ومثله انسداد طريق المقاومة المسلحة الفعالة؛ والانقسامُ غير القابل للرتق؛ والفسادُ متعدد الوجه الذي تحوّل في سنوات اوسلو العشرين إلى ظاهرة مستقرة لا فكاك منها؛ والحصارُ المعلن المفروض على غزّة حتى مع هيمنة الرغبة في التهدئة؛ والحصارُ غير المعلن المفروض على الضفة حتى مع استمرار التنسيق الأمني؛ واطّراد نهب الأراضي وبناء المستوطنات الإسرائيلية؛ وما إلى هذا مما لا يبيح المجال المتاح تعداده كله.

لكن، لأن ما يحفز على التطور في المحيط العربي ليس هو العامل الفلسطيني وحده، فإن العوامل الأخرى الحافزة فعلت فعلها في هذا المحيط، فلم يَحُلَّ فيه الجمود الحالُّ في الساحة الفلسطينية. وحين انقضى العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أذنت الأوضاع التي كانت قد تشَكلت في عدد من الدول العربية بانطلاق موجة جديدة من موجات الحراك الديمقراطي المتعاقبة في هذه الدول. وما يزال هذا الحراك مستمراً في النحو الذي تابعناه خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة، وأغلب الظن أنه سوف يستمر ويشتدُّ ويتسع، فيشمل دولاً أخرى، إذا لم تفلح الجهود المضادة المبذولة لإجهاض الحراك والجهود الأخرى المبذولة لتشويهه وحرفه عن أهدافه.

هذا الحراك أطلق عليه المفتونون به وصف الربيع العربي، وسمَّاه بعض هؤلاء ثورةً أو ثورات،

وتعددت الأوصاف التي تترك انطباعاً بأن ما يجري هو الحراك الأول من نوعه. أما عندي، وفي ظني أن هذا هو ما يظهره الفهم العلمي لهذا التطور، فإن ما نشهده يُشكل موجة أخرى من موجات العمل المتواتر لاستكمال الثورات الوطنية الديمقراطية في شتى بلدان العالم العربي، الثورات التي بدأت إرهاصاتها الأولى مع بداية تبلور بُنى رأسمالية حديثة، في أواخر القرن التاسع عشر، والتي أفرزت، أول ما أفرزت، الثورة العربية الكبرى في العام ١٩١٧، الثورة الموؤودة كما ينبغي القول. وقد ينبغي أن نضيف أن الموجة التي نشهدها الآن ربما كانت هي الأعنف والأشدّ صخباً من الموجات التي سبقتها، دون أن تصير بسبب هذا فريدة في نوعها. كما قد ينبغي أن نضيف أيضاً أن الجهد الجاري لوأد هذه الموجة أو تشويهها وحرفها عن أهدافها ربما كان هو الأقوى، دون أن يصير بسبب هذا مختلفاً.

الموضوع الذي أُوكل إليّ تناوله، هنا، هو موضوع تأثير الحراك الديمقراطي العربي في موجته الأخيرة هذه على الوضع الفلسطيني، أي تأثير هذا الذي يحتدم في العالم العربي على حاضر الحركة الوطنية الفلسطينية ومستقبلها، وعلى مآل الجهود المكرسة للتحرر من الإحتلال الإسرائيلي وتمكين الشعب الفلسطيني من الظفر بحق تقرير المصير وإقامة دولته المستقلة. وفي الاستجابة لما نُدبتُ له، لن أُقدِّم، هنا، دراسةً، بل أُقدِّم ورقة رأي تستند، بالطبع، إلى ما أنجزته من دراسات وما أتيح لي أن أطلع عليه من الدراسات الكثيرة التي أنجزها غيري.

لم يشهد تاريخ العمل الوطني الفلسطيني، هذا الممتد منذ بداية الاحتلال البريطاني، حالة تجمدت فيها قدرة الحركة الوطنية على الفعل ورد الفعل أسوأ من الحالة الراهنة. ولم يحدث أن امتدت أيّ فترة تجمّد سابقة أطول مما امتدت الفترة الأخيرة. وفي هذه الحقيقة يكمن السبب الأشد تأثيراً في إحداث مشاعر الإحباط الغالبة الآن.

لكن، لئن كان حال الساحة الفلسطينية هو هذا، فإن أحوال الساحات العربية المحيطة لم تَنحدر إلى هذا المستوى. فهنا، في هذه الساحات، وُجدت دولٌ ومجتمعات لم تتدمّر بناها التحتية فلم تصِرْ عاجزةً عن تجديد بناها الفوقية، ولم تنسد آفاق التطور. قد يسوء الحال في أيّ من هذه الدول في وقت أو غيره، وقد تهن وتيرة التطور أو قد تنتكس. إلا أن الطرق لا تنسد وفرصَ الإستبدال لا تغيض. وأول ما يمكن رصده ونحن نجري تقييماً إجمالياً للحراك الديمقراطي والجهد المضاد له في العالم العربي المحيط، قد يصح إيجازه في النقاط التالية:

النقطة الأولى: حدّة الحراك وشدّته واتساعه في الدول التي حكمتها أنظمة تميزت بأنها حملت مقداراً أو غيره من سمات العلمانية. وفي مقابل هذا: وهنُ الحراك الديمقراطي أو غيابه في الدول الأخرى التي تحكمها أنظمة تنسب شرعية وجودها إلى إرادة السماء وتُعلي شأن الشريعة الإسلامية، لا لشيء إلا لتسوغ استبدادها وفسادها وخدمتها للامبرياليين الذين ينهبون ثروات بلدانها وبلدان الأخرين.فما الذي يأذن باشتداد الحراك الديمقراطي على جانب ويبقيه واهناً أو مغيباً على الجانب الآخر؟ سؤال ليس من العسير مقاربة الإجابة السديدة عليه. فالطموح إلى إحلال هيئات ونخب ديمقراطية محلّ الهيئات والنخب الاستبدادية يجد في ظل الأنظمة ذات السمات العلمانية فرصاً للتعبير عن ذاته أوسع من الفرص المتاحة في ظل الأنظمة التي تحكم باسم السماء وتتسلح بالدين وتتستر به. وهذا يعني أن فرص التطور نحو الديمقراطية تتوفر في المجتمعات التي تتمتع بمقدار من الحداثة أكثر مما تتوفر في المجتمعات المشدودة إلى أزمنةٍ وقيم غابرة. بكلمات أخرى: التطور الديمقراطي مرتبط بالتحديث. ولا يمكن للقوى ولأنظمة الحكم الرجعية أن تكون مع أيّ ديمقراطية، لا في بلدانها ولا في بلدان الآخرين. الرجعيةُ لا يمكن إلا أن تقف في الصف المناهض لأيّ ديمقراطية.

يرتبط بهذا وينبثق منه أن أنظمة الحكم المستبدة التي اكتسحتها موجةُ الحراك الديمقراطي أو كادت تكتسحها، أنظمة تونس ومصر واليمن وليبيا ومثلها النظام السوري، قد حققت في بلدانها مقداراً من التحديث أفرز الوضع الذي جرّأ نخباً ديمقراطية وقطاعات واسعة من الجمهور على التحرك ضد الاستبداد. وفي هذا ما يُفسر التعثر الشديد الذي تواجهه قوى رجعية ركبت موجات الحراك الديمقراطي في هذه البلدان وحاولت الاستئثار بالسلطة دون أن تَكفّ عن سعيها إلى إعادة مجتمعاتها إلى وراء.

النقطة الثانية: جرى الحراك الديمقراطي في كل دولة بمبادرة قوى عصرية ، صغيرة أو كبيرة، وحظي في الحالتين باستجابة شعبية عاصفة . وبهذا وذاك، عكس الحراك الديمقراطي الطبيعة الغالبة في مجتمعات الدول التي شهدته، كما عكس عمق الطموح إلى التقدم الذي يحرك هذه المجتمعات. وفي كل بلد، دون استثناء، بادرت القوى الأشدُّ محافظة أو رجعية إلى ركوب الموجة وحرف هذا الحراك عن هدفه. وفي كل بلد، دون استثناء أيضاً، حظيت القوى الرجعية بتأييد مصدرين خارجيين مرتبط أحدهما بالآخر ومكمل لجهده: الولايات المتحدة ولفيفها الإمبريالي، من جهة؛

وأنظمة الحكم العربية الرجعية والقوى التي تسندها، من الجهة الأخرى. وقد تضافر المصدران مع الرجعية المحلية في كل بلد، لتهميش الديمقراطيين الأصحاح، ووأدِ الحراك الديمقراطي، وتيسير السبل لأعداء الديمقراطية كي يستأثروا بالسلطة، وإحداث حجوم هائلة من الفوضى والدمار في دول الحراك، بحيث تفقد هذه الدول استقرارها وقدرتها على التأثير في محيطها، وبحيث تعجز مجتمعاتها عن مواصلة ثورتها الوطنية الديمقراطية، أي بحيث يتكرر ما حدث مراراً من قبل، منذ أجهضت الدول الامبريالية الثورة العربية الكبرى إبان الحرب العالمية الأولى، حتى إجهاض دور الحركة الوطنية الفلسطينية في محيطها.

النقطة الثالثة: في حالات الحراك كلها،ركّز المبادرون إليه على بنود بعينها وأهملوا سواها. وقد جرى التركيز، خصوصاً، على اثنين من بنود الممارسة الديمقراطية هما: الحق في التمتّع بحرية التعبير، والحق في اختيار الحكام عبر صناديق الاقتراع. ابتُسرت الديمقراطية في توفير هذين الحقين. فعنى هذا أن أنشط دعاة الحراك ركّزوا على بعض ظواهر الأمور وأغفلوا اللباب. أغفل معظم دعاة الديمقراطية التركيز على الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والصحية والثقافية وما إلى هذا من الحقوق التي لا تستقيم الممارسة الديمقراطية دون توفيرها. وبهذا، سهّل هؤلاء الدعاة توسيع ظاهرة اختلاط المواقع التي أسهمت في تشويه الحراك الديمقراطي، وصار من الممكن أن يتصدّر المستبدون الفاسدون المفسدون صفوف العاملين من أجل الديمقراطية. ولم يبق غريباً، بعدُ، أن يتصدر حكام السعودية وقطر ومن على شاكلتهم العمل الجاري على أقدام وسيقان عديدة لإجهاض الحراك الديمقراطي في بلدان الآخرين والإدعاء في الوقت ذاته أنهم مناصرون لهذا الحراك.

النقطة الرابعة: هي نقطة أخرى أهمل المبادرون إلى الحراك التركيز عليها، فسهّلوا عملية اختلاط المواقع. فالديمقراطية التي اقتبس هؤلاء بعض مظاهرها فقط هي الديمقراطية البرجوازية. وهذه الديمقراطية هي ثمرة التطور الرأسمالي الصناعي ومتوّجته. وفي بلاد مثل بلادنا، حيث قُطم مسار هذا التطور قبل أن يَستكمل مداه الكلاسيكي ، يتعذر القفز من أنماط الحياة ما قبل الرأسمالية، أو الحياة الرأسمالية الشائهة، إلى أنماط الديمقراطية البرجوازية كما هي متحققة في المجتمعات التي استكملت تطورها الرأسمالي الصناعي.يزيد في تعذّر هذا الإنتقال كونُ الدول الرأسمالية الأكثر تطوراً ، هذه التي بلغت طور الإمبريالية المعولمة، تقف، هي وأتباعها في المنطقة، ضد التطور الديمقراطي، استطراداً لوقفتها الكلاسيكية ضد أن تستكمل بلدان المنطقة تطورها الرأسمالي الصناعي ذاته.

الانتباه لهذه النقطة يعيدنا إلى الحاجة لاستكمال الثورة الوطنية الديمقراطية بأبعادها الشاملة، ويُظهر مخاطر الدعوة التي تفصل الحاجة إلى تطوير المجتمع عن الحاجة إلى الديمقراطية. والأهم من هذا أن موقف الدول الإمبريالية الثابت في مجافاته لقوى الديمقراطية والتحديث في بلداننا يُذكِّرنا بتعذر تحقيق الديمقراطية الراسخة ما لم يقترن النضال من أجلها بالنضال ضد الهيمنة الإمبريالية والعدوانية الإسرائيلية.

النقطة الخامسة: يُضاف إلى ما تقدم ويتصل به التذكيرُ بواحدة من نتائج العولمة أنشأت واحدة من أخطر سماتها السلبية: تغليب حاجات الطمع في الاستئثار بثروات عالمنا كلّه وربطها بحاجات الاستئثار بثروة بلد واحد أو منطقة واحدة فيه. وقد استتبع هذا الطمعُ اشتداد المحاولات الامبريالية الجارية لفرض الهيمنة على العالم بأسره وربط الحاجة لإنجاح هذه المحاولات بالحاجة إلى الهيمنة في بلد واحد. من هنا، تراجع الاهتمام الفعلي بمزاج الجمهور في بلد واحد أو بحاجات هذا الجمهور، وحل محلّه الاهتمام بأن لا يُعرقل مزاج أيّ جمهور سعي الإمبريالية إلى تعميم هيمنتها. وفي السياق، بدأ الاهتمام بالديمقراطية يتراخى لصالح تشديد القبضة على مواقع الثروات في كل مكان في العالم. وبإمكان كلّ مفتون بالديمقراطية البرجوازية أن يتأمل في سؤالين: لماذا تتآكل مكتسبات الديمقراطية البرجوازية حتى في أعرق بلدانها؟ وما الذي ستفعله الأنظمة الإمبريالية في بلدانها ذاتها إذا ظهرت في هذه البلدان معارضة تُهدد وجود هذه الأنظمة، ما الذي قد يفعله حكام الولايات المتحدة أو بريطانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو أيّ بلد من هذا القبيل، لو أن المعارضة في بلدهم قويت وحملت السلاح ووجدت من يعينها من الخارج وأصرت على إسقاط أنظمة هؤلاء الحكام بالعنف المسلح؟

النقطة السادسة: سلم كثيرون عندنا بما روّجه المنتصرون في الحرب الباردة حين شاءوا أن يقبروا الفكر الاشتراكي فسخّفوا الأيديولوجيا كما سخّفوا منجزات النظم الاشتراكية. وقد طال التسخيف، مما يتصل بموضوع هذه الورقة، مفهومَ الديمقراطية الشعبية ومنجزاتها، لحساب التغني بمزايا الديمقراطية البرجوازية ومنجزاتها. وفي هذه الحمأة، غُيّبت عن الأنظار عيوبُ النظام الرأسمالي الكثيرة وعيوب ديمقراطيته، وبضمنها العيوب التي تحدّث عنها مفكرو البرجوازية أنفسهم. وفي السياق، تصدى كثيرون لترويج القول بأن الدنيا تبدّلت بعد انهيار السلطات الاشتراكية في دول شرق اوروبا وتفكيك الاتحاد السوفياتي. وعاب هؤلاء، خصوصا أولئك منهم الذين من عندنا، على

أمثالي أنهم ما يزالون يقيمون وزنا لقوانين العلوم الإنسانية، وعدّ هؤلاء في العيوب الاستمرارَ في استخدام مصطلحات هذه العلوم. لكأن من حق رابح جولة في صراع مديد أن يلغي منجزات الفكر والعلم البشريين حين لا تلائم أطماعه، أو لكأن من واجبنا أن نجاري المنتصر في هذا حتى لو كانت مجاراتنا إيّاه فتاكة بنا !

النقطة السابعة: كانت حصّة الشعب الفلسطيني من سلبيات الحالة التي أعقبت انتصار الإمبرياليين في الحرب الباردة باهظة. ومثّل إتفاق أوسلو وعقابيله المتتابعة أخطر ما حلّ بالفلسطينيين في هذا السياق. لقد تنبأ أحد كبار عرّابي الاتفاق الفلسطينيين بأن الإتفاق الذي دفع هو دفعاً مثابراً نحو إبرامه قد يُفضي إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة كما قد يفضي إلى كارثة، وجعل فرصة تحقق هذا الاحتمال وفرصة تحقق ذلك الاحتمال متساويتين. وها هي ذي عشرون سنة انقضين، دون أن تأتي الدولة المستقلة، ودون أن تتوفر القناعة بأنها على الأبواب، ودون أن يتوهم أحد بأنها ستقوم، إن قامت، على الأرض التي إحتلتها إسرائيل في العام ١٩٦٧ كلها، وبالتأكيد دون أن يتوهم أحد بأنها ستكون حقاً مستقلة، وكذلك دون أن يتوقف اطّراد الكوارث.

الفلسطينيون في البرزخ الخطر

في هذا العام، يبدأ العقد الثالث للمسار الفلسطيني الذي يتحكم فيه عملياً اتفاق أوسلو وعقابليه المتواترة منذ عشرين سنة. فكيف يمكن أن نصف وضعنا الفلسطيني كما يتجسّد في الدوائر الثلاث: الذاتية والإقليمية والعالمية، خصوصاً مع احتدام الصراعات التي اقترنت بالموجة الجديدة من موجات الحراك الديمقراطي العربي، ومع احتدام الصراع العالمي على المنطقة. الوصفُ الصحيح للوضع الفلسطيني مهمٌّ جداً،لأنه يشكل المفتاح اللازم لتقصّي تأثيرات الحراك الديمقراطي المحيط على هذا الوضع في حاضره ومستقبله.

أولا: في الدائرة الذاتية: أتمّ أعداء الشعب الفلسطيني تشكيل الموقف الذي حُشر فيه الفلسطينيون بعد اوسلو. في هذا الموقف، صار الشعب الفلسطيني معرضاً للخسارة إن لان وإن تشدّد، إن اعتدل وإن تطرف، إن ثار وإن استكان، إن مارس الكفاح المسلح وإن نبذه، إن فاوض وإن كفّ عن التفاوض، إن تشبث باتفاق أوسلو وإن تخلى عنه، إن استبقى السلطة التي نشأت بموجب الاتفاق

وإن ألغاها. إنها الحلقة التي وضعت ما بقي من الحركة الوطنية الفلسطينية التي جلبت أوسلو في طوق مقفل يصعب الفكاك منه.

ثانيا- في الدائرة الإقليمية: نشأ وضع مفتوح على احتمالات شتى ليس بينها مما يتصل بالشأن الفلسطيني احتمالٌ واحد واعد يمكن أن يتحقق في وقت قصير.إسرائيل غارقة في أزمات كثيرة خاصة بها تدفعها نحو مزيد من العدوانية ، فضلاً عن حصتها من الأزمة العامة للرأسمالية.لكن الدول الإمبريالية التي تستفيد من سياسة إسرائيل العدوانية تقتطع مالاً وحوائج كثيرة، حتى مما تحتاج هي إليه لتلبية حاجات شعوبها، وتمنحها لإسرائيل لكي تقلص خسائر هذه الدولة التي تخدمها بكفاءة منقطعة النظير. وبهذا، كما بغيره، ستظل إسرائيل متفوقة في القوة متعددة الوجه إلى أمد طويل. والدول العربية المحيطة يضطرم داخل كلّ منها صراعٌ شديد. طرفا هذا الصراع حراكٌ ديمقراطي في جوهره حداثي في تطلعات مطلقية، وذلك على طرف؛ وحراكٌ مضاد، رجعي في جوهره وفي تطلعات القائمين به، وذلك على الطرف الأخر. وكل الدلائل تُشير إلى أن هذا الصراع سوف ينجلي في نهاية المطاف عن منجزات إيجابية ، لكن هذا لن يتحقق في وقت قصير. أما الماثلة أمام الأعين الآن فهي العقابيل السلبية لهذا الصراع: الفوضى، وتبديد الطاقات والموارد ، والدمار ، وتوقف المجرى العادي للحياة، وشلالات الدماء، وكل ما هو من هذا القبيل الخطير.

الحراك الديمقراطي ذاته يستفزُّ حراكاً مضاداً، شتاء عند من يؤثرون وصف الربيع، أو ثورة مضادة عند من سمّوا الحراك الديمقراطي ثورة. وبهذا الحراك المضاد والتأييد الذي يردفه من خارج المنطقة، يحتدم الصراع، داخل كل بلد وعلى الصعيد الإقليمي كلّه. ولئن أمكن الأمل بأن ينجلي الصراع المحتدم هذا عن نتائج إيجابية، فإن هذه النتائج هي الأخرى لن تظهر في وقت قصير، بالرغم من غلبة الاعتقاد بأنها آتية، لا محالة. أما الماثلة أمام الأعين الآن فهي النتائج السلبية.

وفي الدائرة ذاتها، توجد،أيضاً، دولتان غير عربيتين، والدولتان كلتاهما منهمكتان في الصراع: ايران التي تقف في الصف المناوىء للإمبريالية والأنظمة التابعة لها مثلما هي مناوئة، خصوصاً، لإسرائيل، من جهة؛ وتركيا عضو حلف الأطلسي وأحد أذرعه المندوبة لمواجهة مناوئيه العرب وغير العرب، والتي يحكمها منذ عشر سنوات حزبٌ إسلامي له معظم السمات التي لقوى الحراك المضاد وأنظمته في دنيا العرب، من الجهة الأخرى.

ثالثاً: في الدائرة العالمية: يتشكل على امتداد هذه الدائرة وضعٌ يُعاد فيه تبلورُ كتل القوة ومحاورها

وأحلافها، في نحو يؤدي إلى تجاوز أحادية المحور الأميركي التي برزت عشية انتهاء الحرب الباردة. هنا، يُظهر التطور الجاري ميلا إلى تناقصٍ نسبي في قوة الولايات المتحدة ومحورها، لحساب زيادة، نسبيّة هي الأخرى، في قوة معسكر منافس تتصدره الصين وروسيا والهند ويجتذب دولاً عديدة أخرى. وإذا كان هذا الميل ما يزال بطيئاً، وإذا كان المحور الأميركي ما يزال هو الأقوى، فما من شيء يمنع أن يطّرد التحول النسبي فيفضي إلى تحول نوعي غير مُواتٍ للعدوانية الأميركية. كما أنه ما من شيء يمنع أن تتمَ بلورةُ نظام دولي جديد تتوازن فيه القوى ويفقد فيه المحور الأميركي قدرته على العربدة. أما المؤكد فهو أن الوصول إلى هذا التوازن، الذي سيطفىء في السياق قدرة إسرائيل على العربدة، لن يُستكمل في وقت قصير، حتى مع غلبة الاعتقاد بأنه سوفَ يُستكمل.

نحن، بنى فلسطين، واقعون، إذاً، في وضع ذاتي تجمد وتهرأ. إلا أن هذا الوضع غير المسعف محاطٌ بوضعين، إقليمي وعالمي، يحمل كلُّ واحد منهما وعوداً بتحقق منجزات مسعفة. وهذه وعود إن كانت مؤجلة التحقق لسنوات، فهناك، منذ الآن، ما يسوغ الاعتقاد بأنها سوف تتحقق لا محالة. وخلاصة الوعود هي هذه: لن تظل منطقتنا إلى الأبد أسيرة العدوانيتين الإسرائيلية والأميركية؛ ولن يدوم انفراد الولايات المتحدة ولفيفها في الهيمنة على العالم.

هو، إذاً، هذا البرزخ الممتد جغرافياً على امتداد عالمنا الأرضي، والممتد زمنياً على امتداد المرحلة التي بدأت بانهيار السلطات الإشتراكية في دول أوروبا وتفكك الاتحاد السوفياتي.وهي المرحلة التي يُتوقع أن تُتوج باكتمال تشكل نظام دولي جديد، آخذ الان في التشكّل، وتبلور توازن دولي يجد فيه المناوئون للعدوانيتين الأميركية والإسرائيلية ما يستندون إليه وما يوفر لهم الأمن والأمان. هو برزخ خطير هذا الذي قد يستمر لأكثر من عقد، وقد يستمر، ربما، لعقدين تستعيد بعدهما القوى التقدمية زمام المبادرة الذي أفلت من يدها.

ما الذي يمكن عمله

لقد حُرم الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه الوطنية أكثر وأطول مما حرم من ممارسة هذه الحقوق أيّ شعب آخر في التاريخ الحديث. وأخشى ما قد يخشاه الراغب في أن يستعيد هذا الشعب حقوقه هو أن يطّرد تردي حاله الذاتي ويستفحل عجز حركته الوطنية عن النهوض وتتلاشى قدرتها

على البقاء فعالة داخل الصورة العامة. فباطّراد هذا التردي، ستبلغ النكبة الفلسطينية تمامها. وحين تتوالى المنجزات الإيجابية، الإقليمية والعالمية، كما هو متوقع، يُخشى أن لا يكون قد بقي على أرض الواقع حضورٌ فلسطيني وطني قادر على الاستفادة من هذه المنجزات.

لدينا في التاريخ الفلسطيني ما يُذكّر بهذا الذي نخشاه. فالانتصار الحاسم على الفاشية في الحرب العالمية الثانية أنشأ الوضع الذي أطلق موجة تحرر البلدان المستعمرة من الاحتلالات الأجنبية وفتح أمامها سبل التطور والتقدم. وقد استفادت البلدان العربية الكثيرة، هذه التي كانت كلُّها تقريباً خاضعة لاحتلالات أجنبية، من هذه الموجة، إلا فلسطين. فهنا، في البلد الذي أبتلي بالاستعمار المزدوج، البريطاني الكلاسيكي والصهيوني الاستيطاني الإحلالي، استفاد الصهيونيون من الموجة فأنشأوا دولتهم، أما الفلسطينيون فحلّتْ بهم النكبة التي تلاحقهم امتدادتُها حتى يوم الناس هذا. ومن المؤكد أن لهذه النتيجة أسباباً كثيرة. لكن، من المؤكد أيضا أن سياسة قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية التي وضعت هذه الحركة في تعارض مع سياق تطور البشرية آنذاك، قد شكلت واحداً من الأسباب التي سهّلت وقوع النكبة. فما الذي يمكن أن يحدث فيما الوضع الفلسطيني الذاتي القائم الآن قد صار أسوأ من الوضع الذي سهّل وقوع النكبة؟

السؤال ذاته تُمكن صياغته بكلمات أوضح: ما الذي يمكن أن يحدث إذا أسهم ما بقي من قيادة ما بقي من الحركة الوطنية الفلسطينية في تكرار ما قادت إليه سياسة سالفتها، هل يمكن أن نتوقع ما هو أقل من اكتمال النكبة؟ وهذا السؤال يستدعي السؤال الأشد إلحاحاً والأكثر أهمية: ما الذي يمكن عمله، مما ينبغي أن يُعمل، لتجنُّب هذا المصير؟ وأول ما يرد في معرض الإجابة هو تحديد مجالات العمل الممكن المطلوب وهدفه، كي يتم عبور البرزخ الخطير دون أن تخسر الحركة الوطنية الفلسطينية حضورها خسارةً كلية. بديهي، حين يتعلق الأمر بتحديد مجالات العمل، أن يشمل التحديد الدوائر الثلاث الذاتية والإقليمية والدولية. وبديهي أيضاً أن العمل سيتركز، أكثر ما يتركز، على تهيئة الساحة الذاتية لتمثل الأوضاع الراهنة والاستفادة من التطورات القادمة. أما الهدف، فما أكثر ما يمكن رسمه من أهداف ، لكن ما أقل الإمكانيات اللازمة للوصول إلى أيّ منها! وعندي أن هدف الأهداف ينبغي أن يتجسّد في الحرص على البقاء في الصورة، مقاومة التلاشي والإبادة السياسية، أو، بالصياغة التي لا أملُّ من تكرار الدعوة إلى تبنيها: تخفيف الكوارث، من الان وإلى أن يحين الأوان وتتوفر الإمكانات اللازمة لرسم أهداف انتصارية. إن اللغة الانتصارية التي قد

يستخدمها إعلام القيادة أو قد تنطوى عليها اتهامات المعارضين لن تجدي نفعاً، ولن تُفضي إلا إلى تعميم مزيد من الأوهام.

مشقة العمل في الدائرة الذاتية يُجسّدها العاملان اللذان تكرّر التحذير من خطريهما: اهتراء النخب القديمة؛ والإفتقار إلى البنى التحتية التي تأذن بإنتاج نخب جديدة معافاة.والمهمّة ضخمة، فضلاً عن أنها شاقة، والوسائل المتاحة لإنجازها شحيحة. وهذا هو ما يُفسِّر شيوع مشاعر اليأس بين من ندبوا أنفسهم لتحقيق أهداف جليلة ثم وجدوا أنفسهم عاجزين عن تحقيقها . غير أن ما يحمل إلى اليأس لا يشكل بالضرورة رخصةً للقعود عن كل عمل. فاليائس مطالب، هو الآخر، بأن يكافح ويضاعف الجهد لتخفيف أذى يأسه. وبالرغم من كل ما حل بها، ما تزال في الساحة الفلسطينية جُذى متّقدة ونقاطُ ضوء مشعة. قليلة؟ نعم، متفرقة؟ هي كذلك في أغلب الحالات، لكنها موجودة، والمطلوب هو الحفاظ على وجودها، والعمل على وصلها بعضها ببعض. وتحقيقُ هذين المطلوبين لا يندرج في قائمة المعجزات.

إذا وافقنا على هذا الوصف للساحة الفلسطينية، فإن بنود العمل المطلوب تتحدد من تلقاء ذاتها. وهذه هي البنود التي تحدد بنود السياسة المطلوب اتباعها من أجل اجتياز البرزخ الخطير واستبقاء شيء ما في الساحة قادراً على الإستفادة من إيجابيات المحيطين العربي والعالمي. وأول المطلوب وأهمه وأشدّه إلحاحاً يتجسَّد في العمل للاحتفاظ بما بقي من التمثيل الفلسطيني الموحد الذي تجسِّده م.ت.ف. واجتذاب الأطراف الفلسطينية المجافية للمنظمة كي تنضمّ إلى الحظيرة الجامعة. الحرص على وحدة التمثيل لا ينطلق من الحاجة إلى إعادة اللحمة بين قطاع غزّة والضفة،فقط، بل يستند أيضا إلى حاجة أعمّ وأعمق لإعادة اللحمة التي أوهنها اتفاق أوسلو بين المقيمين في الوطن وبين الموزعين على بلدان الشتات. لقد كان الانقسام من أخطر عقابيل أوسلو، ومثلُه كان توهين اللحمة بين الداخل وبين الشتات، اللحمة التي كانت انتفاضةُ ١٩٨٧ – ١٩٩٣ قد متّنتها. وما دام أن كثيرين يدركون خطر هاتين الظاهرتين، فليس متعذراً أن يتصدى هؤلاء لمنع اتساع الرتوق وتقطيب ما يمكن تقطيبه منها، إلى أن يتم اجتياز البرزخ وينفتح الأمل بتحقيق النهوض الشامل.

وفي اليقين أن تحقق هذا الهدف، أو حتى مجرد الاحتفاظ بالتوجه نحوه، يتطلبان إعادة الاعتبار لهيئات م.ت.ف. ومؤسساتها، كما يتطلبان الإخلاص في العمل على اجتذاب الأطراف المجافية إلى الحظيرة.إعادة الاعتبار والإخلاص، هذان، يوجبان تحديد الهامش المشترك. وإلى هذا ، وعلى الدرجة

ذاتها من الأهمية، مطلوبةٌ عصرنةُ النظام الأساسي للمنظمة. ولكي يكتمل نفعُ العصرنة، مطلوبٌ التخلي عن نظام الكوتا، نظام التحديد المسبق لحصص فصائل المنظمة في هيئاتها ومؤسساتها، وإحلال نظام الإختيار الحرّ محلّه. وبمراعاة حال الساحة الفلسطينية، خصوصا حال الشتات، يمكن للاختيار المتحرر من أسر الكوتا أن يتم بالانتخاب كلما وحيثما أمكن إجراء انتخابات، كما يمكن أن يتم بالتوافق كلما وحيثما تعذر إجراء انتخابات. وسيكون من المفيد أن تؤخذ نتائج الانتخاب هادياً يُستعان به في الاختيار الذي يصوغه التوافق. والأكيد أن ارتهان تجديد هيئات م.ت.ف. لتوفر الظرف الذي يبيح إجراء انتخابات في كل مكان ليس سوى تهرّب مفضوح من أداء هذا الاستحقاق الذي لا بد منه.

بدون إعادة اللحمة، بشقيها، وبدون تجديد هيئات م.ت.ف. وعصرنة ميثاقها ونظامها الأساسي، سيظل دور الشعب الفلسطيني في الحراك العربي الديمقراطي والصراع المحتدم معه وضده محدوداً، ضئيلا إن شئنا وصفه بدقة، وستظل فرص الإستفادة من منجزات الحراك العربي ضئيلة هي الأخرى ، أو حتى معدومة .أما السلبيات التي تقترن بالصراع المحتدم فما أكثر الأذى الذي سيطال الفلسطينيين منها !

بحركة وطنية يَجمعُ أطرافها هامشٌ مشترك متفق عليه، وبمنظمة تحرير فعالة ممثلة حقاً للجمهور بأطيافه المتعددة، قد ينفتح الأمل بصياغة سياسة فلسطينية صائبة، أي سياسة تجنّب الشعب الفلسطيني معاناة مزيد من الكوارث ، وتُبقي هذا الشعب على خط الكفاح الوطني في البرزخ الخطير الذي تعبره البشرية. وهذه هي السياسة اللازمة لكي ينتقل الشعب الفلسطيني إلى الطرف الاخر من البرزخ وهو محتفظ بما يهيؤه للاستفادة من المنجزات القادمة.وبهذه السياسة، بها وحدها، يستطيع الشعب الفلسطيني أن يسهم بدور فعال في رفد الحراك العربي الديمقراطي بالقدرات والخبرات الفلسطينية القديمة المتميزة في هذا المجال، كما يستطيع المساهمة في إلحاق الهزيمة بأعداء الديمقراطية. وبهذا وذاك، يستطيع هذا الشعب أن يُكَبّر حصته من المنجزات المتوقعة.

أهم بنود السياسة المطلوبة هو البند الذي يحدد طبيعة المرحلة والجهة التي سيصطفّ الشعب الفلسطيني مع أطرافها. أما طبيعة المرحلة فقد حددتها طبيعة الوضع، خصوصاً بعد أن اتضحت خطورة الوهم بشأن المزج بين مرحلتي التحرر من الإحتلال وبناء الدولة. فهي، إذاً، مرحلةُ التحرر

الوطني الذي لم يُنجز. وأما جهة الاصطفاف فتحددها طبيعة المرحلة، كما تحددها الملابسات كافة المتصلة بالقضية الفلسطينية ومسائل الصراع المديد مع الصهيونية ودولتها إسرائيل والدول الإمبريالية المساندة لهما والمستفيدة من سياستهما. وحين تقف الولايات المتحدة ولفيفها الإمبريالي جنباً إلى جنب مع إسرائيل فتحول دون تمتع الشعب الفلسطيني بحق تقرير المصير بحرية، يصير من المدهش ، بمقدار ما يمكن للخطأ الفادح أن يثير الدهشة، أن تُمالِيء قيادة م.ت.ف. حماة إسرائيل وأتباعهم العرب وأن تجافي في الوقت ذاته الأنظمة والقوى العربية وغير العربية التي تناوىء هؤلاء الحماة.

بكلمات أوضح: مطلوب من قيادة الشعب الفلسطيني، بما هي قيادة حركة تحرره الوطني، أن تُعامل أعداء تحرر شعبها بوصفهم أعداء لن يجديها أن تسترضيهم. ومطلوب من هذه القيادة أن تُعامل أتباع هؤلاء بما هم أتباع لا تجوز ممالأتهم. والمطلوب الأهم هو أن تُعامل القيادة الوطنية مناوئي الأعداء بما هم حلفاء خندق واحد لا تجوز مجافاتهم .

بكلمات أخرى أوضح، وبما يتصل بموضوع هذه الورقة: الحراك الديمقراطي العربي لا تجابهه أو تعاديه أنظمةُ الحكم التي يستهدفها، وحدها، بل يجابهه ويعاديه ويتكتل ضده تحالفٌ عريض تتصدره الدول الإمبريالية وأتباعها من الأنظمة والقوى العربية الرجعية ومعهم إسرائيل. وفي رأيي أن محاولات القيادة الفلسطينية استرضاء الدول الإمبريالية وممالأة أتباعها العرب ليست تغميساً خارج الطبق بل تغميساً في طبق طعامه مسموم. إن الوقوف في صف أعداء الديمقراطية المخادعين، الذين هم أعداء تطور بلداننا وشعوبنا، خطير، وهو أشد خطراً من الوقوف مع أنظمة الاستبداد التي استهدفها الحراك الديمقراطي حتى الآن .

ولا بأس في تكرار القول دون ملل: إن الحل العادل والممكن للقضية الفلسطينية هو الحل الذي يصون وجود الشعب الفلسطيني ويمكّنه من التمتع بحقوقه الوطنية كما صاغتها الشرعية الدولية في ظل التوازن الذي نشأ بعد الحرب العالمية الثانية بين القطبين الإمبريالي والإشتراكي. وهذا حل لن يتحقق ما دامت الإمبريالية هي المهيمنة عالمياً. وهو حل لن يتحقق في أي حال من الأحوال إلا باتباع أصحابه سياسة متصادمة مع هذه الإمبريالية. وكل حكي على حل خارج هذا السياق لن يكون، وذلك في أحسن حالاته، سوى رغو كلام. وعلى هذا فإن م.ت.ف. قد تصير أي شيء، وقد تصير حتى لا شيء، لكنها لن تظل حركة تحرر وطني ولن توقف حلول الكوارث بشعبها ما لم تصطفّ مع

القوى الإقليمية والعالمية، الشعبية والرسمية، التي تتصدى لمقاومة شرور العولمة الإمبريالية. ولن يُفلح الفلسطينيون، أيّ فلسطينيين، ما لم يربطوا العمل الوطني بالمجرى التقدمي لتطور البشرية، المجرى الذي يُجابه أشكال الإستبداد والظلم والهيمنة والتسلط ونهب ثروات الشعوب وتوهين قوة أوطانها، كلّها.

أفليس هذا طريقاً طويلاً؟ بلى إنه طويل، بل إنه طويل جداً، وإن السير عليه شاقّ، لكنه الطريق الوحيد الماثل في مجال الرؤية، وهو، على كل حال، أفضل من الطرق التي لا تُفضي إلا إلى الضياع وتبديد قوة الشعب دون طائل.

© من أرشيف رواق مركز المعمار الشعبي

أوراق ثقافية

وحيد أنا، أيها الحب
قصائد مختارة للشاعر الكولومبي خوان مانويل روكا*

ترجمة وليد السويركي*

فنّ الوقت

يظلّ الوقت حبيساً بين الكتب،

وبمعجزة هذا الأسر،

يواصل هيراقليطس الاستحمام في النهر ذاته؛

في الصفحة ذاتها،

أمّا أنتِ،

فستظلّين عاريةً للأبد؛ في قصيدتي.

أغنية صانع المرايا

للرعب أضيف رعباً أكبر

وجمالاً أكبر للجمال.

---

* كاتب ومترجم

التقطُ من الشارع قمر الزئبق:

فتنعكس السماء في المرآة وتتراقص السطوح مثل لوحة لشاغال

وحين تدخل المرآة بيتاً آخر، ستمحو الوجوه الأليفة؛

ولأنّ المرايا لا تبوح بماضيها،فلن تشي بسكانّها السابقين

بعض الناس يبني سجوناً؛فيصنع للأقفاص القضبانَ،

أمّا أنا ، فأصنع المرايا:

للرعب أضيف رعباً أكبر

وجمالاً أكبر للجمال.

عدْو

كان لديّ حصان. كان له عُرفٌ كثيف الشَّعر،

وفي الليل، وعينان نهاريتان ..

كان لديّ حصان، قبل أن أسمّيه مرآةً

في بيتِ أعمى.

كنّا نجوب بلاداً سريّةً، مدناً هاربةً من مقدم الصيف،

أزهاراً جلديّةً في الوادي المعتم؛و لياليَ بقوارب مثقلةً بالصّمت.

كان لديّ حصان، قبل الغناء أمام الصمّ، قبل الحديث عن الوطن مع المنفيّ،

لم أكن قد غنيّت أغنية منتصف الليل بعدُ،

معه ذرعتُ باحات الفجر البيضاء، مصغياً لقدّاس الماء،

وما زلت أخلط ،حتّى اللحظةِ، بين عدْوه والنبض في صدري.

أيّام كالإبَر

وحيدٌ أنا، أيّها الحب!

حدّ أنّه لا يصعد إلى غرفتي ،خطوةً بعد خطوة،

سوى

السلّم الآيل للسقوط .

العجائز

شبه نائمِين،

في مواجهة شمس الجنون الجارحة،

يصغون لوردة صمتهم تكبر،

وينامون موتهم :

طائر الذكرى الأعمى

الذي يدقّ جدران الحلم.

يوميات الليل

إلى مارغريتا كاردونا

آن يتسلّل الحلمُ

مثل لصّ عبر دروب من صوف،

يشرب الشعراء ماء هامساً

فيما يتحدّثون عن العتمة؛

عن العصر المظلم الذي يحيط بنا.

وساعة يلفح القطارُ القمرَ،

يستسلم ملاكُ بيت الهوى لمصيره،

فتعزف الفرقة لحناً شاكياً،

و يغوص في الليل مهرٌ بلون المرايا

هازّاً ذيله النيزكيّ،

أيّ فارس لامرئيٍّ يمتطيه؟

رسائل الغرقى

في الغرفة الصغيرة،حيث أحيا مثل يونس في بطن الحوت،

يخطر لي: ربّما كانت القصائد رسائل يبعث بها غريق؛

زجاجات محمّلة بصرخاتٍ كتبت بركاكة،

علّها تمضي من بحور الصمت إلى شواطىء النسيان،

ها أنا أرمي بزجاجة، ثمّ بأخرى،

وأُتبعها أخرى مسكونةً بمخاوفي؛

في الغرفة الصغيرة ،حيث أحيا مثل يونس في بطن الحوت،

لم يبق إلّا القليل من رسائل الغرقى.

فنّ الخدمة

لنقص السّهام،

كان الشحاذّون يرمون النبلاء بجروحهم،

ولكن كان ثمّة جنس آخر من المتسوّلين،

أشدّ بؤساً، يسرق جروح الأخرين

ويبيعها في ساحة السوق؛

بأسلحةٍ جدّ بدائيّةٍ ،

اجتاز الفقراءُ ليل القرون الوسطى.

سيرة لا أحد

يستحق الذكر مجدُ " لا أحد": فلا أسلاف له تحت الشمس، أو تحت المطر،

لا جذور له في الشرق أو في الغرب، هو ابن "لا أحد"؛ وحفيد "لا أحد"، ووالد "لا أحد"؛

قنصلُ النسيان الصغيرُ.

هل ترون تلك البقعة الخالية في صورة العائلة؛ ذلك الفراغ بين الأقارب المبجّلين؟ إنّه «لاأحد"، بلا سلفٍ أو خلف.

يستحقّ مجدُ "لا أحد" الذّكر قبل أول صبح في التاريخ؛ فهو رائد البشر الذين باتوا اليوم عشباً ، ورائد آباءِ الآباء الذين باتوا شمعاً بلا ذبالة،

فلنحتفل ،إذن، ب"لا أحد" الذي يجعلنا نظنّ أنّنا أحد! .

هجائية السلطة

بتيجان من ثلج

يعبر الملوك تحت الشمس.

أمثولة الفراغ

في الكنيسة الصغيرة المعتمة،

وبين روائح الشموع وقطعة من الأبدية،

طلب الواعظ من المؤمنين

أن يضعوا في سلّة الصدقات ما فاض عن حاجتهم؛

فملأوها بالفراغ.

الملاك المحاصر

في شوارع المدينة، كان يسكن قلبي المخطوف. كنت أرى رجالاً يعتمرون القبّعات، رجالاً صاخبين يدخلون ويخرجون من بيوت الهوى والقمار. شيئاً فشيئاً ، فقدت براءتي، وفقدت مع جناحيّ جنون السفر. لست على يقين، لكنّي أظنّه زبّال الحي من قال لي ذات ليلة إنّه عثر ،وسط الذباب الميت وإبر الحقن المستعملة، على ابتسامتي . البراءة ، مثل محطة قطار كنستها الريح مضت، ومعها جناحاي. في شوارع المدينة، كان يسكن قلبي، ملاكاً محاصراً لا يودّ أن يرى الجنّة ثانيةً.

فنّ العمى

١

من الشرفة، آن تتقصّى الشمس مناقيرَ طيورٍ زرق، كنّا أنا وأميّ نشاهد فناء بيت العميان.

٢

كان الأطفال العميان يستبدلون علبة من حديد أبيض بالكرة، ويلعبون بالصّوت. حين يتدحرج الصوت في مكان من الفناء، كانوا يطاردونه ويركلونه راكضين بين الظّلال.

٣

أنا وأمّي على الشرفة.في الأسفل،كان ملائكة العتمة يجرون كالمجانين خلف الصوت.كان بيتنا قفصاً، وكانت أمّي تتجوّل في الغرف وتنظّف العيون في صور موتاها ، فيما أنا أصغي لتسلّل الظلال إلى البيت.

٤

وسط الأشجار التي ترفع أزهارها المعتمة ،كان البيت يحمينا في المساءات العاصفة. في الليل ،مرتاحاً في حضن الحلم،

كنت أطارد ،كأعمى، خرير ماء تلك المرأة المجهولة.

٥

كنت أَنشُد الغريبة،دون أن يخطر لي أنّنا كلنا غرباء في الحلم. وكنت أتجوّل معتمراً قبعة بأجراسٍ، في حدائق مطيرةٍ، مصغياً لسقف أسطبل متململٍ ، أو لصوت أناجيل في الغرفة المجاورة.

٦

كان الليل يصنع لي وشما.

أمثولة العزلة

حين كانت عزلتي تنشطر، وتُسقط عنها قناع الوجه ،

كنت أصحبها في جولة على الشاطىء؛

وكثيراً ما دعوتها للرقص أو إلى مجمع العزلات العظيم

الذي يهرع إلى ملاعب الكرة.

ولكي لا آراها في حالتها الرثّة، اصطحبتها مرّة إلى الخيّاط.

وسط الأطقم الفارغة، بسط الخيّاط، بفمه المملوء بالدبابيس كدمية فودو،

قماشاً أسودعلى طاولته،

آخذ قياسات العزلة الشرسة، ورسم قالبها بالطبشور،

كانت بمقاس ظلّي تماما.

مكتبة العميان

باستغراقٍ، على طاولاتهم التي من خشب الماهاغوني،
يتصفّح بعض العميان الكتب، كما لو أنهم يعزفون البيانو؛
الكتب البيضاء التي تصف أزهار برايل نائيةَ العطرِ،
والليل الملموس الذي يداعب أصابعم عرفُ مهرٍ
وسط القصب.
كلمات متفرّقة تنفذ عبر أيديهم
في رحلةٍ عذبةٍ صوب الأُذن،
منكبّين على ثلج الورق، كمن يسمع الصمت يعدو
أو كمن يطلّ على الدهشة، يداعبون الكلمة كآلة موسيقية.
يهبط الليل في الجانب الآخر من المرآة،
وفي المكتبة التي يسودها السكون، تحمل خطى الليل همس الأساطير،
الهمس الذي يبلغ ضفتّي الكتاب،
وإذ يعودون من دهشتهم، تواصل الكلمات نبضها في الأصابع الذاكرة.

دعاء الكلمة

قد تأتي متوّجة بالفواكهة المجفّفةِ،
قد تكون الممرّضة التي التقيناها في الحربِ،
ندعوها بشفاهنا المشروخة، بأصوات مجروحةٍ و بيارق مرتّقة؛
قد يحدث أن تكون صمّاء مثل ديْر، فلا ينفع الكهنةَوالشّحاذينَ تضرّعهم إليها،
كما لا تجدي الخطابات التي تسمّيها، أكانت مدائح أم أهاجي.

ربّما كنتم تقرأون كتاباً لا ينتهي أو تهدهدون سُكْركُم وسط القشّ في هُريٍ من الأهراء.
المسيحيّون والموريسكيّون يبتهلون إليها كلّ يوم، و المعذّبون يمدّون لها حبلاً بين الفراغ والعدم،
فماذا لو كانت قطعةَ النقد التي داسها القطار، أو المفتاحَ الذي لاباب له وقد رمي في البحر،
أو رسالة الغريق في زجاجةٍ تحطّمت على السدّ؛
ربّما شاخت وباتت تهذي في أحد الأديرة، ربما فقدت الذاكرة ونسيت حروف اسمها التسعة؛
ربّما مزّقت الخارطة ، ولم تعد تعرف درب العودة،
أو أنّها شربت ،ملء الدلاء، حليبَ النسيان المرَّ،
وربّما تظهر على متن قارب ، حين لا يعود أحد في انتظارها،
ملفوفةبالضمادات، ومتّخذة مجدافيها عكّازين،
تلك الصمّاء : (كلمة) الأمل البائسة.

اعترافات البطل-الضدّ

لم أنجحْ قطّ في الوصول إلى أيّ مكان،
وحين كان المسافرون ذوو الشأن يغرقون في صمت عميق،
وهم يتأملّون الأرض كقرية ضائعة،
كنت أتأملّ ،في عتمة الخزائن، أقماراً صغيرة من النفتالين.
كان كثير من المتلهّفين يسقطون في المعركة، فيما أنا أُذلّ في المكاتب المظلمة؛
وكان مخترعوا آلة الأحلام يتناولون العشاء مع نساءِ أجمل من أنفسهن،
فيما تُقدّم لي حصّتي من الْيُتم، تحت سقوف يتساقط منها فوق الشراشف فتات الجبص.
لم أنجحْ قطّ في أن أذهب أبعد من زاوية الشارع،
لم أكن الملاكم الذي يبتسم للعتمة، عندما ينادي آخر جرس ،في مذبح الحلبة المربّعة، إلى الصلاة.

لم أملك الشجاعة الكافية لأطلق النار على الطاغية،

لم أمتط من غير سرج حصان الحرب الجموح،

ولم أعبر حقل الألغام لأنقذ قريةً ما،

لقد وهبت نفسي لمضغ خبز الهزائم كلّها، ذاك الذي بلا خميرة،

وفي بعض الليالي، وفيما أستمع لأغنية عن رحلات بعيدة ،

أتساءل: أين صاروا يا ترى، أولئك الذين بدّلوا جلودهم

أو بلادهم؟

*يعدّ خوان مانويل روكا المولود عام ١٩٤٦ واحداً من أبرز الأسماء الشعرية في كولومبيا وأمريكا اللاتينية، ترجمت أشعاره إلى لغات عدّة وحاز الكثير من الجوائز ومن بينها الجائزة الوطنية في القصة ١٩٩٣ وفي الشعر٢٠٠٤ وجائزتين على مستوى القارّة: فيكتور ساندوفال ،وخوسيه لثاما ليما في العام ٢٠٠٧، كما حصل على دكتوراة فخرية في الآداب من جامعة فاللي . لقد نجحّ" الهارب مبّكراً من الأكاديميا" كما يحلو له أن يقول(درس الفلسفة لثلاثة شهور فقط في الجامعة) في أن يحفر لنفسة مكانة أدبية رفيعة بفعل مواهبه الكتابية المتعددة، فهو شاعر وقاصّ وناقد وصحافي لامع. يرى روكا أن الشعر يستعيد أهميّته وبريقه ويصبح ضرباً من المقاومة الروحية، بعيداً عن الشعارات وزعيق الإيديولوجيا، في فترات الأزمات والكوارث التاريخية كالتي عاشتها كولومبيا خلال العقود الأخيرة(لأنّ الفن مثل إله اليهود ، يقتات على المحارق" كما يقول مستشهدا بعبارة فلوبير). ففي هذه الفترات يُطرح بقوة سؤال اللغة وأزمتها، إذ "ما جدوى كلمة " الخبز" إن كانت لا تطعم أحداً، ومامعنى كلمة الحريّة ، في فم سجين؟". وهنا، يلجأ الشعر إلى المفارقة والسخرية والدعابة السوداء لمقاومة الواقع العنيف المرعب وتجاوزه. من أعماله : ذاكرة الماء ١٩٧٣، قمر العميان ١٩٩٠، مونولوجات ١٩٩٤ ، فرضيّات" لا أحد" ٢٠٠٥، انجيل الفقراء٢٠٠٩، و لصوص الليل ٢٠١٠.

لا يشبهن الأميرات بشيء

أسماء عزايزة

لم أجد الأميرات اللواتي جلسن على طريق الطنطورة
الأميرات وجبة التنين وقرابين الربّ
نساءٌ أخريات يجلسن الآن هناك
تلفُّ أعناقهن حبالٌ وتلدغ أرغفة أفرانهن العقارب
لا يشبهن الأميرات بشيء
سوى أنهن
سيغبن طويلا في بطن البحر
بعد أن يركبن السفينة إلى مخيم البداوي.

***

من الصحراء إلى القدس
من مكة إلى الماء

من الصخر إلى الصخر

جئت مع عمي كنعان من الخليج
إلى البحر دون دمٍ أو معجزة
آويت الى مضجعي الذي من زجاج ومن خزف ينعم
ندرتي أسطولي وأحصنتي لبحري وفلاح في الشمال
وسلّمت خضرتي لابن سلوان الذي استلم
أمر إخلاء بيته للتو.

من الخليج إلى البحر
من اللات إلى الخضر
من الصخر إلى الصخر

لم يعرج بي إلى السماء
ولم أفاوض أحدًا على قلب أمة
سأتفيأ عند جدران البيوت
وأحرسها من زوار النبي يعقوب في سلوان
ومن قرابينهم المدماة في مغره.

***

لم أشهد على عرش قسطنطينة

ولم أزوج أحدًا لابنته المدللة

كما لم أدل أحدًا على ذهب لقاء خاتمها

لقد كنت مشغولا ببنات النجب

اللاتي سدّ قلوبهن القيظ

وجففت شفاههن رياح الخماسين

لم أرشد أحدًا على مكان الصليب

رشوة لزواج أو مجد

كنت أرشدهن إلى

عاطفتهن الآمنة

وشهواتهن الآمنة

وأرضهن الجافة الآمنة في العراقيب وتل الملح

وأهدهدهن:

"أحلفكن يا بنات النجب بالرمال وأفراس الصحراء

ألا توقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء"..

***

حيثما أطلَّ رأس الظاهر

إلى الميناء

حيثما أراح القوافلَ من العطش

سيطلُّ بعد قليلٍ

رأس الحارس الذي يأكل كُتب التاريخ

وقرونها المملَّحة

وذكريات العم جورج وصنارته الماهرة

لا أحد ينتظر الآن ظمأها

في خان الجزّار

المملوك سقط عن سوره

الروماني أحرق نفسه بالماء

السلطان اختنق بحجارة قصره

والكنعاني قتله الرمل الحار وهو يصرخ: "عكو.. عكو"

الحارس الذي سرق صرخته

يرمي القوافل إلى البحر

بسفن لتصدير الحمُّص

ويأكل الآن ما تبقى منه

عند مرابط خيولها.

***

عالِمُ الآثار الذي

يقشِّر الآن سور عكا

ليدرس طبيعة الحجر

هو نفسه الذي

ينقب الآن عن آثاري على الحاجز

حاجز قلنديا

ما أشبهك

بمقصلة محمد جمجوم.

***

الغزاة الذين شقوا طريقًا في البحر يومًا

فعلوا كذا من قبل في اليابسة

من عتسيون في ميناء الجنوب

إلى شمال الروح

شقوا طريقًا، وسبقتهم النار، وطاردهم أبطال المجازر

وشبح عمي كنعان.

أنا الذي شاهدت الطريق

وهو يسدّه جير عظام ضلوعٍ حارسة

قلوب في آوشفيتس

وجرف الدموع التي ذرفت عليها حين لم تحرس

وعباءة بحجم مدينة لجنرال انتحر كي يخلده تمثال من حجر

قبل قليل، شقوا طريق ٦

كانت ماكنات تجرف الجير وزرع فلاح من البطوف

تحفر الأنفاق ومعها مجلس بدوي في حي سركيس

تعبد الشارع من حصى بيت هدم في وادي عارة

وأنا أدفع أجرتها

وأرضى بذلك إن كان طريق ٦

سيكون طريق عودتهم من ميناء عتسيون

بورخيس .. الشرق في جدول أعمال غربي

غدير أبو سنينة

كغيره من الشخصيات العامة واكب الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس الكثير من الأحداث السياسية التي مرت ببلاده وبالعالم وكان عليه وهو الذي يقطن عالما آخر يسكنه الإبداع والخيال والأدب أن يطل –شاء أو أبى- على عوالم أخرى لن تعبر فضاءاتها لا عن الأفكار ولا عن العواطف التي صدّرها بورخيس في أعماله.

لم يكتب بورخيس في حياته نظريات سياسية وهو الذي يحفل رصيده بعدد كبير من المقالات والقصص والقصائد التي تحوي معان أخلاقية عميقة جعلته متميزا عن غيره من الأدباء.

ولد بورخيس لعائلة ميسورة الحال، وقد قضى شيئا من طفولته وشبابه في جنيف، المدينة التي تلقى بها تعليمه الجامعي قبل أن يعود للأرجنتين وينخرط بالنشاط الأدبي.

إذن فقد كان بورخيس ينتمي للطبقة النبيلة في الأرجنتين كما كان متعلقا جدا بأسلافه ومآثرهم. وربما لهذا السبب يفسر النقاد مواقف وتصريحات بورخيس السياسية بأن الكاتب الذي رشح لجائزة نوبل عاش حياة اجتماعية سهلة بعيداعن أي نوع من المعاناة والاضطهاد الأمر الذي جعل نظرته السياسية قاصرة.

بورخيس الذي قال يوما إن الأوروبيين يتمتعون بالذكاء لأنهم لم يمنحوه جائزة نوبل، لم تكن السياسة أولى اهتماماته رغم أن مقالته الأولى كانت عن سيرة بيو باروخا الذي صفق لمواجهته مع القومية الباسكية الوليدة في ذلك الحين.

لم يتمتع بورخيس بقدر من الحنكة السياسية ولم يعين في أي منصب سياسي لكنه وجد نفسه يقف مع اتجاهات ضد أخرى متكئا في معظم الأحيان على شعوره كما يبدو من تصريحاته المختلفة. ويبدو أنه بتلك التصريحات لم يكن يهدف للوصول لأي مركز اجتماعي أو سياسي وهو المعروف بابتعاده كل البعد عن الوصولية والانتهازية ولأن الكثيرين يعزونها لما سموه (غباء بورخيس السياسي)، لم تستمر تلك الهجمات على رأيه إلا في وقتها ثم تبددت شيئا فشيئا بسبب حجم وأهمية أعماله التي ودون أدنى شك تطغى على أهمية آرائه تلك.

مغازلة الفاشية العسكرية في تشيلي:

في الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٦، وبعد يوم واحد من مقتل وزير الخارجية التشيلي الأسبق أورلاندو ليترلير في واشنطن، في يوم الأربعاء ذاك، وحيث قامت الدنيا ولم تقعد في تشيلي، وصل خورخي لويس بورخيس لمبنى دييغو بورتالس ليجتمع بالجنرال بينوتشيه.

امتد اللقاء لساعة وأتبعه اجتماع آخر قصير مع الجنرال لي في ذات المبنى لكن هذا الاجتماع نسي بسرعة وكان التركيز الأكبر على اجتماعه مع بينوتشيه.

لم يعلم أحد ماحدث في ذلك الاجتماع المغلق وبقي كل ما قيل به في غرفة مغلقة ولم يخرج للعلن سوى صورة بينوتشيه بزيه العسكري وهو يصافح الأديب الأرجنتيني.

كان بورخيس حينها يبلغ السابعة والسبعين من العمر، وكان شبه أعمى لكن وجهه الباسم في الصورة كانت تبدو عليه آثار الارتياح والانبساط وهو يمد يده مصافحا الطاغية التشيلي وقد عبر عن ذلك في اجابته للصحافيين حال خروجه بقوله "راض جدا".

يقول ناقدون إن هذا التصريح قد يكون ضمن ما قاله بورخيس لبينوتشه أما ما قال بينوتشه لبورخيس فسيبقى أمرا غامضا صعب التقدير، فالجنرال لم يكن شخصا بليغا، ولم يعرف بثقافته الواسعة بل كان سياسيا يهاجم اليسار ولذلك من المستبعد أن يكون الاجتماع قد تحدث عن

الأدب بشكل عام أو عن أعمال بورخيس بصفة خاصة.

أحد المسؤولين في مبنى دييغو بورتاليس علق فيما بعد على ذلك الاجتماع بأن بينوتشيه لم يكن على اطلاع على أعمال الكاتب الأرجنتيني، بل كان مهتما بتاريخه الذي مر به عسكريون من أسلافه الذين شاركوا في حربي الاستقلال بتشيلي والأرجنتين.

ومهما كان موضوع الحديث الذي دار بينهما، فقد كانت أهمية زيارة بورخيس لبينوتشيه هو التأثير الإعلامي الكبير لصالح الديكتاتورية.

يفسر الكثيرون عدم منح نوبل للكاتب الأرجنتيني بسبب موقفه ذاك فقد تلقى هجوما واسعا لما اعتبر مساندة للديكتاتورية، وما كانت الأكاديمية السويدية لتنسى اجتماع مرشحها بأحد الطغاة في العالم والذي وصفه بورخيس بأنه "كاتب ممتاز" وأضاف "إنني شخص شديد الخجل، لكن بينوتشيه عمل جاهدا كي يتبدد خجلي، وبسهولة تم الأمر..هنا وفي وطني وفي الأوروغواي تُنقذ الحرية والنظام، وخصوصا في قارة تعيش في فوضى بتأثير من الشيوعية... أعبر عن رضاي كأرجنتيني بمجاورة بلد يسود فيها النظام والسلام لا فوضى فيها ولا شيوعية".

لقد كانت تلك الزيارة تشكل غطاء شرعيا وثقافيا للحكم الديكتاتوري العسكري الذي دأب على انتهاك حقوق الإنسان، فبورخيس بزيارته تلك أسهم في دعمه بصوته.

من زاوية أخرى يرى آخرون أن بينوتشيه الذي كان عسكريا فذا كان قد أصدر كتابا في وقت سابق قبل أن تسرقه السياسة تماما، ولربما أحس حينها بمساواته (على المستوى الثقافي) بشخصية (أدبية) مثله تقف أمامه هي شخصية الأديب بورخيس. أما بالنسبة للأخير فلربما أرجع وجود كتاب في مسيرة بينوتشيه لثقافة الأخير التي رأى بورخيس أنها تبرير كاف ليجتمع برجل (مثقف) يحمي البلاد من فوضى الشيوعية.

بعد ثلاثة أيام من وصوله تشيلي اجتمع مع الكاتبة التشيلية ماريا لويسا بومبال خلال مؤتمر صحافي عبر فيه بصراحة عن تعاطفه مع النظام العسكري في تشيلي حينما أعلن "أدافع عنه لأنني عاطفيا أشعر أن علي ذلك. ربما عواطفي هناك تحدثت أكثر مني. إنني أدافع عنه لأسباب عاطفية قبل أي شيء فأنا عدو للشيوعية. أظن أن هذا ليس بالأمر الغامض. ولا أستطيع إخفاءه. لطالما تأثرت بتشيلي ويبدو لي لو تم إنقاذ تشيلي فهذا يعني إنقاذنا. إننا بحاجة لضمانة، أنا

كأرجنتيني بحاجة لضمانة".

المفقودون في الأرجنتين ليسوا بريئين تماما:

في العام ١٩٨٠، وهو عام شكل نقطة تحول في التاريخ الأرجنتيني. نشرت في الخامس عشر من مايو من ذلك العام في صحيفة كلارين آخر قصة من قصص بورخيس بعنوان "ذاكرة شكسبير". وبطلب من أمهات وجدّات "بلاسا دي مايو(١) كتب في ذات الصحيفة وفي ذات العام "مناشدة من أجل المفقودين". هؤلاء المفقودين الذين فقدت عائلاتهم أخبارهم، كان لبورخيس الأديب والإنسان أن يتعاطف معهم، لكن اللهجة التي كتب بها استرحامه ربما لم تكن بتلك الحدة التي تنتظرها تلك الأمهات اللاتي لم يتوقفن عن الاعتصام من أجل أبنائهن إذ قال "في مساء يوم ما زارني في بيتي أمهات وجدات "بلاسا دي مايو" يروين لي ما حدث. بعض النساء بكين بطريقة تمثيلية، لكنني شعرت أن الكثيرات منهن بَكيْن بصدق، لأن الواحد منا يستطيع أن يشعر بالحقيقة. كم أنهن مسكينات وبائسات!. لكن هذا لا يعني أن أبناءهن كانوا أبرياء دوما. لا يهم. فكل متهم من حقه أن يحاكم... عندما تعمقت أكثر بأمر هؤلاء المفقودين شعرت بسوء فظيع. قيل لي إن أحد الجنرالات صرح بأن من بين مائة شخص مخطوف خمسة مذنبون، لقد بُرِّر قتل الخمسة وتسعون الباقون. هل عليه أن يقدم نفسه للخطف والتعذيب والموت كي يثبت صحة هذه النظرية؟ حرب العصابات والإرهاب موجودان بالطبع لكن ليس هما النموذجان المحبذان بالطبع".

كما رأينا سابقا فقد كان شعور بورخيس هو ما يحمله على الإدلاء بأفكاره السياسية ولذا سنتفهم اتهامه من قبل كثيرين بالجهل السياسي ليس فقط بسبب وقوفه مع بينوتشيه بل حتى في استرحامه لحل مشكلة المفقودين بدأ أول الأمر بالتشكيك بصدق بعض الأمهات وإلقاء اللوم على الأبناء الذين هم مذنبون برأيه، وفي حديثه عن الجنرال الذي عرض عليه أن يجرب ما يفعل بالآخرين، أظهر تناقضا حينما قال إن هناك ٩٥ بريئاً، إذ كان الأجدر به أن يدافع عن تلك النسبة الكبيرة قبل أن يؤكد أن هناك خمسة مذنبين، مع العلم أن معظم المفقودين كانوا يختطفون لأسباب تتعلق بآرائهم ونشاطهم السياسي.

ما قام به بورخيس بمناشدته تلك ومع أنه يحمل في طياته نفسا تعاطفيا قرر أن يبرر له حين وضح إن تعاطفه ناتج من دموع النساء وتابع القول إن من حقهم أن يكون لهم محام أي أنه ليس ضد اعتقالهم بالأساس. بورخيس أراد في ذلك أن يمسك العصا من المنتصف فأبدى تعاطفه المنطقي مع المفقودين لكنه لم يتخذ موقفا صارما ضد الديكتاتورية.

الشرق الذي سحر بورخيس:

شعر بورخيس منذ شبابه بالحاجة للتعرف أكثر على الآداب، ونشأة الأديان وطرق التفكير وكان فضوليا لمعرفة حضارات الهند والصين واليابان ولمعتنقي الإسلام فيها أو لمن مارس النظام المعقد في تبرير وتفسير العالم المختزل في (الكابالا). سافر بورخيس في عدة مدن في الشرق كما قال "زرت طرفي الشرق، مصر واليابان، لكنني أريد أن أعرف الصين والهند وبلاد فارس أيضا".

قرأ بورخيس العديد من الكتب عن الشرق. وقد عبر بورخيس لزوجته ماريا كوداما أنه كان يرغب بدراسة اليابانية التي بدا متأثرا بثقافتها حين كتب قصائد هايكو. بحثت له كوداما عن مدرس ياباني لكنها لم تجد في سويسرا معلما لتلك اللغة فاقترحت عليه أن يدرس العربية كبديل وقد راقت الفكرة لصاحب "ألف ليلة وليلة" راقت له الفكرة وقال لزوجته أن تتصل به فورا وبدأ بتلقي الدروس بالعربية من قبل مدرس مصري كان قد قرأ أعماله بالعربية والإنجليزية، واستمر بذلك حتى وفاته.

يرى البعض أن بورخيس قرأ الشرق بعين الغرب؛ فبورخيس لم يتخل عن عقليته الغربية وهو يحاول التعرف على الآخر. كثيرون قالو إن بورخيس حلم بثقافة الشرق من جدول أعمال غربي. درس بكثير من المنهجية الفكر الشرقي مؤكدا على فكره الغربي لكنه عمل على التفتيش على الأطر الرمزية للشرق والغرب كي يحصل على العقد المتشابكة التي تجمعهما.

إسرائيل أرض الحليب والعسل:

كل ما سبق يجعلنا لا نستغرب أن يتعاطف بورخيس مع إسرائيل. هذا التعاطف الذي انبثق أولا من حبه للثقافة اليهودية التي تعرف على كثير من أقطابها كالأديب اليهودي كاسينوس

أسينس الذي اعتبره معلمه الأول وكتب فيه قصيدته:

" شرب كمن يشرب نبيذا معتقا

المزامير وأناشيد الكتاب المقدس

وشعر أنه امتلك تلك الحلاوة

وشعر أن ذلك قدره".

صرح بورخيس في أكثر من مناسبة أنه يظن أن دما يهوديا يجري في عروقه بسبب وجود أسماء يهودية في شجرة عائلته كاسم أسفيديو. وقد تأثر بورخيس بالدماء الأوروبية من جهة أمه التي تنتمي لأصول إسبانية وبرتغالية وبريطانية إضافة لإقامته في جنيف فيما يؤكد الباحثون كالباحثة إدنا آيزينبيرج أن بورخيس كان أرجنتينيا ولم يكن يهوديا استخدم البوابة السفاردية للدخول إلى الثقافة اليهودية، حتى أنه انتمى لمركز الدراسات السفاردية عام ١٩٦٥.

أما برناندو إزيكيل كورومبلت فقد نقل عن بورخيس قوله: "أحد أسباب سعادتي أن أفكر أنه بامكاني الانتماء لشعب موسى بن ميمون، لشعب إيهوذا هاليفي والسفيروت".

"إلى إسرائيل" كانت قصيدته التي أهداها لذلك الكيان الغاشم عام ١٩٦٧:

"من سيخبرني إن كنت تجرين

في متاهة أنهار دمي الضائعة منذ قرون

يا إسرائيل؟

في أي الأماكن طافت دماؤنا؟

لا يهم، أعلم أنك:

في الكتاب المقدس المطوق للزمن

في تاريخ آدم الأحمر

وفي ذاكرة وعذاب المصلوب.

في هذا الكتاب أنت،

مرآة تُرى فيها:

الوجوهُ المنحنيةُ على نفسها

ووجه الرب الكريستالي القاسي

حيث الفزع في الثنايا.

بوركت يا إسرائيل، لتحمي جدار الرب

في قلب المعركة".

تأثر بورخيس بالصوفية الإسلامية في أعماله كالألف وغيرها لكنه عرف بتأثره أيضا بالكابالا وهي الصوفية اليهودية التي عمقت علاقة بورخيس باليهودية. وقد قال إن أيا منا ينتمي لحضارتين هما اليهودية واليونانية ولذلك فأعماله تتضمن الأحداث والأمثال التوراتية وهذا ليس بالأمر الغريب فالأدب الغربي بشكل عام متأثر بكتب وثقافة العهدين القديم والجديد.

يرى بورخيس كما الكابالا أن للكلمة والحرف معنى خفيًّاً، وهما يتمتعان بذات قداسة الكتاب. وهذا تماماً ما طبَّقه الكباليون على دراسة الكتابة؛ إذ تتنزل -بحسب اعتقادهم- الروح القدس على الأدب فيُنتج كتابا بعيدا عن الصّدفة. إنهم ينطلقون من قاعدة أن الكتابة نصٌّ مطلق، وفي النص المطلق لا يُمكن لشيءٍ أن يكون عملاً خاضعاً للصُّدفة.

أعمال بورخيس كانت تحاول أن تتقرب لسر الخلق الكوني الذي يشكل للكابالا الغائية النهائية. لكن بالنسبة لبورخيس فقد رأى أن المتعة تكمن في استحالة تحقيق تلك المحاولة. وقد اعتقد أن الكابالين لم يكتبوا كي يُسهِّلوا الحقيقة بل كي يُلمِحوا إليها ويُحَفِّزوا بحثهم.

أما انحيازه الكامل لإسرائيل فقد عبر عنه بورخيس بقوله "... بدون اسرائيل فإن التاريخ سيبدو غريبا. إسرائيل ليست فقط فكرة مهمة للحضارة، بل هي فكرة لا غنى عنها، لا يمكن تخيل الثقافة دون إسرائيل".

لقد سمّى إسرائيل بأرض الحليب والعسل وبالأمة الشابة التي تستحق أن تثير قلقه إذا ما دخلت في حرب كما حدث عام ١٩٦٧.

منحت إسرائيل عام ١٩٧١ بورخيس جائزة القدس التي تعد أعلى تكريم تمنحه الدولة، الأمر

الذي ثمنه بورخيس كثيرا فهو يحب القدس التي قال عنها "لا توجد مدينة في العالم بأسره يتوق المرء إليها كالقدس. إنها الكأس التي تنسكب وتتراكم فيها الأحلام والتهجدات والصلوات ودموع من لم يرها أبدا لكنه شعر بجوع وعطش نحوها".

وقد ظهر "خوفه" على هذه "الأمة الشابة" في قصيدته التي كتبها عام ١٩٦٩:

خشيت على إسرائيل

من هذا الحنين المتربص بعذوبة ماكرة

المتراكم ككنز حزين منذ قرون الشتات:

في مدن الجحيم، في الأحياء اليهودية،

في نهايات السهوب، في الأحلام،

حنين أؤلئك الذين يتوقون إليك يا قدس،

بجانب مياه بابل،

ماذا كنت غير هذا الحنين يا إسرائيل؟

غير تلك الرغبة في النجاة من تقلبات الزمن؟

غير كتابك القديم الساحر

غير صلواتك وعزلتك مع الرب؟

ليس الأمر هكذا.

فأقدم الأمم هي أكثرها شبابا،

لم تُغرِها أسماء الجنائن،

ولا الذهب وضجره

بل باصرار كانت: وطنا أخيرا.

قالتها إسرائيل دون كلمات:

ستنسين من أنتِ

ستنسين الآخر الذي تركتِهِ

ستنسين من كنتِ في البلاد

التي منحتكِ مساءاتها وصباحاتها

والتي لم تمنحيها حنينك

ستنسين لغة آبائك وتتعلمين لغة الفردوس

ستكونين إسرائيل، ستكونين جنديا

ستبنين مستنقعات الوطن، ستعمّرين صحاريه.

سيكون أخوك الذي لم تري وجهه قط

بجانبك

فقط نعدك بأمر واحد

أن يكون لك مكان في المعركة.

أمهات بلاسا دي مايو: هي حركة بدأت عام ١٩٧٧ بتجمع ١٤ أماً في ساحة "ميدان مايو" أمام قصر الرئاسة ليطالبن بمعرفة مصير أبنائهنَّ المختفين، ولأنهن مجرد مجموعة من الأمهات المسالمات فقد تركهن العسكر، إلا أن الحركة اتخذت في الاتساع وفي اكتساب الشعبية حتي أصبحت هي الحركة السياسية والمعارضة الوحيدة، التي لم يستطع النظام قمعها يوما. فهي منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم تواصل التجمهر في ساحة الميدان من خلال آلاف الأمهات كل يوم خميس، واللاتي لم يتخلفن مرة واحدة لأكثر من ٣٠ عاما ليطالبن بحق أبنائهن الذين لم يعرفن أبدا ما حدث لهم، ومحاكمة القتلة، بل وتطورت الحركة لتنادي في وقفتها الأسبوعية بعدم تكرار ما حدث لأبنائهن الشباب ليس فقط في الأرجنتين، ولكن في أي مكان آخر في العالم.

http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=639896&eid=6744""

باريس وأنا أو تضاريس العلاقة الملتبسة

د. محمد حافظ يعقوب *

هذا النص هو عن المدينة باريس وليس عن باريس المدينة. وسيرى القارئ أن النص هو تأملات في المدينة المَعيشة (وبالضرورة المدنية) أكثر مما هي رواية عن "تجربه(تي) " فيها والمفارقات العديدة التي فيها عرفت. فما يعني القارئ العربي عن باريس هي فكرة المدينة الحديثة (بالمعنى الفلسفي، أي الكلي والعام)، وعلاقات البشر فيها: إنه البعد التنظيمي الذي يجعل للحياة في المدينة (ووجهه الآخر الموت بل ونظيره) معنى "مدنياً"، أي مفارقاً ومغايراً بالضرورة. وهو في الوقت نفسه المعنى الذي يتصل بالعيش في المدينة بما هي سيرورةٌ تُقَوْلِبُ في التاريخ أولئك الناسَ الذين استوطنوها واتخذوا من حيِّزها ميداناً لآدميتهم. والواقع أن ما هو مشترك في كل مدينة على الإطلاق يكمن في أنها تخلق مواطنيها وتعيد قولبتهم في الوقت الذي يزعم فيه هؤلاء العكس. بيد أن الأمر يتعدى بالتأكيد وكما سنرى هذا البعد الدمجي في الحياة المدينية.

١/ ينظر ابن خلدون للسيرورة التاريخية التي تعيد فيها المدينة تكوين سكانها وتطبيعهم بجملة من الخصائص السلوكية والخلقية نظرة سلبية ويصفها بعبارات لا يعوزها الوضوح. المدينةُ هي غاية العصبية وموطن الحضارة ومقر العمران والفن والابتكار؛ غير أنها في الوقت نفسه الحيز الذي تتحلل فيه العصبية وتتبدد، والمنتج لهالك الترف الذي يفضي إلى هالك الذل. الحضارة غاية الدولة بمقدار ما هي وهنٌ وتحللٌ وخُنثٌ، بحسب لغته.

بيد أن ابن خلدون لم يعرف الحداثة، ولم يتسن له معاينة السيرورات التاريخية الكبرى التي

---

* باحث فلسطيني

عايشتها البشرية الحديثة في القرنين الأخيرين على وجه الخصوص. وهو لم يتمكن بالتالي من معرفة كيف أن طاقة الجذب في المدينة الحديثة أصبحت لا تقاوم. وأرجّح أنه يتعذر سبر غواية مدينة الحداثة من غير سبر جاذبية الدولة الحديثة التي هي مقرها وكرسي سيادتها. لا دولة حديثة من غير مدن تكتظ بسكانها الذين تجذبهم إليها من الأرياف والبوادي والأصقاع البعيدة. والواقع أن مصدر الغواية أو الجذب في المدينة على وجه العموم وفي المدينة الحديثة على وجه الخصوص لا يكمن في الأضواء والمطاعم والمسارح وغير ذلك من المتع المادية المتوافرة بكثرة في المدينة، بل في كونها لصّت كما يخيل لي من البشرية حلمها العتيق بالطوبى (اليوتوبيا) وجسَّدتها في فكرتها التي هي فكرة الحداثة الاجتماعية من حيث هي كذلك. وتمثل باريس من غير شك موطن الحداثة من غير منازع لأنها بالضبط مدينة حديثة بالمعنى التنظيمي المعماري، وبالمعنى الذي أكد عليه فالتر بنيامين في أواخر النصف الأول من القرن العشرين ومن قبله شارل بودلير في نهايات القرن التاسع عشر، وهو معنى مدينة الزمن الزائل لأنه الزمن الآتي من غير توقف أو خلل.

٢/ يزعم الاجتماع الحديث أنه يجمع في فكرته وإذن في شرعيته عناصر الحلم البشري بمجتمع الوفرة والرفاهية والمتعة، وأنه الاجتماع الذي تتكسر شيئاً فشيئاً فيه الحواجز التي باعدت في التاريخ بين البشر وفصلت بينهم إنْ على أسس طبيعية/ جغرافية، أو على أساس النوع والجنس والعنصر أو الثقافة. هكذا تغدو المدينة الحديثة، بحسب هذا المقال، المكان الوحيد الذي فيه يُتَقارَبُ بين البشر ويُخلط بينهم ويُعاد تكوينهم على أسس ومعايير جديدة.

عني ماكس فيبر أولاً بنمو المجتمعات الحديثة. وهو يؤكد على أن البُنى الاجتماعية التي واكبت الحداثة تتسم بتراكب نسقين تمحورا حول المشروع الرأسمالي أولاً وجهاز الدولة البيروقراطي ثانياً؛ وإذ يتداخل النسقان وظيفياً ينجم عن تفاعلهما، بحسب ماكس فيبر، أن تتأسس جملة من الأنشطة العقلانية في مجالي الاقتصاد والإدارة. ومهما يكن الأمر، فإن نمو المجتمعات الحديثة هو الذي أرسى لسيرورات تحلل أشكال الحياة التقليدية وتفككها، من ناحية، ونشوء المدن الحديثة التي يمكن اعتبار باريس نموذجها الصارخ، من ناحية ثانية. وسواء أكانت العقلانية هي التي أفضت إلى الأنشطة التي أدت بدورها إلى ظهور الحداثة الرأسمالية والاجتماع الحديث وتحلل البنى التقليدية وتشكل المدينة الحديثة إذن، أم أن العمليات التاريخية الكبرى هي التي خلقت

البنى التحتية التي أرست أسس العقلانية الحداثية، يبقى بيِّناً أن المدينة الحديثة هي المكان الذي مارست فيه الحداثة سطوتها وسلطة جذبها وقدرة أساطيرها على الإغواء. تجسّد فكرةُ المدينةِ فكرةَ الحداثة، وفي ثناياها تندمج أساطير هذه الأخيرة وتعمل في التاريخ.

من المستحسن أن نلاحظ هنا أن الثقافة الحضارية (تمييزاً لها عن الثقافة بالمعنى الإناسي/ الإجتماعي) هي مايمكن وصفه بالجو العام الذي يحرك، يشحن، يُفعِّلُ رمزياً المعاني الكامنة في الخبرات المعيشة في الحياة اليومية للناس، ويجعل للأحداث معانيها أو بالأصح يجعل لهذه الأحداث مضموناً رمزياً يتعلق بالجماعة والأفراد على وجه الخصوص. بيد أن الرأسمالية لا تتضمن شيئاً من هذا. إنها لا تعطي لحياة الأفراد والجماعات معانيها، ولا تساعدهم على التفسير؛ إنها لا تصلهم لا بالمطلق الكلي ولا بما يعطي الحياةَ (والحركة، والتاريخ) معنى. هكذا لا يمكن الموافقة من غير تحفظ على فرضيات ماكس فيبر وكثيرين آخرين من الذين ساروا على خطاه في بلاد الغرب أو في بلاد العرب، بخصوص أن الرأسمالية هي التي أطلقت الحضارة الحديثة وخلقت شروط تجذُّرها. وبالمقابل ليس ثمة ما يدعم الرأي الذي يقول إن ظهور الرأسمالية جاء تعبيراً عن انطلاقة الحضارة الثقافية. وبهذا الخصوص، من المناسب لفت الانتباه إلى الفكرة التي يؤكد عليها الطلياني فرانشيسكو ألبيروني Alberoni (١) في كتابه الممتاز (التكوين) بخصوص أن "ظهور الرأسمالية" جاء، بخلاف ما يقول به ماكس فيبر، "تعبيراً عن تدهور الحضارات الثقافية" (ص ٥٩٠)، وليس نتاجاً لها، باعتبار أن النواة المركزية في الرأسمالية هي مجموعة من الممارسات والعمليات المنفصلة عن أية قاعدة قيمية. فالغرض الرئيس من الرأسمالية، وهو الثراء المادي، خاوٍ من القيمة؛ إنه وسيلة محضة. ثم إن الثراء بحد ذاته ليس فضيلة أو رذيلة؛ إنه وسيلة لهما. ويتعذر مقاومة إغراء الموافقة على مايقوله ألبيروني بخصوص أن "العالم الحديث، الغربي الرأسمالي، يتصف بواقعة أنه لا يمتلك رسالةً أو أملاً حقيقياً يمكن التبشير بهما" (ص ٥٩٠).

٣/ سأوضح الآن الفكرة التي ذكرت قبل قليل بخصوص أن المدينة هي مقر الطوبى والحلم البشري العتيق بمجتمع العدل والمساواة والرفاه والسعادة. وأفتتح بالقول إن تأكيدي على هذه الفكرة هو من أجل الإجابة على المساءلة حول كيف أن المدينة تجذب الناسَ إليها وعن السر في هذه الجاذبية. والواقع أنه في وجدان الناس، ثمة بحث عن الجنة في المدينة. بحث مستحيل، لأن

المدينة، كما الريف والصحراء والجبل، مع أنها لا تستطيع أن توفر للناس ما يبحثون عنه فيها، تجذبهم مع ذلك، يتكدسون فيها، ويتصارعون على حيّزها القليل، ويشتكون ويتأففون. ولكنهم مع ذلك يفدون. فكيف يمكن تعليل ذلك؟

هناك من يربط بين المدينة والحلم. يقولون إن الناس عموماً والشباب خصوصاً يحلمون في العيش في المدينة، تجذبهم أضواؤها وضجيجها وصخبها، وخدماتها العديدة. ثمة سهولة في المدينة لا تتوفر عليها القرية أو البادية والجبل. لكن المدينة ليست جذابة فقط من أجل الضجيج والخدمات. وهي ليست جذابة لأن فيها كما يقول بعض علماء النفس الاجتماعي يتكدّس الناسُ بفعل نزوعٍ أو ميلٍ غريزيٍ نحو التقليد، أو بفعل "غريزة القطيع". أفترض شخصياً أن المدينة جذابة لأنها تستبطن في فكرتها صورة الطوبى أو مثالها بالمعنى الأفلاطوني للكلمة، أي بالضبط ذلك الحلم القديم، المتجدد أبداً، وجعلته مدينة الحداثة جزءاً من "هويتها" الخاصة.

يطول شرح هذا باعتبار ترابطه الوثيق بما أسميه أساطير الدولة الحديثة والتناقضات البنيوية العميقة التي تنطوي عليها، وسأقتصر هنا على فكرة "الدولة الإجتماعية" أو دولة الرفاه في حركيتها الداخلية وليس فكرة الدولة/ الأمة من منظار العلاقات الدولية وما يسميه الحقوقيون بمبادئ القانون الدولي. وأرجح القول إن الدولة الاجتماعية لصّت من الحلم البشري العتيق فكرة الجماعة الفاضلة السعيدة التي يسودها الوئام والرّفاه من غير تناقضات وتمزقات واقعية أي معيشة، وكان روّج لها الأنبياء والثوار والأديان، وأدمجتها في قلب الفكرة المركزية لشرعيتها ولهويتها من حيث هي كذلك.

تشكل ما أدعوه بـ"سرقة الحلم الطوبي" تغييراً حاسماً وخطيراً يلخص ربما فكرة الدولة الحديثة كلها. ففي قلب حركتها الداخلية، وفي سيرورات بنائها خلال القرنين الأخيرين بشكل خاص، كشفت الدولة الحديثة عن خاصيتها المركزية التي تميزها وهي بنيتها التَغوُلية، وأقصد بذلك أن سيرورة بنائها وتحقيقها لذاتها يمر عبر اندغامها في جسد الجماعة التي تزعم تمثيلها والسهر على مصالحها ورفاهها، وعبر اختراقها لوعي هذه الأخيرة وانسيابها في ثنايا صورتها لنفسها وللعالم الذي قامت الدولة الحديثة بغزوه كله وباحتلال آفاقه جميعها.

ومن المعروف أن الدولة الإجتماعية أو دولة الرفاه تستند في شرعيتها على أسطورتين إثنتين. أولاهما هي فرضية "حيادها المطلق" وما يترتب عنها بطبيعة الحال من تعالي فكرتها أي من

صورية أو شكلية فكرتها الدستورية، وثانيهما هي فرضية العقد الإجتماعي وما يستتبعها من أسطورة تواكبها هي أسطورة أن الدولة هي الضامن الوحيد للسلم الإجتماعي أو الأهلي، مادام العلم الإجتماعي الوضعي الحديث كله ينطلق من تعريف للمجتمع يقوم على النظر إليه من حيث هو شبكة من العلاقات والمصالح المتداخلة بالضرورة والمتناقضة في آن.

هكذا تلتقي عند هذه النقطة بالضبط التناقضات البنيوية جميعها. فالدولة الحديثة حددت لنفسها مهمتين متعارضتين يصعب جمعهما تحت سقف واحد هما: ضمان العدل في توزيع الثروات الإجتماعية، وتأمين الرفاه الإجتماعي عن طريق توفير الخدمات العامة الصحية والتربوية والترفيهية والمواصلات والمساكن، وضبط حركة السوق والإستهلاك اي سياسة الأسعار والتحكم بالتضخم والأجور وسوق العمل (حركة البطالة وبالأصح نسبتها الضرورية)، وفي الوقت نفسه، وهنا يكمن التناقض الثاني، ضمان حرية المبادرة التي هي أساس فكرة المشروع الرأسمالي. وهو تناقض يشكل مصدرا جدياً من مصادر التوتر تمكنت عدد من النظم في دول أعلى الهرم من امتصاص حدته كما في البلدان الإسكندنافية بشكل خاص وفي المانيا وفرنسا بشكل أقل كفاءة، وذلك عن طريق لعب دور المشرف على التفاوض الدوري بين نقابات العمال واتحادات أرباب العمل، فضلا عن اعتماد مفهوم لحقوق الإنسان يوفر من غير شك مستوى ما من حرية الحركة والتنظيم والرأي والكرامة.

والواقع أن دولة الرفاه الإجتماعي (أو الدولة الإجتماعية كما يطلق عليها الألمان)، هي بحسب التعريف الذي حدَّته لنفسها، مُنسِّق الحركة وضابط توازنات المصالح المتناقضة بين الجماعات الدنيا وتعاضداتها، وخصوصا بين العاملين وأرباب العمل. بيد أنَّ الدولة الإجتماعية لاتستطيع أن تفترض في نفسها الأهلية لضبط الإيقاع والصلاحية لضمان التوازنات العامة إن لم تكُ، بحسب المفهوم الذي يؤسس للتعريف الذي سبقت الإشارة إليه، كينونةً متعالية على الجماعة التي يتشكل جسدها منها، أي كينونة تفترض في نفسها الحياد الإجتماعي بين المصالح المتضاربة والمتناقضة التي تقف في ما وراء الحركة في المجتمع، من جهة، وأن السلطة الثاوية فيها مقننة، أي غير مشخصنة وتخضع للمراقبة والمحاسبة واللَّجم، من جهة ثانية.

ليست دولةُ الرفاهِ الإجتماعي، بحسب الدستور أو بحسب فكرتها التي تقوم شرعيتها عليها، دولة المجتمع كله إلا لأنها تقف في تلك النقطة التي تتيح لها أن تشرف على المجتمع (من حيث

هو واقعة سوسيولوجية أي واقعة مركبة من جماعات وهويات متناثرة ومتعارضة، من ناحية، وواقعة متحولة، أي من حيث هو سيرورة متحركة ومتغيرة ولاتستقر على حال، من ناحية ثانية)، وأن تعيد دمج فئاته وجماعاته الدنيا التي يتشكل منها وقولبتها بحيث ترى الجماعة نفسها وتعكس هويتها أي شخصيتها الجمعية وخصوصيتها في مرآة الدولة وليس العكس. فبخلاف الأسطورة الشائعة والرائجة في كل مكان، ليست الجماعة الفرنسيةُ فرنسيةً لأنها تتحدر من أرومة الأجداد الغال، بل لأن الدولة الفرنسية هي التي تقوم بقولبة جماعاتها وتتولى أمر صهرها وصياغتها أي فرنستها ودمجها في الجسد الإجتماعي الضخم الذي تسيطر عليه.

وبعيداً عن الخوض في تفصيلات تتعلق بقضايا الهُويّة والخصوصية، فهذا لا مجال له هنا، ليست الدولة الإجتماعية هي المؤسسة الوحيدة من بين مؤسسات الإجتماع الإنساني في عصر الحداثة التي تنطوي فكرتها الأولى، أي مبدؤها الذي تستند عليه في شرعيتها، على تناقض بنيوي لا حل له من داخل فكرتها نفسها. وهي ليست السيرورة الوحيدة التي تقف اليوم في عز التحولات الجذرية العميقة التي تقود البشرية نحو "الموجة الثالثة" من الحداثة. بيد أن مدينة الحداثة هي التي تختزل في الحقيقة فكرة الدولة الحديثة، التي هي دولة الرفاه الاجتماعي، ومن خلالها نصّبت نفسها على أنها المجتمع المفتوح الذي هو أولاً مجتمع الغد. تجسد المدينة فكرة الجمهورية، لأنها تُجسِّد فكرة أن "الطوبى" ممكنة التحقق في التاريخ.

إن الخروج الكثيف الذي عرفته البلاد الفرنسية للجماعات المحلية من مواضعها التاريخية، وبالأصح من آليات تجديدها لنفسها ولعالمها ولأساطيرها بما هي جماعات محلية في التاريخ، والانخراط في آليات جديدة لتجديد الانتاج الاجتماعي للجماعة الوطنية، بمثلها وبقيمها وبأساطيرها، تمحور بالضرورة حول الهوية الوطنية الكلية المتمثلة بالدولة المركزية، وخصوصاً حول إعلاء شأنها على حساب الجماعات الأهلية وبدمجها في السياق العام. وفي القلب من هذه الهوية تتموضع باريس. فلقد فرنست باريس المناطق التي صارت جزءاً من الدولة الفرنسية في سيرورة من الضم والإلحاق بدأت منذ عدة قرون وربما لم تكتمل بعد. إن الذين يقولون إن المدينة هي "معمل" المواطنة وورشة تشكل الهويات الوطنية ومعيار تحققها كوطنيات في التاريخ لا يجانبون الصواب على الأرجح. ففي المدينة فقط تتشكل علاقة جديدة بين الناس هي السلطة؛ المدينة هي مقر السلطة والميدان الأول لممارستها، وهي بالضرورة موطن لعلاقات

اجتماعية تُرسيها تراتبية هرمية، من جهة، ومعاييرٌ تعبِّر عن سيروراتِ تدامجِ العناصر المختلفة للكل الاجتماعي للوطن، من جهة ثانية.

وبظني أن باريس هي، كما يقول جان بيير أرثر برنارد(٢) ، أرض الطوبى « Paris est un territoire d'utopie » لأنها تجسد، في ذهن الكتاب والشعراء والفنانين الذين تعاملوا معها منذ ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٧٨٩، حلم الجمهورية والدولة الحديثة من غير منازع. لكن باريس ليست الوحيدة من بين المدن الكبرى التي نُظر إليها على أنها أرض الطوبى. ليست المدن الحديثة حلماً معمارياً أي حلماً من الحجارة كما يقول بعض المعماريين. المدن الحديثة جذابة لكونها اعتُبرت أنها بالضبط موطن الرفاهية والوفرة والعيش الجميل، و/أو الحيز الوحيد لإنجازها والوصول إليها في التاريخ. وفي نظري أن التناقض لا يكمن في أن الناس تجذبهم المدن وتمارس غوايتها عليهم، ويحبونها، بل في افتراض أن هذا الحب لا ينتمي إلى الهوية و لا يحتل حيزاً كبيراً فيها. وسأعود لهذا فيما بعد.

٤/ ليست الكلمات هي التي تجعل منك في باريس أو دمشق أو موسكو رجعياً أو تقدمياً، مجدداً أو محافظاً أو ما بعد حديث. الكلمات عنصر مركزي في التواصل، لكنها لا تكفي وحدها للإفصاح عن المعاني ولتناقلها بين المتحاورين. لا بد من لغة مشتركة هي بالضرورة لغة المدينة التي تتواصل فيها أو تتطلع فيها إلى التواصل. غير أن واحدة من وظائف الكلمات في المدينة الحديثة، وهي هنا باريس، هي أنها تخفف من نغص العيش فيها أو بالأصح تحوله إلى نغص مألوف و "طبيعي"، وتجعل من متاعب الحياة اليومية شرطاً من شروط الحداثة.

الإقامة في باريس اليوم، أي المدينة الحديثة التي شرعت تفقد شيئاً فشيئاً بعضاً من مركزيتها التي كانت لها في سيرورة فَرْنَسَةِ فرنسا، هي في الحقيقة إقامة في مكان سائل: يتسرب من يديك في لحظة التوهم بامتلاكه. المدينة باريس مكان مراوغ لأن الحيز الذي تتيحه لك هو أولاً الحيّز الذي تكتشف أنك، في وسط الزحام والضوضاء وربما بسببهما، تعيش فيه وحدتك المضاعفة. في المدينة تفسَدُ الكلمات لأن عليك أن تتحدث لغتها المراوغة وأن تستخدم عباراتها التي تخلو من اليقين، كل يقين. هذا يحصن وحدتك وعزلتك لأنك بالضبط منخرط حتى الأذنين في هذه اللغة التي تبعدك عن التواصل. أنت في عزلة مدينية، استراتيجية بالضرورة، لأن تواصلك بلغة المدينة هو إلى الهذر أقرب؛ وهو الذي يضعك أمام مرآة ذاتك ليذكِّرك أنك تخبىء في ملابسك هشاشَتك

وضعفَك ووحدتك. أنت في المدينة وحدك لأن الشعور بالعزلة هو بالضبط شعور مديني بامتياز. أنت في الصحراء وقبالة الطبيعة الممتدة أمامك لا يمكن أن تكون في عزلة. أنت لا تشعر بالعزلة وبكآبتها إلا بين الآخرين ووسط الناس الذين يحيطون بك. فإذ إن أقسى أنواع العزلة هي عزلة الذكريات، كما يؤكد مارك أوجيه في كتابه الأنيق "الدار البيضاء " (٣) (ص ٥٧)، فذلك لأنك تشعر بالعزلة لغياب التواصل. أنت تشعر بالوحدة حين يكون القريبون منك بأجسامهم بعيدين عنك. وحين تغدو نظراتك يتيمة وهي ممتلئة بالشخوص والأشياء التي لاتراك. أنت وحيد لأنك غريب بين الناس المزدحمين حولك ويعبُرون مثلك الشوارعَ ويحتسون القهوة على رصيف المقهى نفسه مثلك وربما يبادلونك النظرات، ويستهلكون مثلك منتجات عالمية أي لا خصوصية لها. إن المدينة هي المكان الذي يكون فيه غياب التواصل كثيفاً وثقيلاً.

والحقيقة أن المدينة بعامة وباريس بخاصة ليست حيز الحرية إلا في الكلام الطليق. فليس صحيحاً أن إنسان المدينة الكبيرة، الإنسان الغُفْل في قلب الزحام، هو حر بامتياز لأنه مجهول لا يعرفه أحد ولا يعرف أحداً كما يقولون. لا تتمثل حرية المديني في كونه مجهولاً من قبل الآخرين، يرى ما يشاء ثم يذوب في الزحام. مواطن المدينة مستلَب لأنه في أتون معمل يقولبه ويشكل هويته حتى لو ظن غير ذلك. ثم إنك في المدينة مستلَب لأنها تفقدك العلاقة الحميمة بالطبيعة، بما في ذلك طبيعتك، وتضعف أحاسيسك تجاهها، وتضعك في حالة غربة معها. ربما لهذا السبب كذلك يعوض الباريسيون كمثل غيرهم من أهل المدن في ارتياد الحديقة شيئاً عن غربتهم عن الطبيعة. غير أن الباريسي وهو في الحديقة ليس غولدموند، بطل رواية هرمان هسه الذي يتكشف في الطبيعة عن ذاته كفنان أو كمبدع. ليست الحديقة تعويضاً عن الغربة عن الطبيعة ولا إكسيراً لمعالجة هذه الغربة. كما أن إكراهات المدينة التي تملؤك خيبة وحرمانا تتربص بك وتنتظرك خارج بوابتها. ثم إنك لا ترى النجوم في المدينة. باريس مدينة بلا نجوم. وربما لهذا السبب كذلك يصر الباريسيون على أن مدينتهم هي مدينة الأنوار.

إن العلاقة بالمدينة، كل مدينة حديثة مهما كانت، هي في أُسها علاقة بالزمن: باللحظات تتسلل من أيدينا دون أن نستطيع اللحاق بها و/أو التحكم بها. أنت في المدينة من غير وقت. تطارد اللحظات التي تتخطاك وتقهر قدرتك على ضبطها. ليس غير الفنان من يستطيع في المدينة إعادة

كتابة الوقت لأنه يتمسك به في اللوحة أو القصيدة وربما في اللحن. وليس من غير دلالة بهذا الخصوص أن العمال في باريس كانوا إبان أحداث تموز ١٨٣٠ يطلقون النار على الساعات في الساحات العامة. ويتوقف فالتر بنيامين لدى هذه الواقعة ليرى فيها علاقة باريسية خاصة أو ثورية بالزمن، أي كما لو أن العمال المضربين المتمردين أرادوا، بهذا السلوك، الإشارةَ إلى رمزية تغيير الزمن ودلالاته بخصوص الموت والحياة. في باريس "شمس الأموات لاتغيب ابداً" يقول بلزاك.

وليس صدفة أن مؤلفات عديدة كتبت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عن باريس المستقبل، عن باريس الزمن القادم. ذلك ليس لأنها مكان يمكن فيه "استشراف" المستقبل والقادم من الأيام، بل لأنها قبل ذلك موطن ثورة"مغدورة" دائماً وتستعيد أنفاسها باستمرار (١٧٨٩، ١٨٣٠، ١٨٤٨، ١٨٧٠، ١٩٦٨ الخ) بحثاً عن الطوبى (اليوتوبيا) التي هي الدولة الحديثة؛ وباريس هي كرسي هذه الدولة الحديثة من غير منازع. ومن الجلي في نظري أن فكرة الثورة ظلت حتى "ثورة" ١٩٦٨، هي الكلمة السحرية التي تملأ الأرواح والمشاعر وتشحذ الهمم وتعبئ الطاقات و/ أو الصفوف المناهضة لها. في حين أن الثورة تبدو اليوم، في العام ٢٠١٠ وقت كتابة هذه السطور كما لو كانت فقدت زخمها وغرقت في لجة الانهيارات العامة التي عرفتها البشرية مؤخراً. الآن تبدو البشرية (وأقول تبدو) كما لو كانت تريد في مطالع القرن الحادي والعشرين أن تطوي صفحة القرن العشرين باللعنات والشتائم، بما أنها لا تستطيع لا نسيانه ولا تبييض صفحته غير الناصعة. ربما كان تدهور فكرة الثورة من تجليات هذا "التوديع".

من المستحسن هنا توضيح ما سبق ذكره تحاشياً لكل لَبس. فحين أقول "ثورة مغدورة" فلسببين. أولاهما أنني أنتسب إلى جيل خصَّ عالمُه لباريس حضورٌ كثيف. ونحن نعرف أن الأدب الثوري الذي ساد في الربع الأخير من القرن العشرين كان يتعامل مع الثورة الفرنسية الكبرى للعام ١٧٨٩ على أنها فاتحة التاريخ الحديث، من ناحية، ولكن سرقتها البورجوازية وحرفتها عن أهدافها الكبرى، أهدافها الثورية في المساواة والعدالة والحقوق الإنسانية، من ناحية أُخرى. أما السبب الثاني فلأنني كما قلت لم آت إلى باريس خاوي الوفاض . فقد كنت أحمل في زادي جرعة قوية من الغواية الباريسية التي كانت تشدني نحوها وفي الحقيقة نحو حبها والشوق إلى ارتيادها. كنت "أعرف" باريس و"أعرف" معالمها وأسماء بعض أحيائها بل وعدداً من مطارح ذاكرتها الجمعية

قبل أن تطأ قدماي أرضها أو أعرف حتى كلمتين من لغة أهلها. ولا يستغربن أحد إن اعترفت أن هذه الغواية زرعتها في روحي وفي باطن وعيي مجموعة الكتابات الشيوعية والماركسية التي كنت في صباي المبكر في دمشق ألتهمها ونتبادلها أصدقائي وأنا تحت المعطف. وأقول "أعرف" لأن هذه "المعرفة" تكونت لدي من خلال الكتابات الماركسية على وجه الخصوص. تفسير هذا يتطلب وقفة لا مجال لها هنا. يكفي أن أشير بعجالة إلى أن كل برنامج ماركس الاجتماعي قائم على قراءة للثورة الفرنسية الكبرى باعتبارها نموذجاً لكل ثورة على الإطلاق. ويعرف المخضرمون من أمثالي من الكهول كيف أن ثورة ١٨٤٨ وكومونة باريس وغيرهما من مفاصل التاريخ الفرنسي في القرن التاسع عشر شكلت المادة الأولى لتحليل ماركس وانجلز (ولينين وتروتسكي إلخ). فمن أراد أن يعرف الثورة فليتطلع إلى الكومونة وليعاينها، يقول ماركس والضالعون من رفاقه الأول. هكذا غدت باريس بالنسبة لي، وفي الحقيقة بالنسبة لأجيال كاملة في أرجاء المعمورة من الطامحين مثلي إلى تغيير العالم، قبلةَ يتعذّر تخطيها أو التعامل معها "بخفة". صارت باريس هوى "ثورياً" يشرح الثورة، و"كتاباً" مفتوحاً فيه تُقرأُ الأسرار والخبايا التي لا تضن باريس بها على الباحثين عنها.

حين وصلت إلى باريس في خريف العام ١٩٨٣، كان القرن الحادي والعشرون مازال بعيداً في الزمان وقصياً في التفكير؛ ولم تكن انقسامات العالم واصطفافات قواه قد كابدت الزلزلة التي نعرفها اليوم. وأعتبر نفسي بمعنى من المعاني محظوظاً إذ عشت في هذه المدينة بالذات التغيرات العاصفة التي شهدها العالم في العقود الثلاثة الماضية، ويمكن تسميتها على سبيل الاصطلاح بالانتقال إلى مرحلة ما بعد الحداثة. وحين أفكر اليوم في مشاعري في تلك الأيام أي في ما يمكن تسميته بالطبقة العميقة التي تعضد الفكر وربما تحدد توجهاته العامة، لا أتردد في القول إن لحمة هذه المشاعر هي بالجملة لحمة الجيل الذي أنتمي إليه، ولحمة أهوائه العامة التي وجهت خطاه.

٥/ أنتمي إلى جيل زلزال حزيران ١٩٦٧. وهو الجيل العربي النظير لجيل ١٩٦٨ في فرنسا والمجايل له. كلاهما تمثّل خياراته في التاريخ الواقعي، أي التاريخ الذي يجري في الزمان وليس في الرؤوس، خيارات التوافق مع العالم نفسه الذي يعلن عن رفضه له والتمرد عليه. كلاهما سرعان ما سيكيف حركته العامة، أي السياسية، بحكم الواقعية و/أو بحكم طبيعة الأشياء وسنن الأزمنة،

مع مجرى التاريخ الذي كان مازال جديداً وقتئذ : التاريخ الذي سيغلق تواريخ الحداثة التي سيعلن انهيار جدار برلين انغلاقها نهائياً. إنه الجيل الذي سيخط التصورات الأولى لشرعية أخرى لم تجد مستقرها بعد وما زالت قيد التكوين، هي شرعيات الحقوق الإنسانية.

ولن أستفيض في مفارقات هذا الجيل. يكفي أن أقول إنه الجيل الذي أراد تغيير العالم الذي يمثل في الوقت نفسه مرآة تصوراته لنفسه فيه. لم يكن تغيير العالم يتنافى بالنسبة إليه مع تطلعاته ومشروعاته التي كانت تتسع للعالم كله. إنه جيل البدء الجديد، وهو جيل التغيير الجذري أو الحاسم، بل هو في الأصح الجيل الذي وقر في وجدانه أنه ينتمي إلى الزمن القادم والعصور القادمة. إنه الجيل الذي حدد لنفسه مسؤولية إعادة التأسيس لأنه خط لنفسه دور الطليعة و"تعرّف" على ذاته فيها، أي كطليعة. غير أنه قبل ذلك الجيل القادم إلى المدينة من ملحقاتها، وتمثل "ثورته" تلبية ما لندائها إليه واستجابة لسحرها ولطاقة الجذب الكامنة فيها. وأميل إلى الظن بهذا الخصوص أن فكرة الثورة هذه شكلت نوعاً من أنواع الحوار بين ضفتي المتوسط ودرجة من درجات تلاقيهما، وأن الماركسية (غير الستالينية، بحسب لغة تلك السنوات كيلا أقول رطانتها) لعبت دور اللغة المشتركة لهذا التلاقي، وجعلت منه ممكناً في التاريخ.

لكل زمان أزمته التي تفرضها الحركة، أي الحياة؛ ولكل زمان أوهامه وأحلامه التي تتسرب في داخل الحيِّز الإجتماعي وتتسلل كما العدوى إلى النفوس والمشاعر والهمم؛ ولكل عصر أسئلته الكبرى التي تقتضيها المصاعب وتستوجبها الإحباطات التي تحاصر الجماعة وتعاكس غالباً طموحاتها وتصوراتها عن نفسها في التاريخ. ثم إن التماسك العضوي ليس الرابطَ الوحيد الذي يجمع عصراً بسوابقه من العصور، وهو ليس التسلسل الزمني بأية حال. وتدلنا المعاينة التاريخية أن ظهور شكل جديد من أشكال الحياة الجمعية، ارتبط دائماً بظهور نمط جديد من الناس (والقيم، والعلاقات والأوهام والأساطير..إلخ)، وأن تدهور هذه الأشكال ترابط بانقراض نمط معين من الناس.

وحين تتزعزع أركان الإجتماع، تميد بنية المعاني، يحل اللبس في الحركة، وتفقد الكلمات وضوحها، أو ماكان يبدو إلى وقت قريب كما لو كان هو الوضوح بعينه. يبدو الزمان كما لو كان فقد بوصلته، أو كما لو أن التاريخ صار خبط عشواء من غير معنى يهديه سواء السبيل. وحين تعترف المعارف، والعارفون من الناس على وجه التخصيص، بالعجز عن الإحاطة بالتاريخ وعن سبر غوره

وفحواه، تفقد حركة التاريخ اتساقها الذي كان لها، وتستقر الأزمة في النفوس. وأرجح القول أنه يمكن انطلاقاً من مفهوم الأزمة بالمعنى الذي سبق ذكره تفسير لماذا أن طروحات فرنسيس فوكوياما عن (نهاية التاريخ) وصموئيل هنتنغتون عن (صدام الحضارات) لاقت رواجاً واسعاً وأثارت كثيراً من اللغط يتجاوز بكثير القيمة النظرية لمضمون هذه الطروحات، قبل أن يبهت بريقهما ويتلاشى بسرعة تستوجب السبر.

من البيِّن أن جان بيير أرثر برنارد وقع في إغواء الشطط حين كتب مقدمته الجميلة لثلاثيته (مذاق باريس). فليست باريس هي المدينة الوحيدة في العالم التي تُلَّفق ماضيها وتؤَسْطِره وتعيد صياغته مع تعاقب الأجيال. فالدول والجماعات والأسر تلفِّق ماضيها كي تزعم أنها سحيقة القدم وكريمة المَحْتِد. هكذا قد يصح القول إنه ربما مثَّل البحث عن ماض عريق للمدينة صيغة موارِبة لبحث الناس عن ماض لهم وخاصٍ بهم، غير أنه يمثل بالتأكيد حاجةَ اجتماعية يُسهّلُ للناس تدامجَهم وانخراطَهم في الحيّز الذي هو هنا المدينة. وإلا ما هو دور أساطير التأسيس إذن؟ ولماذا يلح الناس على إرسائها إن لم تكن ثمة وظيفة اجتماعية ضرورية لها؟ ألا يمكن القول إن أساطير التأسيس تضمن لحمة اجتماعية لسكان المدينة الذين هم خليط هائل من العناصر الوافدة من كل مكان تقريباً، وتوفر رابطاً معنوياً يتخطى تنافرهم وتعددهم وكثرتهم؟ ألم يلاحظ بول فاليري في مطلع القرن العشرين، أي في أوج الحداثة، أن اليونان القديمة كانت "الابتكار الأجمل للأزمنة الحديثة" ؟!.

في باريس، هذه المدينة التي تتجاور، تتعاشر، تتدامج، تتقارب وتتباعد فيها كل جنسيات المعمورة وأقوامها وألوانها، تعرف بحدسك العميق الذي لا يخطئ أن مقولات صموئيل هنتنغتون بخصوص الهويات والحضارات التي تتصادم مبنية على فرضيات هشة الأسس. في السوق والمقهى والشارع والمترو والحافلة أنت الفلسطيني العربي واحد من خلطة بشرية لا لون لها لأنها من جميع الألوان ولا ماض لها لأنها لحظة انصهار كل ماض ممكن. ما تبقى هو أساطير تغذيها مصالح فعلية أو مفترضة كيلا أقول متوهمة، ولكنها، إن استخدمنا لغة الروح والفن، مصالح مبتذلة وزائلة.

وما ينطبق على مقولات هنتنغتون ينطبق أيضاً على أضرابه من المحافظين الجدد وغيرهم من الأصوليين essentialistes. فليس صحيحاً ما يقوله هؤلاء من أن مفهوم الحضارة الكونية هو

من مبتكرات الغرب وأساطيره. هذه قراءة حولاء للتاريخ الإنساني. تتقدم الأنسنة بخطوات حثيثة لأن المدينة تتسع ولأن معاييرها أي معايير الأنسنة غدت اليوم أكثر انتشاراً وقبولاً في مختلف أرجاء المعمورة. تتراجع الهمجيات لأن فكرتها ما عادت مقبولة ولأن تسويغها يظهر اليوم بجلاء أنه بائس أساسه الهشاشة والعطب. تتراجع الهمجيات لأن المدينة تتقدم. ألم يعتبر ابن خلدون قبل ستة قرون أن جرثومة العصبية ومقتلها يكمن في "خنث" الحضارة التي تودي بالعصبية وتعزز المسالمة وتضعف النزعة إلى الإحتراب؟

العلاقة بباريس علاقة ملتبسة لأن باريس مدينة عديدة، مركبة وكثيرة ويتعذر اختزالها بالضرورة إلى واحدة من مكوناتها المتناقضة. صحيح أنني فقط في (مدينة الأنوار) تعرفت إلى معنى العنصرية التي كنت قرأت عنها كثيراً قبل أن أخبِرَها عَياناً فوق أرضها. في باريس ترى العنصرية عُريانة من غير طلاء. فيها تعرف أنك آخر، وفيها تتحدد هويتك أمام مرآة ذاتك كآخر. فيها تغدو آخر. وفيها تغدو أنت وآخرُك أنت. والذين خبِروا غربةً مديدةً في غربٍ لا يستطيع أن يستوعب خصوصية المنفى الفلسطيني القسري، منفاي الخاص الذي هو بالتأكيد منفى كل فلسطيني على شاكلتي، يعرفون كم هي منافقة تلك النصوص "الفلسفية" حين يتصل الأمر بمفهوم الإنسانية. إذ كيف يستقيم التأكيد على فضائل الأخروية وحب الآخر في الوقت الذي يُخرَجُ كل آخر من أُخرويته !. لكن باريس كما قلت عديدة وكثيرة. فهي ليست فضاء مفتوحاً من الهويات المتصارعة كما يقال هنا وهناك. إنها كذلك فضاء من التسامح الرحب المنفتح على الآخر المختلف بالضرورة والبربري بالتعريف.

أود الآن أن أعترف: علاقتي بباريس يسودها لَبْس ليس من اليسير وضعه في دائرة الضوء و/ أو الإفصاح عنه. ومن المرجح أن يكون قارئ هذا النص قد لاحظ كيف أن هذا اللبس هو على درجة من الكثافة تستعصي على الإخفاء وعلى التصريح في آن. فكيف لي أن أعرض لهذه العلاقة التي تمتد في زمن يكاد يغطي نصف عمري؟ وكيف يتسنى لي أن أختزل علاقتي بمدينة هي مقر إقامتي الدائمة وغدت مع الأيام موطني منذ أكثر من ربع قرن؟ بل كيف يمكن لي أن أكتب عن هذه المدينة التي غدت مع الزمن جزءاً من هويتي التي هي الطبقة العميقة التي تقبع في أعماق الذات؟ عديد أنا كمثل باريس. فأنا فلسطيني من باريس أو باريسي من فلسطين، وأنا كذلك ملامح أخرى يتعذر حصرها بكلمات. إنني فوق هذا وربما في داخله ذلك الصبي نفسه

الذي كنته في دمشق، بلد اللجوء. إنني عكاوي ودمشقي وباريسي وقبل ذلك إنسان. ولما كنت لا أريد الإستفاضة بهذا البعد الأخير، فأنا ملامح أخرى أيضاً. هويتي هي هذه الخلطة التاريخية التي تتكون في داخلي من غير توقف، وباريس هي مكون كبير فيها.

أؤمن شخصياً بأن الحق في العيش في المدينة هو أحد الحقوق الانسانية التي ينبغي التأكيد عليها وترسيخها في الوعي والمشاعر والدساتير، أقول "حق" لأنني أرى فيه إطاراً مرجعياً يسهم في تمدين المدينة أي في جعلها أكثر ديمقراطية وإنسانية. إنه الحق في التمتع المتساوي بمنتجات الحضارة التي هي للبشر كافة. إنه الحق في الديمقراطية إذن بما هي كسر مستمر للحواجز التي تفصل بين البشر وتمنعهم عن تداول المنافع والسلطة. ألا تعطينا المدنية الحديثة الوهم الجميل في أننا متساوون؟ والواقع أن المدينة تكف عن أن تكون كذلك أي كموطن للمدنية إن لم يكن تنظيمها قائماً على جرعة عالية من الانتساب الطوعي إلى معاييرها ومنظومة قيمها. وهي في اللحظة التي تتعثر طواعية الانتساب إليها، تفقد أُسها كمدينة. فحين يسيطر الاكراه، ويستفحل الاستبداد تدخل المدينة في سيرورة تآكل داخلي قد يودي بها إن طال أمده واستقر في الوجدان. إن المدينة هي موطن الحرية أو الوهم الجميل بالحرية. وما الذي يبقى من المدينة إن تحولت إلى سجن كبير؟ بيد أن مفارقات المدن الكبرى في التاريخ أن ازدهارها ارتبط غالباً ببؤس الملحقات بها من أرياف وأمصار ومستعمرات. إن المدينة هي موطن التناقضات الفاحشة: فيها يتجاور البؤس المطلق والثراء المطلق؛ الفحش والفضيلة، والتضامن والأنانية إلخ، وهي في الوقت نفسه موطن مفارقة كبرى هي أن المدينة مكان التآلف مع هذه التناقضات، واعتبارها كما لو كانت من طبائع الأشياء.

٦/ يتوجب على قارئ مدينة باريس، بحسب تعبير فالتر بنيامين، أن يرى في الشوارع العريضة والساحات الواسعة والأرصفة الفسيحة التي خط لها (هوسمان) في نهايات القرن التاسع عشر، نوعاً من الجمالية "الإستراتيجية" التي هي إبداع هندسي وترتيب أمني في الوقت نفسه. فالشوارع العريضة المستقيمةُ الامتدادِ تكبح الباريسيين عن إقامة المتاريس وتعيق حرب الشوارع وتسهل تدخل قوات الأمن وحركة عرباتها، وتقوي شوكتها إزاء "الجموع". وإذ غدا الشارع الفسيح (البولفار والأفنيو) جزءاً من منظومة متكاملة، تحديثية بالضرورة، من الأسواق

والحدائق والجسور والمسارح وشبكات المياه والإضاءة، فلأن الحياة الاجتماعية دشنتها أسس جديدة هي في جوهرها عنوان بورجوازية انتصرت وأرست قيمها الجمالية والمعيارية في آن.

غير أن المدينة لا تكون كذلك أي كمدينة إلا لأنها الحيّز الوحيد الذي يستطيع فيه الإنسان أن يتحول إلى كائن متسكع. لا مدينة من غير تسكع ومتسكعين يصطادون أسرارها ويرتادون مجاهيلها وغرائبها في الأماكن المجهولة و/أو الخلفية. هكذا يبدو الفارق بين العابر والمتسكع هائلاً. الأول لا يقرأ المدينة ولا يرى فيها كتاباً تمكن معاينته، ولا تدهشه جدتها. في حين أن الثاني، المتسكع، فمكتشف الجماليات التي تتجاوز الأشياء وربما تكمن خلفها. كره بودلير بروكسيل لتعذر "التجوال الطليق" فيها، ولأنه "ليس هناك ما يُرى، والشوارع غير قابلة للاستخدام"

يتعذر احتساب قدرة باريس على تحسس تغيرات العالم وأنساقه الكلية احتساباً كمياً. فالباريسيون يشتكون دائماً من الطبيعة المحافظة لمؤسساتهم، وفي تأخر استجاباتها لتحولات العالم الكبرى. وإذ يسارعون إلى الإعلان عن غضبهم على هذه المؤسسات وإلى لعنة عجزها عن مواكبتها، لا يترددون عن التمسك بها ومطالبتها بحمايتهم إزاءها. لكنك في باريس تعرف أنك في مدينة هي وطن لم ينسجه خيالك فحسب. ففي المفاصل الكبرى، في الأزمات حيث تبدو الآفاق كما لو كانت انسدت، تكتشف الدور الكبير الذي يلعبه المثقفون، المدّعون منهم و"الأصيلون"، في التحليل وفي تكوين الراي العام وتوجيهه. هكذا تكتشف أن للكلمة دوراً مازال كبيراً بالرغم من كل ما يقال عن إضعاف المعلوماتية للنظر والتحليل وغلبة السطحية والركاكة. وبهذه المناسبة، استوقفتني فقرة قصيرة لريجيس دُبْري في كراسه المنشور في ٢٠٠٦ بعنوان "توسل لتقدميي القرن ٢١ الجدد"(٤) تتحدث عن تناقضات عواصم الإمبراطوريات ومفارقات مقال مثقفيها بخصوص هذه التناقضات. فواحدة من مفارقات المجتمع الديمقراطي في الدولة الإمبراطورية أن تزدهر فيها برلمانات في الداخل ومعتقلات في الخارج، وأن "عاصمة الإمبراطورية هي دائماً أفضل ما يمكن للإمبراطورية أن تنتجه" (ص ٥٠). وباريس هي بالتأكيد مركز امبراطورية مازالت بقاياها كثيفة الحضور.

تلعب الثقافة من حيث هي حضور كلي، شامل ولا يقبل التبعيض، دوراً حاسماً في تكوين الحضارة والهوية التاريخية التي تنتسب إليها مكوناتها، جميع مكوناتها على اختلاف مشاربها وأهوائها ونحلها وأصولها. إنها تعددية رغم أنها تميل عموماً إلى حد نفسها وتصويرها كما لو

كانت مفردة لا كثرة فيها ولا تنوع. هذا التناقض الصارخ بين افتراض الواحد و"الأصالة" من ناحية، و"حقيقة" الثقافة المتمثلة في كونها تنوع وكثرة تتدامج وتتصاهر في سيرورة تاريخية لا تنتهي ولا تتوقف، من ناحية ثانية، مصدره أن الثقافة بالتعريف أزمة دائمة وتوتر دائم في التاريخ لأن أُسّها يتمثل في التحدي الكبير المستمر لقدرتها على الإستمرار كثقافة، أي كعلاقة كلّية بالكون والأشياء والآدميين.

بحسب لسان العرب لابن منظور، المدينة مشتقة من الفعل مَدَنَ: أي أقام بالمكان. والمدينة الحصن؛ و"كل أرض يبنى بها حصن في أُصطمتها فهي مدينة". ومَدَنَ الرجلُ إذا أتى المدينة. ويضيف القاموس المحيط للفيروزأبادي إلى تلك المعاني معنى التنعُّم. بيد أن باريس ليست مدينة فقط. إنها قبل ذلك عاصمةٌ، ومركزُ امبراطوريةٍ لم تأفل شمسها كلية بعد، ومازالت ذاكرتها الامبراطورية حية حتى اليوم. والعاصمة في العربية مشتقة من الفعل عَصَمَ أي مَنَعَ، والعاصم هو المانع الحامي. غير أن العاصمة هي كذلك بحسب الفيروز أبادي مدينة. ويربط لسان العرب والقاموس المحيط بين الحضارة والاقامة في المدينة. سميت الحضارة كذلك "لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار".

وبخلاف ما يقوله بعضهم، ليست المدن كائنات حية؛ وليس لها شخصية أو روح تتلبسها وتميزها عما عداها. وباريس لا تخرج عن القاعدة. بناياتها، شوارعها الفسيحة، نهرها الذي يتدفق أبدا، وتنظيمها، ليست هي التي تميز باريس وتحد ملامحها إن كان للمدن ملامح. باريس هي الباريسيون الذين لا يكفون عن الحركة في الأنفاق وفوق الجسور وفي السيارات وعلى الأرصفة المزدحمة غالباً. باريس هي الناس الباريسيون الذين يعرفون في مرآة ذاتهم أنهم باريسيون على الرغم من اختلاف أصولهم ومنابتهم وأهوائهم التي تسكن فيهم.

تقوم العلاقةُ الإنسانية بالمدينة على العاطفة. أنت تحب المدينة أو تكرهها. ولا وسط بينهما. أنت في علاقة حب. من غير ذلك أنت لا تقوى على التعبير. تعوزك اللغة أو بالأصح العبارات التي تصل بكما، هي وأنت، المدينة وأنت. ويخيل لي أن المدينة تنقل لغتها الخاصة إلى سكانها. أنت لست بيروتياً أو دمشقياً أو باريسياً من غير لغة محلية تتوج مواطنيتك فيها. أما أولئك الذين لا يتمثلون مفردات لغتها المخصوصة والشحنة المعنوية التي لها يفقدون الكلام. تتوقف لغتهم عن التعبير، ويفقدون مواطنيتهم فيها.

أختتم بالملاحظة التالي بيانها: إن ما اصطلح على تسميته بالعولمة هو في أسه تسارع في حركة التدامج بين الجماعات التي كانت تفصل بينها عبر التاريخ ما لا يحصى من الفواصل الجغرافية والثقافية والمادية والسياسية، وتباعد بينها، وترجح تنابذها واحترابها. ويتعذر في نظري مقاربة السيرورات التاريخية، الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، المسماة بالعولمة إن لم نضع في منظارنا أنها هي أيضاً سيرورة جارفة من نمو المدن وانتشار قيم المدينة على مستوى المعمورة. ولأعترف بهذه المناسبة بعدم قدرتي على استساغة التعبير الذائع عن القرية الكونية لوصف عمليات التوسع المديني المطّرد على صعيد المعمورة. لا يناسب تعبير القرية/ الكون الظاهرات التي يرغب في الإحاطة بها فحسب، بل هو يدل أيضاً على ضعف في الخيال والمخيلة. وسأتوقف هنا بخصوص التسمية ولن أستفيض، فلهذا ميدان آخر لا محل له هنا.

إحالات

(1) Francesco Alberoni ; Genesi (1989). Traduction française : Genesis. Mouvements et Institutions (1992). Paris. Ramsay.

(2) Jean-Pierre Arthur Bernard (Textes réunis et présentés par) ; Le goût de Paris (3 livres). Mercure de France. Paris. 2004

(3) Marc Augé ; Casablanca. Paris. Seuil. (La librairie du XXI° siècle). 2007

(4) Régis Debray ; Supplique aux nouveaux progressistes du XXI° siècle. Paris Gallimard. 2006

اللغة في الخطاب الروائي- يحيى يخلف نموذجاً

رياض كامل*

مقدمة

تعد سيرة حياة الروائي والقاص يحيى يخلف نموذجا لمئات الآلاف من الفلسطينيين الذين شردوا إبان النكبة سنة ١٩٤٨,[١] فقد كانت ولادته في قرية سمخ جنوب بحيرة طبريا سنة ١٩٤٤، ولما هُجّر منها بدأ مشوار الترحال من قطر لقطر، ومن مدينة لأخرى. كان الأردن محطته الأولى، إذ استقر به المقام في مدينة إربد، وهناك أتم دراسته الابتدائية فالثانوية سنة ١٩٦٣. ثم التحق بدار المعلمين، بمدينة رام الله، وتخرج منها سنة ١٩٦٧. أما هجرته الثانية فكانت سنة ١٩٦٧ حيث ترك فلسطين إلى المنافي، وتمكن من دخول جامعة بيروت العربية سنة ١٩٦٨ لينهي دراسته هناك حاملا شهادة الليسانس في الأدب العربي سنة ١٩٧١. أما هجرته الثالثة فكانت سنة ١٩٨٢، إذ اضطر نتيجة حصار بيروت أن يتنقل مع زوجته وأولاده ما بين بيروت، دمشق، الجزائر وتونس. ثم كانت العودة إلى فلسطين سنة ١٩٩٤ حيث استقر في مدينة رام الله وشغل منصب وزير الثقافة ما بين الأعوام ٢٠٠٣-٢٠٠٦. ويشغل اليوم منصب رئيس المجلس الأعلى للتربية والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية.

استهل يخلف حياته الأدبية ككاتب قصة قصيرة في مجلة الأفق الجديد المقدسية حيث نشر عشرات القصص. أصدر مجموعتين قصصيتين وهما: المهرة (١٩٧٤)، ونورما ورجل الثلج (١٩٧٧)، وله قصة

* ناقد وأكاديمي

بعنوان تلك المرأة الوردة (١٩٨٠)، وساق القصب (١٩٨٠) وهي قصة للأطفال.

عمل يخلف بالسياسة منذ سن مبكرة، متأثرا بالجو العام الذي تمر به القضية الفلسطينية وبما يعصف بالعالم العربي من أحداث. وقد تسنى له أن يتنقل ما بين عدد كبير من الأقطار العربية وبعض الدول الأجنبية، وكان لذلك انعكاسه في إبداعه منذ روايته الأولى نجران تحت الصفر (١٩٧٥) التي استوحى أحداثها من الحرب الأهلية في اليمن التي شهد جزءا منها أثناء مكوثه هناك.[٢] ثم توالت إصداراته الروائية فنشر تفاح المجانين (١٩٨٢)، نشيد الحياة (١٩٨٥)، بحيرة وراء الريح (١٩٩١)، تلك الليلة الطويلة (١٩٩٢) وهي رواية تسجيلية، ثم نهر يستحم في البحيرة (١٩٩٧)، ماء السماء (٢٠٠٨) وجنة ونار (٢٠١١) التي لاقت أصداء طيبة منذ إصدارها. كما أصدر كتاب يوميات الاجتياح والصمود (٢٠٠٢) الذي لا يعتبره صاحبه رواية، «بل شهادة ميدانية، [...] لكن يوجد بداخلها مجموعة من القصص والسرد والحكايا الإنسانية «.[٣]

إن معظم إبداع يحيى يخلف يدور في فلك القضية الفلسطينية منذ النكبة، مرورا بهزيمة حزيران، فحرب لبنان وحصار بيروت حتى الانتفاضة الأخيرة. وهو أحد الكتاب الفلسطينيين الذي تمكن من استقطاب عدد لا بأس به من النقاد والدارسين، فضلا عن مشاركته الفعالة في الندوات واللقاءات الأدبية في العديد من مدن وقرى فلسطين والعالم العربي ككل.

تمهيد

تتناول هذه الدراسة لغة يحيى يخلف الروائية من خلال معاينة روايتيه نجران تحت الصفر، وبحيرة وراء الريح. لم يكن اختيارنا عفويا فاللغة عامل هام في بناء الرواية، ولم ينل، عندنا، من الدراسة حتى الآن ما يكفي، ثم قصدت أن أقيم مقارنة بين هاتين الروايتين لنرى مدى تجاوب اللغة مع اختلاف الزمان والمكان والشخصيات. قمت بتقسيم الدراسة إلى جزئين رئيسين، يتناول الأول عنصر اللغة من وجهة نظر المنظرين والدارسين، أما الثاني فيتناول لغة يخلف الروائية في مستوياتها المتعددة.

تتوالى في الآونة الأخيرة الدراسات العربية التي تتناول الفضاء الروائي والمكان الروائي، وهي دراسات مباركة لأنّا، أخيرا، بتنا نعي الجانب التقني الذي يخص الرواية وفنيتها، بعد أن تمحورت الدراسات في الفحوى والمضمون، بمعزل عن المركبات والعناصر الروائية والشاعرية. ومع ذلك فنحن في أمس

الحاجة للمتابعة في إصدار الدراسات التي تتناول الجوانب الشاعرية والعناصر الروائية مجتمعة، أو منفردة. فاللغة هي الآلة التي تخلق النص الأدبي وبدونها فلا وجود له. ولهذا فإنا نحاول أن نسد ثغرة بسيطة في هذا الجانب، من خلال هذه الدراسة.

دور اللغة في الخطاب الأدبي

يعتبر الباحثون المنظر السويسري فرديناند دي سوسير (١٨٥٧-١٩١٣) مؤسسا لعلم اللغة الحديث، منذ أن وضع الحدود بين اللسان واللغة والكلام. ثم جاء عديدون من بعده وطوروا هذا العلم ليصبح مجموعة من العلوم والنظريات.[٤] المهم في هذه الأبحاث أنها أعطت أهمية كبيرة لدور اللغة في مجال المنطوق والمكتوب، وفي مجال التنظير الأدبي. ولقد كان لتطور الرواية الحديثة في الغرب الدور الفاعل في تطور دراسات المستويات اللغوية في الرواية الحديثة.

إن المتتبع لأهم دارسي الرواية الانجليزية الحديثة ونقادها، منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، مثل بيرسي لوبوك (١٨٦٥-١٩٦٥)، ا.م فورستر (١٨٧٩-١٩٧٠) وادوين موير (١٨٨٧-١٩٥٩) يلاحظ أنهم لم يفردوا بابا خاصا باللغة في مؤلفاتهم التنظيرية،[٥] لكن أوستن وارن ورينيه ويليك في كتابهما المعروف نظرية الرواية (١٩١٦) قد تطرقا في الفصل الذي يتناول «طبيعة الأدب» إلى إشكالية اللغة وخصوصيتها الأدبية وميزا بين لغة الأدب ولغة العلم، ووجدا أن لغة الأدب بعيدة عن التقريرية، وأنها تحمل نبرة المتحدث بها، ولقد انتبها إلى قضية ذات أهمية قصوى في حينه، وهي أن لغة الأدب ذات رسالة تهدف إلى التأثير في القارئ وتغيير موقفه.[٦]

إن اللغة هي الحامل لأفكار الروائي ومضامين كتابته، وهي أشبه بالريشة التي يستعملها الرسام، وبالنوتة التي يستعملها الموسيقي. وهي، في الرواية، الوعاء الذي يحمل جميع العناصر الروائية كالمكان والزمان والشخصيات والسرد والحوار والوصف. وقد ألمحنا أعلاه إلى أن دراسة اللغة قد تم إغفالها في الوقت الذي انصبت جهود الباحثين والدارسين في العناصر الروائية الأخرى، بل تم التعامل معها، في فترة معينة، بنفس المعايير التي تنطبق على الشعر كدراسة المحسنات اللفظية والمعنوية والبلاغية والصور الشعرية وغيرها.

إن الاهتمام باللغة ينبع، كما ألمحنا أعلاه، من كونها الأداة التي يعبر بها الكاتب عن أفكاره كوسيلة

تميز الأدب عن بقية الفنون، إذ عليه أن يوظفها أجمل توظيف ليبتكر من خلالها عوالم جديدة. فمهمة الكاتب أن يحرفها عن مسارها التقليدي ليخلق منها عالما لغويا مغايرا عن لغة الحياة اليومية وعن لغة المعاجم. فللشعر لغته وللرواية لغتها، مما يعني أن هناك اعترافا بخصوصية الأجناس الأدبية، كما يرى الباحث فيصل دراج.[٧]

لقد دعا الباحث الفرنسي رولان بارت (١٩١٥-١٩٨٠) إلى «وحدة الهوية بين اللغة والأدب [...] ذلك، لأنه لم يعد من الممكن تصور الأدب فنا يهمل العلاقة باللغة من كل جهة، خاصة بعد أن يكون قد استخدمها استخدام الأدوات في التعبير عن الفكرة، والانفعال أو الجمال».[٨] فالأدب، في رأي الباحث ساسون سوميخ، «فن لغوي، وإعراض النقاد عن معالجة لغة النص الأدبي يعني إهمال المادة الأولية التي يقوم عليها هذا الفن، وبالتالي فإن تفهم الأثر الأدبي، معنىً ومبنىً، يظل جزئياً وناقصاً».[٩] فقد تكون اللغة أهم ما تنهض عليها الرواية، كما يرى عبد الملك مرتاض، فالشخصية تستعمل اللغة، أو توصف بها، أو تصف هي بها، مثلها مثل المكان والزمان والحدث، فلا وجود لهذه العناصر بدونها.[١٠]

لقد توصل الباحثون إلى موضوع هام جدا يتعلق ببحث المستويات اللغوية داخل العمل السردي، ووجد البعض أنه يتوجب على الكاتب أن يراعي في رواياته جميع مستويات شخصياته الروائية الثقافية، الاجتماعية والفكرية.[١١] ويذهب ميخائيل باختين (١٨٩٥-١٩٧٥) إلى ما هو أبعد فيرى أن «الرواية، ككل، ظاهرة متعددة الأسلوب واللسان والصوت، ويعثر المحلل فيها على بعض الوحدات الأسلوبية اللامتجانسة التي توجد، أحيانا، على مستويات لسانية مختلفة».[١٢]

*****

لقد كان من الطبيعي أن تثار مسألة لغة الأدب إبان عصر النهضة العربية، فكانت المسيرة مضنية وشاقة في شتى الأنواع الأدبية. فقد عانى بعض الشعراء المجددين مما لاقوه من تعنت وتزمت إزاء «الانفلات» من قيود «عمود الشعر» ليس في مجال الوزن فحسب، بل في مجال اللغة أيضا، وكان من الطبيعي أن تثار هذه القضية في مجال المسرح، وبالذات حول لغة الحوار المسرحي منذ عقود، وما زالت تطرح حتى اليوم بين الفينة والأخرى.

ولما بدأت الرواية الحديثة تشق طريقها نحو اللغة العربية، بدءا من مرحلة الترجمة والتمصير

والتعريب والتقليد، أثيرت مسألة اللغة، أيضا، من جميع النواحي، وكان على الروائيين أن يتحدّوا ما كان مألوفا منذ مئات السنين. فقد نظر البعض إلى اللغة الفصحى الكلاسيكية بنوع من التقديس بحيث لا يجوز لأحد المس بها. فضلا عن ذلك فقد تصدى البعض لهذا الجانر الأدبي «الدخيل» موجهين هجومهم الكاسح نحو «أخلاقيات» الرواية التي تطرح مواضيع غير مألوفة في المجتمع العربي، برأي هؤلاء. وكلنا يعلم قضية «تخفي» مؤلف رواية زينب (١٩١٣)[١٣] الدكتور محمد حسين هيكل (١٩٨٨-١٩٥٦) وراء «مصري فلاح»، وعنونتها «مناظر وأخلاق ريفية»، وذلك لأسباب عدة منها مسألة اللغة التي اعتمدها المؤلف في روايته.

لقد نادى البعض، في حينه، إلى ضرورة التمسك باللغة العربية الكلاسيكية، وربما كان هذا هو الباعث وراء كتابة حديث عيسى بن هشام (١٩٠٧) لمؤلفه محمد إبراهيم المويلحي (١٩٥٨-١٩٣٠)، على منوال بديع الزمان الهمذاني. ثم قام آخرون معبرين عن رأي آخر مناقض تماما، وذلك في مسألة مستويات اللغة الأدبية سواء كانت في السرد أو في الحوار. واعتبر هؤلاء أنه من الصعوبة بمكان الالتزام باللغة التراثية القديمة وأساليب الكتابة القديمة لأن من شأنها، برأيهم، أن تمس بالمستوى الفكري والاجتماعي للشخصيات، كما سنرى لاحقا.

ولقد جاء التغيير أخيرا على يد الروائيين العرب أنفسهم بعد أن خاضوا عملية الكتابة الروائية الفعلية في القرن العشرين، وبعد تكثيف الإنتاج، بدايةً في مصر وفي بلاد الشام، ومن ثم في شتى أقطار الوطن العربي، وتمكنوا من «اختراق» وتعدي ما كان مألوفا منذ قرون. عمد هؤلاء إلى اللغة العربية الفصحى الحديثة، أو اللغة القريبة من العامة لأن رواياتهم تستمد أحداثها من واقع الحياة، لا من التاريخ فقط، كما كان عليه الأمر عند نشأة الرواية العربية الحديثة. وتوصل الروائيون إلى أن اللغة الفصحى، في مستوياتها المختلفة، هي لغة القص ولغة الوصف، وهي اللغة التي يفهمها كل مواطن عربي حيثما تواجد.

إن أسلوب الرواية، حسب باختين، «هو تجميع لأساليب. ولغة الرواية هي نسق من اللغات، [...] وهي التنوع الاجتماعي للغات، وأحيانا للغات والأصوات الفردية، تنوعا منظما أدبيا. وتقضي المسلمات الضرورية بأن تنقسم اللغة القومية إلى لهجات اجتماعية، وتلفظ متصنع عند جماعة ما، ورطانات مهنية، ولغات للأجناس التعبيرية، وطرائق كلام بحسب الأجيال والأعمار، والمدارس والسلطات، والنوادي والموضات العابرة، وإلى لغات للأيام (بل للساعات) الاجتماعية

والسياسية (كل يوم له شعاره، وقاموسه ونبراته)».[١٤] ويرى جان موكاروفسكي أحد ممثلي البنيوية التشيكوسلوفاكية، أنه من الممكن تقسيم لغة مجتمع معين في لحظة تاريخية معينة إلى لغات جماعية وإقليمية متعددة.[١٥]

حين نقرأ تنظيرات باختين في مجال تعدد اللغات واللهجات يخيل إلينا وكأنه يتحدث عن خصوصيات اللغة العربية، وعن فوارق اللهجات بين قطر وقطر، وبين مدينة عربية وأخرى، بل وبين حارة وأخرى داخل المدينة أو القرية الواحدة، وعن الفرق الشاسع بين اللغة المكتوبة وبين المحكية في العالم العربي. من هنا يجدر بنا أن نتساءل: هل كتاب الرواية العربية يدركون هذه الإشكاليات وهذا التنوع الأسلوبي والكلامي؟ وهل يقومون بتطبيق ذلك أثناء الكتابة والتأليف؟

يرى الباحث شكري عزيز الماضي «أنه لا بد للروائي من دراسة اللغة وطاقات الألفاظ والجمل والصور وقدرات الخيال على الابتكار وإيجاد العلاقات الجديدة بين مفردات الواقع التي توجد بينها هذه العلاقات من قبل أن يوجدها الفنان [...] ولهذا تتصف لغة الرواية رغم بساطتها الظاهرية -كما ترى- بقدرتها على أن تصف وتصور وتحدد وتوحي وتومئ وتؤثر وتقنع، فهي لغة تصويرية بالدرجة الأولى».[١٦] أما محمد برادة فيرى أن ليس لدى جميع الروائيين العرب معرفة ووعي بمسألة التعدد اللغوي وامتداداتها الفنية، إلا أن ذلك لا ينفي إمكانية إنتاج نصوص متوفرة على التعدد اللغوي بطريقة أو بأخرى، وهي موجودة منذ بدايات القرن العشرين.[١٧] ونحن نؤكد أن الروائي الذي لا يعي دور اللغة ولا يعمل على توظيفها بما يتلاءم مع الفضاء الروائي والشخصيات فسيظل مقصرا عن الوصول إلى القارئ، خاصة المتمرس، أو السوبر كما يسميه ريفاتير. شأنه شأن الرسام والنحات، والموسيقي، فلكل أدواته وعليه أن يجيد استعمالها، واللغة، كما قلنا، هي أداة الروائي.

بالرغم من «الهجوم» الكاسح الذي تعرضت له الرواية العربية الحديثة في بداية مشوارها إلا أننا نشهد كيف أن محمد حسين هيكل قد تجرأ على إقحام الحوار العامي في روايته زينب التي يعتبرها الدارسون والباحثون الرواية العربية الفنية الأولى. كما يستطيع الدارس أن يميز مستويات اللغة الاجتماعية التي تراعي المستوى الفكري لبعض شخصيات هذه الرواية.

إننا لا نأتي بجديد حين نقول إن اللغة كائن حي يتغير حسب الزمان والمكان، فاللغات الأوروبية، كما يرى الباحثون، قد تقلبت وتبدلت من عصر لعصر، فلغة شكسبير في أشعاره وفي مسرحياته ليست لغة القرن العشرين أو الواحد والعشرين. كذلك الأمر بالنسبة للغة العربية فقد مرت

بما مرت به جميع اللغات الحية، فلغة الشعر الجاهلي ليست لغة العصر العباسي، ولغة العصر العباسي، في مفرداتها وأسلوبها، ليست لغة عصر النهضة. لقد شهدت اللغة العربية، هي الأخرى، كغيرها من اللغات، صراعات طويلة ومضنية، وربما أصعب بكثير من تلك التي خاضتها اللغات الأخرى، وخرجت من كل صراع، سواء في الشعر، أو في المسرح، أو في الرواية بصورة جديدة وبإنجاز حداثي يتناسب مع العصر ومع الجانر الأدبي.

وعليه يطرح السؤال هل وفق الكاتب الفلسطيني يحيى يخلف في ترويض خطابه الروائي بحيث يتماشى مع شخوص رواياته ومع البيئة المحيطة بشخوص رواياته في السرد والحوار؟ وما هي الوسائل الفنية والتقنية التي وظفها؟ وما مدى نجاحه في ذلك؟

لغة خطاب يحيى يخلف الروائية

لم يقع اختيارنا على هاتين الروايتين اعتباطيا أو عفويا، فلقد اخترنا نجران تحت الصفر لأنها رواية يخلف الأولى التي كتبت سنة ١٩٧٥، وهي، كما ذكرنا، تصور البيئة اليمنية إبان الثورة في سنوات الستين، وتتناول الحرب الأهلية التي نشبت بين مؤيدي الإمام ومؤيدي النظام الجمهوري حينذاك. كما اخترنا رواية بحيرة وراء الريح لأنها تصور بيئة فلسطينية مغايرة عن تلك التي تصورها رواية نجران تحت الصفر. إذ صدرت سنة ١٩٩١، وهي تصور الوضع الفلسطيني إبان النكبة وحيثياتها.

يتخذ يحيى يخلف، شأنه شأن جميع الروائيين العرب، اللغة العربية الفصحى «الحديثة» وسيلة لسرد الأحداث في مجمل رواياته، وهي لغة شديدة الصلة بالبيئة وبالمحيط الذي تدور فيه الأحداث. نعود ونؤكد أنه لا يجوز لنا الحديث عن اللغة بمعزل عن الإطار الزمكاني، وبمنأى عن شخصيات الرواية، لأن هذه العناصر كلها وثيقة الصلة ببعضها البعض. ولقد رأينا أن الكاتب قد وظف لغة السرد التصويرية القادرة على نقل البيئة النجرانية خاصة، واليمنية عامة، بحيث نتجرأ على القول: إن لغة الرواية في نجران تحت الصفر هي لغة «يمنية نجرانية» في معظمها، إن جاز لنا التعبير، وهي «لغة فلسطينية» في روايته بحيرة وراء الريح، بل في مجمل رواياته ذات البيئة الفلسطينية.

تمكن الكاتب يحيى يخلف، منذ الصفحة الأولى من رواية نجران تحت الصفر، أن يقنع المتلقي بصدق الوصف والتصوير، وكأن عملية إعدام أو ذبح اليامي في مطلع الرواية لا يجوز أن توصف وتصور إلا بهذه اللغة، وبهذا الأسلوب الدال والإيحائي. فهي لغة مطعمة بنكهة الأجواء اليمنية من

شراب شعبي ونباتات وحبوب وتوابل و»قات». وهي لغة ذات إيحاء دال على الأجواء المحتقنة، وما ستؤول إليه الأمور فيما بعد من انفلات وانقلاب وثورة وحرب أهلية، كما يتبين لنا من افتتاحية الرواية:

«أقبل المطوعون، وطلبة المعهد الديني، وأعضاء جمعية الأمر بالمعروف، وحرس الأمير، والخويان، وباعة المقلقل، وسيارات الونيت، وعدد من مرتزقة (بوطالب)، وواحد من الزيود. أقبل الغامدي شيخ مشايخ التجار، وسمية عبدة السديري سابقا وبائعة الفجل حاليا..

أقبل أحمد شاهي، الطبيب الباكستاني في سيارة الإسعاف، وأطلت من (الدريشة) غالية ابنة السميري قائد قوات الإمام.. ومن مطعم الحصري، خرج (أبو شنان) الذي أطلق سراحه حديثا لأنه أفطر عامدا متعمدا في رمضان.

ورفع مدير مكتب الإشراف هاتفه، واتصل بالمدرسة المتوسطة، فانطلق الصبية عبر شارع الزيود إلى الساحة الواسعة- التي تتحول أيام الاثنين إلى سوق من أسواق العصور الوسطى- ، وتقافز الصبية والطلبة فوق أكياس المستكة والبهار والحبهان والمحلب والمروحة والحناء.. ودفعة واحدة.. صمتت بيوت نجران.. تسلل السكون إلى أزقتها ومنعرجاتها، وملأ فجوات الأبواب، وشقوق النوافذ. أحاط الناس بالساحة الواسعة من جميع الجهات، وصعد الذين ضاقت الساحة عن استيعابهم إلى سطوح المنازل التي تبدو كقلاع تنتمي إلى عصر ما..»[١٨]

يستطيع القارئ أن يلاحظ أجواء الترقب، لا من خلال الوصف فقط، بل من خلال التفصيل الدقيق للحشد، ومن خلال تكرار الفعل «أقبل»، وكأننا إزاء مقطع من مسرحية يغلب عليه عنصر المشاهدة بأم العين، ما يعني أن هناك مشاعر جياشة في النفوس تفور وتغلي وتتأهب. فكل مفردة لها دورها، وكل فعل له إيحاء، وإلا ما سر هاتف مدير الإشراف الذي اتصل بمدير المدرسة؟ وما سر انطلاق الصبية عبر الشارع؟

إن تصرف الصبية، بحد ذاته، أمر عفوي وواقعي، ولكنه ينم عن فكر إجرامي مدروس ومخطط له، قام به المسؤولون كي يشاهد الجيل الجديد عملية ذبح اليامي المعادي للإمام، فيكون عبرة لمن اعتبر، وخاصة لجيل المستقبل. أما صمت بيوت نجران فهو يوحي بالحزن والغضب، وبالترقب والتحفز. جاء كل ذلك على لسان السارد بضمير الغائب، وهو راو مشرف كلي معلق. هذا الأسلوب السردي

التقليدي الذي يعرف بالملحمي، لكن الروائي- الذي يتستر من وراء الراوي- تمكن من توظيف عدة وسائل أسلوبية جعلت السرد بعيدا عن التقريرية والمباشرة، ومنها، كما ذكرنا آنفا، المشهد المسرحي المتمثل في تصوير الحشد تمهيدا لتنفيذ الإعدام، ثم عملية التكرار الإيحائية، حتى وإن لم يذكر الفعل «أقبل» بعينه في مواقع معينة، لأن القارئ يدركه من السياق، ثم هناك اللغة الإيحائية الشاعرية في مثل «صمتت بيوت نجران..» وهي عملية إسقاط (projection) من شأنها أن تقتل عيب المباشرة والتقريرية.

أما الأجواء فهي أجواء نجرانية، في ظل زمان بعينه، ندركها من خلال الصورة الشاملة التي تعكس أجزاء من النسيج الاجتماعي أثناء الحرب الأهلية، وقد طعم السارد هذه الأجواء بتصرف الطلبة وهم يقفزون فوق أكياس البهارات والتوابل الشائعة في اليمن، وكي تكتمل الصورة فقد أورد لنا في الأسطر القليلة التي تلي الافتتاحية أعلاه صورة أحد الأشخاص وهو "يمضغ القات"، وكأن الأجواء اليمنية لا تكتمل ولا تكون واقعية دون ذكر القات الذي يدمن اليمنيون على مضغه منذ عقود. كما يلمح القارئ، من خلال اللغة الوصفية، تلك الأجواء النجرانية التي يصر الروائي على نقلها للمتلقي لتتم عملية "الإيهام بالواقع" وذلك من خلال التصوير الدقيق للبيئة تصل إلى حد ذكر الأغاني التي يستمع إليها أهل نجران مثل أغنية طلال مداح الشهيرة "يا سارية خبريني"،[١٩] أو «يا دوب مرت علي» للمطرب أبو بكر سالم.[٢٠] وكي تكتمل الصورة وتتم عملية «الإيهام بالواقع» يمهد السارد لعملية القتل بلغة «يمنية»، كما نص على تسميتها: «..... (القات اختمر، ومن جديد عز النعاس الصعب، واختلط الحابل بالنابل، والعويل بحجر المسن، وصراخ (بو طالب) برضاب أصفهان، وصحن المقلقل بالعصيدة المرة)».[٢١]

ذكرنا أعلاه أن اللغة ترتبط بالفضاء الروائي ارتباطا عضويا وثيقا، وهو لا يتحدد من خلال وصف معالم الشكل الخارجي فحسب، بل من خلال عدة مركبات، منها العادات والتقاليد والشراب والمأكل والملبس، وطريقة التصرف. فالأوصاف البيئية كلها نجرانية. ولو قمنا بمتابعة القراءة فسنجد هذا الجانب بوضوح، إذ أن النص اللغوي أعلاه يعتمد على صور وتشبيهات تتداخل فيها الأطعمة لتعطي نكهة يمنية فيها «القات» و«المقلقل» و«العصيدة».

كما نستطيع من خلال المعاينة الدقيقة أن نلمح المستويات المتعددة للغة الخطاب في تماهيها وتماثلها مع الشخصيات ومع البيئة العامة والمستوى الفكري والثقافي، لا في الحوار فحسب، إذ ان

القارئ يستطيع، عادة، أن يميز بسهولة هذا التنوع في لغة الحوار أكثر مما هو في لغة السرد. وبما أننا إزاء افتتاحية الرواية التي تصور مشهد تنفيذ الإعدام فإننا نلاحظ سيطرة اللغة الحادة الخشنة، من خلال السرد والتصوير والحوار، فالأحداث تصور حربا أهلية فيها قتلى وفيها تدمير وتشريد، وفيها ظالم ومظلوم، وفيها فقر مدقع. إن هذه اللغة غالبة في النص، منذ الصفحات الأولى من هذه الرواية. من هذه الأمثلة مشهد إحضار اليامي إلى الساحة العامة لتنفيذ الإعدام:

«وتقدم رجلان وقفا عند بابها الخلفي، انحبست الأنفاس، وفجأة انفتح باب السيارة الخلفي عن اليامي.. وجه منحوت من الصخر، وعينان ثابتتان.. حول الرقبة قيد تتدلى منه سلاسل تتصل بقيود رسغيه وقدميه.. كان الصمت هائلا، ومثل حجر الطاحون ثقيلا..

ظل المستر يسلط عدسته على العينين.

تقدم الرجلان، وأمسكا بذراعي اليامي، انتتر فاصطدمت حلقات السلاسل ببعضها البعض، ودفعة واحدة أنزلاه إلى الأرض، فارتطمت قدماه بالتراب ذي الرائحة المحروقة.. جحظت عينا سمية، وبدا كما لو أنها فقدت النطق».[٣٢]

المشهد المسرحي يسيطر على النص متيحا الفرصة للمتلقي أن يتخيله، وكأنه يراه بأم عينه، فيصبح جزءا مشاركا لشخوص الرواية في تحفزهم وتوتر مشاعرهم، والألفاظ خشنة مثل: «وجه منحوت بالصخر»، «انتتر»، «اصطدمت»، و«ارتطمت». والجمل قصيرة مكثفة تكثر بينها الفواصل والنقاط لتنم عن توتر وترقب وألم وخوف. وبما أن المشهد مأساوي قريب من المسرحة فقد غلبت على اللغة عناصر الدرامية والمأساوية، وبالتالي فهي لغة موظفة للتأثير في القارئ، كما جاء على لسان بعض المنظرين في حديثهم عن لغة الرواية.

إن إيراد الكلمات والمفردات أعلاه، كأمثلة، غير كاف للتدليل على ما نصبو إلى إيصاله، بل علينا التأكيد على أن المفردات والتعابير والصور وتناغمها الكلي من ملفوظ ومضمون هو العامل الرئيسي في فهم دور اللغة. فحين تنتقل الأحداث للطرف الآخر حيث جماعة الإمام والجنود الأجانب فإن رائحة «المستر» و«غليونه»، والأغاني، وصورة المكان تتغير وتتبدل، فتتغير معها اللغة وتتبدل اللهجة والنبرات الصوتية، وللتدليل على ذلك نورد المثال التالي:

«عبرت السيارة الحاجز، وقطعت طريقا وسط الأشجار الشوكية الجافة، ثم انعطفت ودخلت

المعسكر..

ثمة رجل يقف عاريا تحت دوش ماء، جسده أشقر، ويخلو من الشعر كأجساد النساء، وعلى اليمين صف من الكبائن، أمامها برك للسباحة، وكانت امرأة تلبس المايوه تتهيأ للقفز في الماء».[٢٣]

إن الصورة المعروضة هنا لم ترد عفوا، بل هي صورة مناقضة للواقع الذي يعيشه أهل نجران الذين يقبعون في ظروف الفقر والجوع والفاقة، وكأن هذا المشهد يتم توظيفه لإثارة الطرف الآخر واستفزازه، دون التغاضي عن دور المتلقي الذي يعمل الراوي، بدافع خفي من الروائي، كي يجنده إلى صف الفقراء والمظلومين والثوار. هنا الأجساد تختلف في لونها عن تلك، وظروف حياة هؤلاء فيها من الترف ما يتيح للجندي أن يستحم في برك للسباحة، وهناك في مكان آخر في نجران مياه ملوثة ونساء بلون الأرض لا يعرف الترف طريقه إليهن.

*****

إننا إزاء رواية واقعية، وقد تعمد كتاب الرواية الواقعية أن لا يتقيدوا باللغة الفصحى في الحوار، وأجازوا لأنفسهم استخدام العامية المحضة، أحيانا، والفصحى الممزوجة بالعامية، أو العامية المفصّحة، وهذا ما يقوم به كاتبنا يحيى يخلف، ولكنا نجزم أن الحوار في هذه الرواية، وفي كل الأحوال، هو حوار مبسط، قريب من المستوى الفكري والثقافي والاجتماعي للشخوص، حتى ولو ورد باللغة الفصحى. فهذه سمية المرأة اليمنية الحنون التي تنتمي لطبقات الشعب العادية يرد الحوار فصيحا على لسانها أحيانا: «رأيته في منامي.. كان يلبس ثوبا أبيض.. وكان في هيئة شيخ جليل ذي لحية بيضاء مسترسلة..»[٢٤] وفي أماكن أخرى يرد الحوار على لسانها بالعامية، وفي كل الأحوال يظل الحوار جزءا من شخصيتها ومن فكرها ورؤيتها للحياة المرتبطة بالبيئة وبالمحيط الذي تعيش فيه.

يكثر الحوار في رواية نجران تحت الصفر بكل الوسائل والأساليب التي أشرنا إليها سابقا، ونقع على حوارات بالفصحى، كما ذكرنا، لكن الراوي يبذل مجهودا كبيرا لتنطق كل شخصية بلغتها لا بلغة السارد أو الروائي، وهي حوارات تصويرية تساعد على إضفاء روح الواقعية التي تتلاءم مع الجو العام للرواية، ولنا على ذلك أمثلة عديدة منها:

تضحك على غير العادة يا بو شنان.

قال رأفت، فأجابه بوشنان:

ألم تشاهد كبير المطاوعة؟

هز رأسه: بلى شاهدته.

ألم تسمع بما جرى لزوجته؟

نفى رأفت برأسه...

كيف.. كل الناس يعرفون.. حتى باعة المقلقل.

مسح رأفت يده بقطعة قماش وبدأ يصغي بانتباه. استمر بو شنان يقول:

قام بختانها فأصابها نزيف وقد شاهد الطبيب الباكستاني فرجها..»[٢٥]

إن الحوار أعلاه، كما نرى، يدور بين شخصين باللغة بالفصحى، وهو يصور حالة من الشماتة التي تشعر بها شريحة من المجتمع تنظر بعين الكراهية تجاه "كبير المطاوعة" الذي تحكّم وتجبّر بالناس دون قيود، فتحقق لها جزء من مأربها، فعبرت عن ذلك بلغة تتلاءم مع عادات هذا المجتمع وتقاليده وأفكاره. مما يعني أن الروائي يبذل مجهودا في إنطاق شخوص رواياته بما يتناسب مع فكرهم وثقافتهم وموقعهم الاجتماعي، وزاوية رؤياهم، سواء دار ذلك الحوار بالفصحى أو بالعامية. وهذا ما نلمسه أيضا في السرد الفصيح كما نرى في النص التالي: "شعر كبير المطاوعة بالعري، أحس أن الناس تحدق بلحمه.. بعورته.. بقفاه.. "[٢٦]

اللغة هنا تصور بيئة صعبة في ظل ظروف قاتمة فنصطدم بتعابير عامية (قفاه)، أو شبيهة بلغة العامة لأنها تتماثل وتتلاءم مع ما يمر به البلد من إسفاف وانحطاط. إننا نعني من خلال هذه المقارنة البسيطة أن الكاتب قد بذل جهدا للحفاظ، في السرد وفي الحوار، على إنطاق وتشخيص أبطال روايته بلغة تصور البيئة والمستوى الفكري الملائم لهم ولوضعياتهم النفسية.

وفي مواقع معينة نرى الحوار قصيرا مقتضبا وحادا إلى حد البتر حين يدور بين أشخاص لا يتماثلون بالرأي والرؤيا:

«هات لنا بيبسي يا ولد.

ثم التفت ورمق بوشنان قائلا:

يا بوشنان.. كنت في مكتب بو طالب.. إنه يبغي يشوفك.

كان عدد من الزراجيل يقرقر وكان ثمة ذبابة كبيرة تئزّ عند أذن الزيدي دون أن يعيرها التفاتا..

إيش يبغي بو طالب.. هه ماذا يريد؟

أحضر الولد (ابن عناق) زجاجة كولا تناولها الزيدي وملأ فمه منها، فارتسم على ملامحه الامتعاض، ثم بصقها وشتم بصوت عال:

هذه بيبسي أم بول حمير يا ابن الفاعلة؟..

طأطأ ابن عناق رأسه وهمس لنفسه: اللقمة صارت معجونة بالزفت... تفو على الحظ حقي.

خذ.. هات لي شاهي.. وشيشة...

استدار منصرفا فقال بو شنان:

يا زيدي حرام عليك.. هذا ولد غلبان»[٢٧]

إنه حوار بين المتجبر الذي يتلقى الدعم من السلطة، وقد تنازل عن كرامته ،بعد الممارسة المتواصلة لدور "الكلب" الخسيس الذي ينقل الأوامر، فجاء كلامه مماثلا لدوره في البذاءة والخسة، وبين ضعيف لا حول له ولا قوة يرى نفسه مضطرا لتنفيذ الأوامر حفاظا على لقمة العيش، أو حفاظا على الرقبة من البتر، ومع آخر أكثر تمرسا في الحفاظ على ماء الوجه فيحاور محافظا على كياسته، لكن بتحفظ وحذر.

لقد ورد الحوار في المثال الأول باللغة العربية الفصحى. أما في المثال الثاني فهناك بعض الجمل الحوارية التي يمكننا أن نطلق عليها "اللغة الثالثة"، تلك اللغة التي تقرأ بالفصحى وبالعامية. كما نلاحظ جملا تتداخل فيها الفصحى بالعامية، لكن ما يجب التأكيد عليه أن الحوار يعكس مستوى الشخصيات والأجواء المحيطة بها، فنراها نابية حين تنطلق من خسيس، ومتشفية حين ترد على لسان مظلوم، وحذرة حين تقتضي الحاجة. هل هذا يعني أن الكاتب قد أجاد في كل حواراته؟

يستطيع الدارس والباحث أن يقع على بعض الهنات هنا وهناك في مثل الجملة الحوارية أعلاه "إيش يبغي بو طالب.. هه ماذا يريد؟"، إذ كنا نتمنى ألا يرد التساؤل "ماذا يريد؟" بالفصحى فهو دخيل أشبه بالشحم الزائد أسلوبا ومضمونا.

*****

وجدنا أن الكاتب قد حرص على استعمال اللغة الفصحى الحديثة في السرد، وعلى التنويع في الحوار. فكان النص في بعض المواقع، وحين تقتضي الحاجة، لغة شاعرية، وتصويرية وإيحائية. كما يستطيع القارئ أن يلمس الدقة في تصوير بيئتين متناقضتين، الأولى بيئة اهل نجران في فقرهم وذلهم، وفي غضبهم وحقدهم على الحاكم وعلى الداعم الأجنبي، والثانية بيئة مؤيدي الإمام والجنود الأجانب في ترفهم وانغماسهم في الجنس وفي استغلالهم للفقراء والمعوزين، موظفًا النبات والشجر والحيوان والأطعمة و"القات" والتوابل و"الغليون" والروائح والألبسة كجزء من البيئة. ولقد خصص حيزا أكبر للبيئة الأولى أكثر مما خصص للبيئة الثانية. مع ذلك لا يظنّن أحد أن الرواية قد حرصت على تعدد الأصوات وتعدد اللغات وتعدد الأساليب بالمفهوم الذي يراه ميخائيل باختين، فالراوي المشرف الكلي المعلق قد طغى على بقية الأصوات، لكن هذا الراوي العليم قد وظفه الروائي للحفاظ على تنويع في السرد وتنويع في الحوار فجاء الوصف دقيقا للبيئتين ولتنوع الشخصيات، وجاء الحوار، خاصة، ملائما لأفكار الشخصيات وتفاوت رؤاهم وتنوع زوايا النظر لديهم.

******

يصدر يحيى يخلف روايته بحيرة وراء الريح بعد حوالي ست عشرة سنة من صدور روايته نجران تحت الصفر، وقد رأينا كيف حرص الروائي على مواءمة اللغة مع البيئة ومع مستوى الشخصيات الفكري والثقافي والاجتماعي في روايته الأولى. فهل حرص على ذلك في روايته الثانية؟ وهل وفق في ذلك؟

إن يخلف في روايته الثانية صاحب تجربة أكبر فتعددت اللغات واللهجات، تجاوبا مع تعدد البيئات والشخصيات، ففيها أهل سمخ في تشابه مواقعهم واختلاف رؤاهم، والبحيرة ما قبل اندلاع الحرب وما بعدها، والطبيعة المحيطة بالبلدة، والمواقع الجديدة التي اضطروا لرؤيتها بعد الهجرة مباشرة، والمحاربون ولغتهم والفلاحون والتجار والمتطوعون من الأقطار العربية، وفيها ذكريات عبد الرحمن العراقي وأوراقه. إن حديثنا عن البيئات المختلفة وربطها باللغة لعلمنا أن «الفضاء الروائي، مثل المكونات الأخرى للسرد، لا يوجد إلا من خلال اللغة، فهو فضاء لفظي بامتياز»[٢٨]

يحاول يخلف في روايته الثانية أن يلجأ إلى وسائل وأساليب جديدة ليتحرر من ربقة الراوي العليم

المعلق، فنراه يعود إلى أوراق عبد الرحمن العراقي، كما أشرنا سابقا، وإلى وسيلة أخرى شبيهة بنشرة الأخبار، إذ يتوقف السرد المباشر على لسان الراوي، لننتقل إلى عنوان ثانوي أشبه بالتوثيق التاريخي. وهذا العنوان يحمل توقيتا حسب ساعة معينة لا حسب اليوم والشهر والسنة، وفي هذه «النشرة» توثيق لما يدور في هذا الوقت بالتحديد، فنسمع صوتا خفيا هو صوت إحدى الشخصيات ممزوجا بصوت الراوي.[٢٩]

*****

ما يلفت النظر هو افتتاحية الروايتين، فقد افتتح الراوي نجران تحت الصفر بالفعل الماضي، وتابع في ذلك مع بداية كل فقرة جديدة، حتى نهاية الفصل الأول. أما في روايته بحيرة وراء الريح فقد افتتحها بالفعل المضارع، إذ أحصينا واحدا وخمسين فعلا مضارعا مقابل اثني عشر فعلا ماضيا في الصفحتين الأولى والثانية. وجدنا أن المشترك بين هاتين الافتتاحيتين هو وصف حالة الترقب والخوف والهلع مما هو آت. وبالرغم من نجاح الافتتاحيتين إلا أننا نرى أن الروائي كان في روايته الأولى أكثر تمسكا بالأسلوب الكلاسيكي التقليدي، فهو يصف حدثا قد مرت عليه فترة من الزمن، فوظف الفعل الماضي، وكان التركيز على المشهد المرئي أكثر مما هو على تصوير النفسية. أما في الثانية فهو يصف حالة نفسية أكثر مما يصف مشهدا ماضيا، على الرغم من الصورة المرئية التي يعكسها النص الافتتاحي: «يجلس (راضي) في دكان خاله وراء الميزان الشاقولي، وفي انتظار عودة خاله يبيع قليلا ويسأم كثيرا..».[٣٠]

إن توظيف الفعل المضارع في تصوير أمر قد حدث في الماضي جاء ليؤكد على حالة ترقب مستديمة، وهذا الترقب يدور في داخل شخوص الرواية من أهل سمخ، لا في المشهد الذي يعرض أمامنا، ولذلك فقد ساهمت هذه الطريقة في الدمج ما بين الداخل والخارج كما نرى في الجملة أعلاه، ففي القسم الأول منها وصف للمشهد المرئي، وفي الثاني تلميح للداخل «ويسأم كثيرا». وما هذا الترقب إلا لما هو آت، أكبر وأهم من مجرد الجلوس في دكان بانتظار الزبائن، بل هو انتظار المجهول المرعب.

باتت لغة الروائي، كما نرى، أكثر وعيا ودقة في تصوير الحدث وتحريكه فتمكنت من استفزاز القارئ وإثارته وفتح باب الفجوات الذي يثير التشوق لدى المتلقي، وبالتالي يغدو النص في مقصده أبعد من معناه المباشر. فحين نقرأ نصا لمشهد مرئي فما علينا إلا التفكير بما وراء الوصف، أو حين يرد تعليق ما على تصرف ما أو حركة ما فإن علينا ألا نأخذ هذا التعبير أو هذا التعليق بعفوية، بل

علينا أن ننظر إلى دافعه وإلى ما وراءه. ولنا على ذلك أمثلة عديدة، خاصة في افتتاحيات الفصول.[٣١]

يحرص الروائي في هذه الرواية على انطاق شخصياته وتصويرها بلغات ولهجات تتلاءم مع وضعياتها وحالاتها النفسية، فالنص يتلاءم مع البيئة الفلسطينية في عاداتها وتقاليدها وفي أسلوب حياتها اليومي من هم وقلق وفرح، وكاتبنا اعتمد أصلا اللغة الفصحى «الحديثة»، لا في سرده فحسب بل في حواره ايضا، وإن تسربت تعابير ومفردات محكية داخل النص تتلاءم مع شكل البيئة الفلسطينية في منتصف القرن العشرين، وأسلوب حياة السكان في تلك الفترة الزمنية.[٣٢]

إن القارئ المتمعن قادر على التمييز ما بين لغات عدة تهدف إلى نقل صور متعددة لشخصيات تتفاوت مواقعها الاجتماعية والفكرية، وكاتبنا لديه حس واع للغات الأفراد والجماعات، فنراها مفخمة حين تبدر من كاذب، وساخرة ومؤلمة حين يتم تصوير موقعة خائبة، على سبيل المثال. وبما أن الرواية تصور حدثا مفصليا في تاريخ الشعب الفلسطيني فإن لغة الراوي الرئيسي حزينة مؤلمة، نعثر في تصويرها وعرضها على الكثير من المفارقة المرة، وبالتالي فهي لغة موظفة ومجندة لخدمة الروائي المتخفي.

يصر يخلف على نقل الحوار بالفصحى، لا بالعامية وإن كان يضمّنها، أحيانا، كلمات وتعابير عامية من الحياة اليومية، لكن هذا الحوار ينقل صورة لناطقها، فنرى، على سبيل المثال، سذاجة المواطن العادي وهو يتحدث عن تلك الدرع «الواقية» التي اشتراها الفتى راضي من جندي انجليزي أثناء مغادرته البلاد وعودته إلى موطنه، وكأن هذه الدرع هي التي ستجلب النصر في المعارك المقبلة:

«ولم يستطع عبد الكريم الحمد أن يمنع نفسه فتكلم:

- لقد تحدثت عن الدرع.. هه.. قل لي.. ماذا حل بتلك الدرع؟

كان عبد الكريم يسأل بغريزة حب الاستطلاع عن تلك الدرع التي ربح بها خمسة جنيهات [...].

- الدرع بخير يا عبد الكريم.. الدرع بخير لن يمسها سوء ما دام لابسها أحمد بيك.»[٣٣]

وفي موقع آخر سابق كنا قد قرأنا الحوار التالي:

- «أرجو أن تحملها معكم يا سيدي وأن تقدمها هدية لسيادة المفتش العام، هدية وذكرى من جنوده الأوفياء.

واعتدل قليلا، وخاطب نجيب بلهجة آمرة:

خذ الدرع يا نجيب وضعها في سيارة اللواء الركن.»[٣٤]

إن أحد القادة الميدانيين يقدم تقريرا لجندي برتبة لواء جاء لمقابلته كي ينقل منه رسالة للمفتش العام عن مجرى إحدى المعارك الفاشلة التي انهكت المقاتلين وأفقدتهم بعض القتلى، وبعد أن فروا خائبين وعلى رأسهم هذا القائد الميداني، فكان اللقاء عبارة عن أحاديث المجاملات الكاذبة من كلا الطرفين، وانتهت بتقديم هدية «من جنوده الأوفياء»، عبارة عن درع يدعي القائد أنه غنمها في المعركة، وهي في حقيقة الأمر ليست سوى تلك الدرع التي اشتراها الفتى راضي.

للحوار في الرواية وظائف عدة منها التعريف بالشخصيات وتصويب الأنظار نحو حدث سابق وكشف المستور عن حقائق غامضة أو التلميح للمستقبل. وقد تعمد كاتبنا أن يكون حواره داعما لديناميكية الأحداث وتحريكها. وقد تحقق له ذلك فجاء الحوار متمما للسرد في فتح باب التساؤلات وإثارة القارئ واستفزازه.

إننا نلاحظ، أعلاه، نبرتين ولهجتين مختلفتين، اللهجة التي يُخاطَب بها الجندي العادي واللهجة المفخمة التي تحمل رسالة مزيفة وكاذبة للمفتش العام. وبذلك تمكنت اللغة من نقل صورة عما يجري في الميدان وعن دورين لشخصين أحدهما من العامة جاء متطوعا بإخلاص، وعن آخر «بيك» جاء للكذب والرياء، مما ينعكس سلبا على هذا الجندي البسيط فيما بعد.

يشعر القارئ مدى حرص الكاتب على تجنيده وتوظيفه لنباتات بلادنا في استعمالاتها المختلفة لا في المأكل فحسب، بل في تزيين بيوتنا وفي استعمالاتها «الطبية»، فوظف لغته في وصف الطبيعة الفلسطينية المرئية لتصوير حياة الإنسان في ظل ظروف معينة في زمان بعينه، وفي مرحلة زمنية حرجة من مراحل حياته. ما يعني أن هناك ارتباطا عاطفيا قويا بين ساكني هذه البلاد وبين نباتاتها وأشجارها وترابها، وسيأتي يوم يفتقد أهل هذه البلاد لهذه البيئة ولهذا المحيط، كما نرى في المثال التالي: «الساحة فارغة، ثمة طائر من فصيلة الحجل يحط على شجرة دفلى، وهنا وهناك كانت الأعشاب ونبات الشومر والخرفيش والكرسعنة قد بدأت تطل برؤوسها، وهناك في الأعالي كان الفضاء ملبدا بالغيوم السوداء».[٣٥]

من هنا سندرك أهمية اقتراب اللغة، أحيانا، من العامية في مواقع معينة من الرواية في السرد وفي

الحوار، ولكنا نعود ونؤكد أن النص اللغوي فصيح ويرقى أحيانا إلى اللغة الشاعرية، حين يقتضي الأمر تصويرا للبيئة وللمشاعر الإنسانية، بل إن هم الكاتب ينصب في المواءمة ما بين المستوى اللغوي ومستوى الشخصيات الفكري، الاجتماعي والسياسي.

من جانب آخر فإن الكاتب حريص على استعمال اللغة الإيحائية المكثفة، وهي لغة غاية في الدقة، وقادرة على إعطاء صورة «منفلشة» لعوالم متعددة، كما تنعكس في الحلم التالي: «نام نجيب في هذه الظهيرة. نام واستغرق في النوم. ورأى في أحلامه البحيرة، وحقول الباذنجان، وبساتين الموز والليمون. ورأى الأمواج تناطح الصخور، وأحمد الملّا يزق الماء ويفتح باب الرضا. ورأى خالد الزهر وقد ارتسمت حول وجهه هالة الأنبياء، أما الذيب ذلك الكلب الأبيض الذي يسابق الريح فقد ظل يركض حتى آخر مدى. والولد راضي يسأله عن الدرع بينما تنبجس من عينيه دمعتان، والرياح الشرقية تهب حاملة صفير القطارات، وهدير بوابير البحر، وضجيج طواحين الحبوب، وعواء ذئاب البراري، ومواء قطط شباط الشبقة...».[٣٦]

إنها صورة لطبيعة غنية ليس سهلا على الإنسان أن ينساها أو يتناساها، فتحول النص أعلاه من مجرد وصف خارجي إلى وصف مشاعر جياشة من ألم وحسرة، وبذلك تساهم اللغة المكثفة في تصوير عوالم أبناء هذه البلاد لتتحول إلى مشاعر وأحاسيس نفسية تعبر عن مدى ارتباط الإنسان ببيئته ومحيطه، ومدى تخوفه وقلقه من خسارتها إذا ما حصل ذلك. ومن شأن الوصف، في حالات عديدة، أن يوقف الحركة ومسار الأحداث، لكنه هنا يسعى نحو «التنبؤ» والتلميح لما سيحدث في المستقبل، فجاء الحلم ديناميكيا متحركا وذا رمزية شفافة.

*****

لغة يخلف في هذه الرواية، كما أشرنا، لغة غنية، ويتجلى غناها أكثر ما يتجلى في الحقول المعرفية المتعددة، في وصف الطبيعة، نباتاتها، أشجارها تربتها، طيورها، على أنواعها، المهاجرة والمقيمة، وفي وصف البحيرة، أسماكها، طيورها، هياجها، مراكبها، أمواجها وسكونها. وفي وصف الحرب، أنواع السلاح ودور كل آلة، لباس المقاتلين، المخيم والجنود، طرق القتال، الأدوية، استراتيجيات القتال والحالة النفسية التي تعتري المقاتل في الفشل وفي النصر.[٣٧]

يلجأ كاتبنا إلى الطبيعة ويوظفها في خدمة الحدث كما فعل ذلك في روايته الأولى ونلاحظ أن هناك

تشابها في الأسلوب: «الغول قادم، وثمة ما يوحي بأن الأرض آخذة في الاهتزاز، وفي هذا الوقت – وقت القيلولة – يصمت الشجر، والهواء، وتصيب السكينة حتى أمواج البحيرة».[٣٨] ألا تشبه هذه الفقرة من حيث الأسلوب اللغوي ما أشرنا إليه سابقا في روايته الأولى؟

تشارك الطبيعة الناس في هواجسهم في عملية «الإسقاط» وفي الهدوء والسكينة والتحفز لما هو آت. ولكي تكتمل الصورة فإن الكاتب يطعم لغته بالنكهة الفلسطينية، كما أشرنا سابقا، ويحل «الهيشي» وهو نوع من التبغ الرديء الذي اعتاد الفلسطينيون عليه مقابل «القات» في البيئة اليمنية، وهنا يحتسي الرجال «الشاي» بدل «الشاهي» هناك، وهنا «السعوط» ذاك المسحوق الذي يدفع داخل الأنف كي يعطس الرجل ويعدل من مزاجه.[٣٩]

كما نلاحظ، في أكثر من موقع ظاهرة دمج أكثر من لغة في إطار واحد، كالكلاسيكية والحديثة، كما ينعكس في النص التالي: «يتسع المجهول حتى يصبح بحجم السماء، تدوي المدافع. ترتج الدنيا. يشتعل الفضاء. يسحب البيك مسدسه من وراء الأفق الملتهب. جاءت الصيحة. جاءت الرجفة. سال الدم. هبت الرياح. احتدم القتال. قعقع السلاح. طارت الأنفس شعاعا. التقى السلاح الأبيض بالسلاح الأبيض. غاص النصل تحت الإبط، بلغت القلوب الحناجر. تكاثرت الجثث فوق التراب، صارت كالعهن المنفوش.»[٤٠]

في الفقرة أعلاه توظيف لعدة وسائل أسلوبية، منها توظيف للقديم من مفردات وتعابير مثل: «قعقع السلاح»، التي تعيدنا إلى السير والملاحم الشعبية التي نهل منها الروائي في طفولته. و«طارت الأنفس شعاعا» تحويرا لقول الشاعر الخارجي قطري بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعي

ومن القرآن الكريم «كالعهن المنفوش» المأخوذة من سورة القارعة «وتكون الجبال كالعهن المنفوش»، أي الصوف المنفوش باليد.

فضلا عن ذلك هناك الجمل القصيرة المفككة والمترابطة في آن معا. مفككة من حيث مبنى الجملة التقليدي القائم على الترابط بوسائل عدة، ومترابطة من حيث الصورة العامة التي تخلقها الفقرة أعلاه، وهي «أضغاث أحلام أو مزق التخيلات»[٤١]، كما جاء في النص. الفقرة أعلاه تصور حالة من الترقب من المعركة الآتية، ومن مجهول لا يعرف أحد إلى أي نفق يوصل. ولما حدثت المعركة

حقيقة، في الصفحات التالية، كان النص أعلاه صورة دقيقة لما واجهه المقاتلون من وجع وألم وتفتت وموت وخيبة. وعليه فإن الأصوات والحركات الموظفة في الفقرة أعلاه ما هي إلا صدى للأفعال المكثفة الواردة فيها.

*****

نعلن، دون تردد، أن لغة بحيرة وراء الريح أكثر غنى ودقة في التصوير من سابقتها، وذلك في السرد وفي الحوار. نلمح تطورا في شاعريتها، حين يقتضي الأمر ذلك، وفي تصويرها للمنظور والمحسوس. وباتت أكثر إيحاءً حين يقتضي الأمر تنبيها لما قد يأتي. لا نقصد بغنى اللغة ذخيرة الكاتب اللغوية ورصيده المعرفي الكلاسيكي شعرا ونثرا فحسب، وانعكاس هذا الأمر في كتاباته، بل نراها، أيضا، في تصوير مشاهد متنوعة ومتعددة ومتناقضة لعوالم وبيئات ووظائف ومهن متعددة.

ورأيناها في اقترابها من «تعدد الأصوات» وتعدد الأساليب واللغات، مع أن الصوت الطاغي على جميع الأصوات الأخرى هو صوت الراوي الرئيسي العليم، ولكن هناك صوت عبد الرحمن العراقي المثقف، في أوراقه، التي تعكس رؤية أخرى من زاوية نظر مختلفة بعض الشيء، وتخللت بعض هذه الأوراق رؤية أسد الشهباء. ومع ذلك لا نستطيع أن نعلن بصوت جهوري أن الرواية تعتمد تعدد الأصوات واللغات التي يشير إليها باختين وبيير زيما، ولكنها محاولة للانفلات من ربقة الراوي العليم المعلق.

والأهم أن الكاتب قد تمكن من تصوير عوالم متعددة ومختلفة لم تقتصر على عالم قرية فلسطينية فحسب، بل امتدت واتسعت لتتناول عالم الفلاح والمحارب والمتطوعين والصادقين والكاذبين والمنافقين، وعالم ما قبل الحرب وما بعدها، وأصابت النفس البشرية في فرحها القليل وفي حسرتها الغالبة، موظفة أسلوب السخرية والمفارقة المرة المؤلمة.

ملخص

إن لغة يحيى يخلف غنية بمفرداتها، باستعاراتها وتشبيهاتها، فيها من الشاعرية قسط كبير، ودقة في التصوير، سواء كان في التصوير المشهدي الخارجي أو في التصوير الداخلي. ولغته إيحائية غاية في الدقة. وهي قريبة جدا من الأجواء العامة لبيئة رواياته ولأبطاله، سواء كان ذلك في السرد أو في الحوار. فنراها لغة شاعرية حين يفرض المشهد ذلك، وحنونة في تصوير البشر والنبات والحيوان،

وهي لغة حكيمة حين تبدر من عجوز مجرب، وحازمة حين تبدر من شخصية مسؤولة، وناعمة حين تنطق بها فتاة عاشقة وأم حنون يقتلها الشوق، وهي مغامرة فضفاضة بعيدة عن الالتزام حين ترد على لسان شاب متسرع مغامر.

أما التشبيهات فهي من المحيط الذي تتحرك فيه شخوص الروايات، ولذلك فهي تشبيهات مبتكرة معاصرة لا تقليدية، رغم ما فيها من تناص، أحيانا، وتقاطع مع لغة الكتب المقدسة والأشعار العربية الكلاسيكية، بل لقد وُظف هذا الرصيد التراثي لإغناء النص.

تعددت البيئات في روايته الثانية فكانت لغته أكثر ثراء ودقة، فوظف أصواتا أخرى إضافة إلى صوت الراوي، عدا عن المونولوج والفلاش باك والأحلام، والمناجاة، كما لاحظنا سلاسةً أكبر في التنقل بين الضمائر، مما يتيح له الدخول أكثر في عمق الشخصيات. لكنا نعود ونؤكد أن صوت السارد هو الغالب، لأن الرواية، أصلا، رواية مؤدلجة ذات رسالة، شأنها شأن الرواية الأولى.

الهوامش:

١ حول سيرة حياة الكاتب وإصداراته انظر: روبرت كامبل، أعلام الأدب المعاصر، بيروت، الشركة العربية للتوزيع، ١٩٦٦، ١٣٩٠-١٣٩١، حسين عيد، قضية فلسطين والأدب، يحيى يخلف نموذجا، عكا، دار الأسوار، ٢٠١٠، ٧-٨، سلمى الخضرا الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر- النثر، ج٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٧، ١٩٨، سمر روحي الفيصل، معجم الروائيين العرب، طرابلس، جروس برس، ١٩٩٥، ٤٩٧، أما فيما يتعلق بسيرة حياته بعد ١٩٦٧ فقد قمت بجمعها من حوارات أجراها معه حسين عيد، انظر: ١٠٩، ١٢٤، ١٢٥.

٢ كامبل، ١٣٩٠.

٣ انظر حوارا مع الروائي في: حسين عيد، ١١٩.

٤ عبد الرحمن أيوب، انظر مقدمة ترجمته لفصول كتاب دي سوسير "فصول من دروس في علم اللغة العام" في كتاب: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، القاهرة، شركة دار الياس العصرية، ١٩٨٦، ١٤٤.

5 Percy Lubbbock, The Craft of Fiction, London, the Garden City Press,1939, E. M , Forster, Aspects of the Novel, London, Edward Arnolds Publishers, 1969, Edwin Muir, The Structure of the Novel, London, The Hogarth Press, 1963.

6 Reneh Wellek, Austin Warren, Theory of Literature, Harmondsworth, Penguin Books Ltd, 1966, 22 - 23.

.للمزيد من التوسع انظر: 20 - 37

٧ فيصل دراج، دلالات العلاقة الروائية، دمشق، دار كنعان، ١٩٩٢، ١٤٣-١٤٤.

٨ رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، (ترجمة منذر عياشي)، حلب، مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٣، ٣٣.

٩ ساسون سوميخ، لغة القصة في أدب يوسف إدريس، عكا، مطبعة السروجي، ١٩٨٤، ١١.

١٠ عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٨، ١٢٥ .
١١ المصدر السابق، ١٢٠.
١٢ ميخائيل باختين، الخطاب الروائي (ترجمة محمد برادة)، القاهرة، دار الفكر للدراسات، ١٩٨٧، ص٣٨.
١٣ وهناك من يرى أن رواية زينب قد صدرت سنة ١٩١٢، وهناك من يرى أنها صدرت سنة ١٩١٤.
١٤ باختين، الخطاب الروائي، ٣٨- ٣٩.
١٥ بيير زيما، النقد الاجتماعي- نحوعلم اجتماع للنص الأدبي، ترجمة عايدة لطفي، القاهرة، دار الفكر، ١٩٩١، ١٨٤.
١٦ شكري عزيز الماضي، فنون النثر العربي الحديث، عمان، منشورات جامعة القدس المفتوحة، ١٩٩٦، ٤٧.
١٧ محمد برادة، أسئلة الرواية أسئلة النقد، الدار البيضاء، مطابع النجاح الجديدة، ١٩٩٦، ٣١.
١٨ يحيى يخلف، نجران تحت الصفر، القدس، منشورات صلاح الدين، ١٩٧٧، ٥-٦.
١٩ نجران، ٩.
٢٠ نجران، ١٤.
٢١ نجران، ١٠.
٢٢ نجران، ٨.
٢٣ نجران، ٣٧، لقد حرص الراوي أن يعرض صورة مناقضة كليا للطرف الآخر في كل مرة تسنى له ذلك، انظر على سبيل المثال: ٣٠-٣١، كذلك الأمر في تصويره لبعض أحياء مدينة جدة حيث المدينة العصرية والترف والرخاء، انظر: ١٠٥-١١٢.
٢٤ نجران، ١٦.
٢٥ نجران، ١٩.
٢٦ نجران، ١٨.
٢٧ نجران، ٢١.
٢٨ حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠، ٢٧.
٢٩ انظر: بحيرة، ٤٦، ٥٠-٥١، ٥٤.
٣٠ بحيرة ، ٧.
٣١ انظر على سبيل المثال افتتاحية الفصل الثاني: بحيرة،٥٩.
٣٢ هناك أمثلة لا حصر لها في ثنايا الرواية، مثل "البايكة"،
٣٣ بحيرة، ٦١.
٣٤ بحيرة، ٥٧
٣٥ بحيرة، ٣٨.
٣٦ بحيرة: ٤١.
٣٧ هناك أمثلة عديدة حول لغة الحرب انظر، على سبيل المثال: ٢٠- ٢٢، ٣٩-٤١.
٣٨ بحيرة، ٨-٩.
٣٩ انظر على سبيل المثال: بحيرة، ٢٠، ٢٢.
٤٠ بحيرة، ٤٩.
٤١ بحيرة،٤٨.

محمود درويش في الثالثة والسبعين:
عليّ اللحاق بمترو الضواحي

الآخر في الأنا والأنا في الآخر *
التوق إلى الخفي

شتيفان ميليش

عن الألمانية: إبراهيم أبوهشهش*

في ديوان "سرير الغريبة" لا يقرن الشاعر بين الحب والمنفى فحسب، بل يقرن أيضا التفكير الشرقي مع التفكير الغربي ؛ فالشاعر المتنقل عبر الحدود الثقافية يستخدم الغزل من جهة والسونيت من جهة أخرى . ومرارا وتكرارا يغني محمود درويش الاتحاد العشقي بين غريبين يتوقفان إلى جانب البحر أوالنهر ويغرقان في عالمهما الداخلي المتخيل مستسلمين لشعورهما الذاتي بالغربة بين البشر :

" فقد نتغير عما قليل وننسى ملامح ثالثنا / الموت

نفس الطريق إلى البيت

قرب السماء التي خذلتنا كثيرا ." [1]

لقد اكتشف الشاعر الفلسطيني قوة الحب القادرة على التغلب على الموت نفسه وانفصل بشعور من الخيبة عن حلم العودة .

في قصيدة «نسير على الجسر» (١٩٩٩) يوظف الشاعر موتيف هجرة الطيور المتجذر في

* كاتب وناقد فلسطيني

الثقافة الأوروبية مثلما هومتجذر أيضا في الثقافة الإسلامية: «تصابين مثلي برحلة طير (....)

خذني إلى النهر يا أجنبي « [٢]

فمثل الطيور يتجول الغريبان بين البشر ليختبرا همومهما اليومية ومشاعرهما وينصتا إليها :

ونصغي إلى ما يقول المشاة

على الجسر :

لي عمل غير هذا،

ولي مقعد في السفينة

لي حصة في الحياة

وأما أنا،

فعليّ اللحاق بمتروالضواحي

تأخرت عن ذكرياتي

وعن موعد الساكسفون

وليلي قليلُ

ونصغي إلى ما بنا من حنين خفيٍّ

إلى شارع غامض : لي حياتي هناك

حياتي التي صنعتها القوافل وانصرفت

وهنا لي حياتي على قدر خبزي

وأسئلتي عن مصير يعذبه حاضر

عابرٌ، وغدٌ فوضويٌّ جميلُ . [٣]

إنّ العالم ينقسم هكذا إلى فضاءين : « الأول هوالعالم المرئي المحلي المبتذل « على قدر خبزي «، إلى الأسئلة والمعنى، أي إلى حاضر عابر وإلى يأس حاضر مأمول إلا أنه يقاس بالمستقبلِ البعيد ؛ والثاني متروك إلى الوراء إلى حياة خفية صنعتها « القوافل في الشرق « ثم تهجر بوصفها توقا

وتوجد كإمكانية [٤] لم يعد الوصول إليها متاحا . إن الأصوات المقتبسة على الجسر هي جميعا حوادث ملتقطة تبدوكأنها قد فقدت كل ربّة من ربّات الفن وكل جمال (« لي عمل آخر غير هذا «)، ولكن كلماتها أيضا تنطق بالتوق إلى « ليلةِ أطول «، إلى حياة مليئة .

لم يكن الإنصات إلى كلمات الآخر ممكنا إلا بعد أن « سمع الآخر في ذاته نفسها « [٥] . وهذا الآخر يكشف عن نفسه بوصفه توقا ميتافيزيقيا إلى الغيب، إلى ما قد تُرك في الماضي . يتيح هذا الأمر بالإضافة إلى الهوية الجديدة المفتوحة لل « أنا « في الآخر المضي قدما في الفضاء المختفي وراء الأشياء المرئية لكي يتحقق ما ينبع من ذلك من توق إلى الخفي « إلى شارع غامض « [٦] .

الحبّ والخفيّ

إن التوق المذكور سابقا إلى الحياة المكتملة / إلى الغيبِ والخفي، يتكشف أخيرا على أنه توق إلى الحب ؛ فالحب هوتمثل للخفي، والخفي تمثل للحب " [٧] وعلاقة المحبّ بالآخر تحقق ملامسة اللانهائي . [٨]

وفهم محمود درويش للحب يقترب كثيرا من مفهوم الفيلسوف الفرنسي اليهودي إيمانوئيل لافيناس Emmanuel.[٩] في هذه النقطة، فكلاهما يرى أن العلاقة بين الأنا والآخر متصفة بالتسامي Levinas إن الأنا والآخر لا يمتزجان ولا يحدث انتهاك للهوية من خلال هذه العلاقة " لا تتركيني تماما، ولا تأخذيني تماما " [١٠] فالآخر يظل غريبا، سرا لا يمكن كشفه بشكل كامل أبدا . وهكذا فهناك دائما مسافة تظل قائمة بينهما يمكن التغلّب المؤقت عليها من خلال ملامسة اللانهائي . [١١]

إنّ أسلوب القصائد السابقة الذي أسطر الوطن وأوضح المصير الفلسطيني من خلال أساطير عربية إسلامية ومسيحية ويونانية يفسح الآن مكانا في أخيلته وأساطيره للفكر والشعور بحيث يتعلق الأمر الآن بالواقع الحقيقي للعلاقة بين البشر ويتواصل نوعا ما بهذه الجهة وتلك الجهة . فالأنا الشاعرة تتوق إلى الحب بعد ذلك لكي تستمتع بكل ثانية من الوقت المشترك (« لنمشي على الجسر عشر دقائق أخرى «) [١٢] . إنّ التحرر من الأساطير الخاصة وكذلك الانعتاق من إسار الماضي الذاتي هما مقدّمات أساسية للدخول في الحب الحقيقي وفي المحيط المباشر والعودة إلى

الحياة .

في حوارِ الغريبة

لكي تكون الأنا قادرة على الانفتاح على الحياة والحب ينبغي لها أن تكون منفتحة تجاه الآخر، وإضافة إلى ذلك فإن التخلي عن الموقف الذاتي المحدد بحدود ثابتة هوالشرط المسبق لذلك لأن الإنسان يتحرر من فرديته وهويته وموقفه الذاتي [١٣]. ويبدأ في حوار ويغدوهونفسه موضوعا لحوار يستمع فيه كل طرف إلى الآخر ويتقبل بحسّه وإرادته ما يصغي إليه . [١٤]

وفي مكان المنولوج (الحوار الذاتي) والتمركز حول الذات يحل الحوار الذي يصغي فيه المتحدث باهتمام .

في المجموعة التي صدرت عام ١٩٩٩ [سرير الغريبة] يتمّ هذا « الإصغاء الحسّي « المتنبّه من خلال تحوّل شكل « الأنا « الشاعرة والغريبة إلى روح غامض، إلى المسيح الحي [١٥]، أومثلما في السابق، إلى طائر يجثم فوق الجسر على النهر ويصغي إلى كلمات العابرين . إن التأمل والمكوث يتيحان لل (أنا) ثانية أن تعثر على نفسِها بعد أن ضاعت في الترحالِ الطويل . إنها لم تعد مرتحلة بعد . وعند المتصوف العربي ابن عربي فإنّ الحركة تماثل الغياب والنقص في إمكان المعرفة، والهدوء والاستقرار فقط هما ما يتيح اختراق الحقائق الميتافيزيقية .[١٦]

لم يعد نموذج الشاعر الذي جسده محمود درويش أي المؤلف باعتباره موضوعا بعد الآن هوالذي يفرض على الشخصيات المتحدثة كلماتها، بل الأغلب أنه بات الآن يجمع عبارات وكلمات ويصبح واجهة هادئة للأصوات المحيطة يستقبلها ويبثّها .

إنّ الآخر الذي كان يعبر عن نفسه في شعر محمود درويش أيضا من بين أشياء أخرى في أن الشاعر كان يبني تناصات ذاتية وخارجية صار هنا مندمجا في الذات، ومن خلال ذلك أصبح الآخر هوالأنا والأنا هوالآخر . [١٧] كل هذا يفضي إلى اكتشافِ الهوية الذاتية المهجنة غير المصمتة والغنية بسبب ذلك :

« الغربة في نهاية المطاف لا تبدأ خارج الذات بل تبدأ داخل ذواتنا نفسها مثلما في شكل غربة عبر ذاتية « [١٨]. وبذلك فليس المهم من هوالمتكلم، فالأصوات اختلطت في اللغة مثلما في الهوية

أيضا وتحولت إلى صدى:

« صدى للصدى، أينا قال هذا الكلام، أنا أم الأجنبيّة . « [١٩] إن الكتابة تعني الآن تتبع « نبض الأبجدية في الصدى . «

الصدى مثلما يفهم على أنه تردد أبدي وامتزاج لغوي يصبح استعارة لأسلوب حواري . والآخر لا يظهر هنا أحيانا فقط بل هوحاضر باستمرار وأصبح عنصرا تأسيسيا في شعر محمود درويش، وحسب كلمات باول تسيلان :

« القصائد تتحرك بتوق باتجاه شيء يقف مشرعا، شيء قابل للاحتلال، باتجاه أنت مستعد للحوار.«[٢٠]

لقد حدثت تخرصات كثيرة حول شعرِ باول تسيلان . قال تسيلان في خطبته الشهيرة في المريديان بمناسبة حصوله على جائزة بوخنر سنة ١٩٦٠، إن هناك آخر في شعره يتحدث إليه عندما يكتب الشعر، ومن خلال ذلك تأخذ القصيدة معاني جديدة عند القراء : تسعى القصيدة إلى التحول إلى آخر، إنها تحتاج إلى هذا الآخر، هيَ بحاجة إلى مقابل وتتحدث عنه . إنها تتحدث إليه عن نفسها، كل شئ وكل إنسان هوللقصيدة التي تتوجه إلى الأخر شكل هذا الآخر . [٢١]

تحدث جان بوللاك Jean Bollack في كتابه الفريد حول تسيلان عن إمكان وجود أنتَ تعبيري يبحث عن اللغة وتتوجه إليه الأنا الشاعرة بالخطاب : الذات تتحول إلى متحدث، الأنا إلى أنت ؛ إنها تتحدث إلى ذاتها نفسها من وراء قناع الآخر . وكلما تحدثت كانت الأنا تتحدث إلى نفسها وكأنها آخر تغدوأكثر وعيا بذاتها . [٢٢] وكتب قبل ذلك ببضع صفحات « القارئ (...) يعايش الحوار .إنه تحويل الذات المتحدثة إلى حالة موضوعية دون أن يشارك هوَ في ذلك، ونحن كقراء نصبح كأننا ننظر من وراء كتفِ المؤلف [٢٣] (وهنا يمكن لإضافة أنَ المؤلف هوالذي يقرأ نفسه / ملاحظة المؤلف) .

لقد كانت كتابة الشعر عند باول تسيلان فعلا أوتوبيوغرافيًا، على الرغم من ذلك فإنّ القصيدة بحاجة إلى المخاطب خارجها . والقارئ يغدومن خلال ذلك شاهدا على الشهادة الشعرية التي تعارض الذاكرة الرسمية من خلال موقف شخصي لكي يهرب في اللغة عن طريق لغة محددة متحررة من أي استحواذ .

ويمكننا من أجل فهم هذه النقطة الصعبة الاستعانة بالشاعر الفلسطيني من خلال قصيدةٍ قصيرة تعود إلى سنة ٢٠٠٢، حيث يقول : " السلام كلام المسافر في نفسه / للمسافر في الجهةِ الثانية ..." [٢٤] . والمقصود بالمسافر هنا هوالشاعر المنفي الذي يتحدث هنا إلى مسافر آخر غريب مشرد في الاتجاه المقابلِ / إلى أنتَ ضمني يقف في المقابل ويتحدث أيضا إلى نفسه ذاتها كذلك .

تتولد من خلال النأي عن ذاته نفسها مسافة خلاقة تتيح للشاعر أن ينفصل عن شعره نفسه أيضا . وهذه الوظيفة المزدوجة للشعر « المخصص « حسب وصف بوللاك هي بالتأكيد سمة كثير من الشعر الأصيل . الشاعر يبحث في داخله الغريب ويكتب نفسه ذاتها، ويغدوهومكتوبا من خلال لغته ومن خلال « تجاربه العالمية « حيث يكون هوَ أيضا أنت واقعيا يرغب في التحدث إلى قارئ حقيقي . [٢٥]

يستأنف شعر درويش في نهاية التسعينات من حيث الأساس شعر تسيلان المزدوج نتيجة الانشطار ولكن ضمن سمات فلسطينية وسماتِ قرابة . إنه يريد كلّ شئ ؛ الكتابة المجددة، والفردية، والمُحْكمة أحيانا، وكذلكَ النوتة الموسيقية الجمعية التي لا يمكنها الانفصال كليا عن الانتماء القومي – الثقافي والهوية . وقد أوضح درويش قبل مدة قصيرة هذه الحقيقة :

« كل شاعر يكتب نصا شعريا يبدأ من ذاته نفسها في علاقتها بالعالم الخارجي . أستطيع القول إن شعري يشير بشكل قوي إلى بصمات سيرتي، إنه بالتحديد تدوين لسيرتي مكتوبا في شكل ذاتي . « [٢٦] .

إن شعره يسكن في جوار كل شعر ذي سمة حوارية . [٢٧] فهويتحقق من خلال البحث الذي يتوق إلى « أنت « آخر، وإلى نقل الذات والآخر مؤقتا إلى « نحن «، وهذه ال « نحن « ليست أكثر من « نحن « القديمة من حيث هي مؤسِسة للهوية التي نجمت عن الاتحاد بالأرض والأمة، ولكن تختبئ في الحب إمكانية إبقاء الغياب بعيدا، وتحقيق الحلم بحياة بسيطة سعيدة :

قد نتغيرّ عما قليل، وقد يحدث

المستحيلُ

(...)

بلادٌ حقيقية، لا مجاز، ذراعاك

حولي ... هنالك قرب الكتاب المقدس

أوههنا، أيّنا قال : قد تحفظُ

اللغةُ الأرضَ مما يلم بها من

غياب إذا انتصر الشعرُ ؟ من

قال منّا : سأنسى، وأغفر للقلب

أكثر من خطأ واحد، كلما طال

هذا الرحيل ... « [٢٨]

« الثنائية « بوصفها شكل الهوية «

تجد « نحن « المتعلقة بحبيبين مثيلها في هوية الشاعر المزدوجة وتشير إليها من خلال انشطار للذات

استدعته تجارب الغربة [٢٩] . وحسب إلياس خوري فقد أدرك الشاعر « ثنائيته « في سياق كارثة بيروت عام ١٩٨٢ وما تبعها من منفى غربي، وهيمن ذلك من هنا على الهوية الشعرية . [٣٠] لقد كان الإنسان والأرض آنذاك وحدة تشكلت من مكونين ينتمي أحدهما إلى الآخر، وإضافةً إلى ذلك فإن الإسرائيليين والفلسطينيين يشكلون، ولوعلى كره منهم، نوعا من الثنائية، فكلا الشعبين يعيشان إلى حد ما في الأرض ذاتها . [٣١]

انتقلت هذه الثنائية إلى شخص الشاعر وتوزعت كثيرا في قصائد سنوات التسعينات بحيث أن « الأنا « الشاعرة أوصورة « ذات « [٣٢] الشاعر لا تظهر وحدها إلا نادرا، هكذا تقول « الأنا « الشاعرة في « أغنية زفاف « :

كنّا غريبين في بلدين بعيدين قبل قليل،

فماذا أكون غداة غد عندما أصبح

اثنين ؟ « [٣٣]

يخلق محمود درويش لنفسهِ لغة شعرية تزدهر في التناقض اللامتناهي للثنائية، فقد أصبحت هذه الثنائية معينا هاما لخصب شعري :

« ينقصنا أن نرى كيف كنّا هنا، يا

غريبة، ظلّين ينفتحان وينغلقان على ما

تشكّل من شكلنا : جسداً يختفي ثم يظهر

في جسد يختفي في التباس الثنائيةِ

الأبدية . ينقصنا أن نعود إلى اثنين

كي نتعانق أكثر . « [٣٤]

بإسقاط الأسماء تنازل الغريبان عن هويةِ ذات جسدٍ ثابت لكي يستطيعا مواصلةَ الاحتفال بالاتحاد في الحب :

« لا اسم لنا يا غريبةُ

عند وقوع الغريب على نفسه في الغريب ! « [٣٥]

في هذه المراوحة بين جسدين يحق للحدود أن تمحي بما يسمح فقط بمنع الاتحاد النهائي :

عندما تحب الأنا الآخر فإنهما لن يبقيا واحدا وآخر بل اثنين (...) إنها حركة آنية، حدث حافل فقط باللحظة التي يحدث فيها . [٣٦]

يتوجب على الحبيبين دائما أن يعودا من جديد إلى نفسيهما لكي يتوقعا استسلاما دائما من أجل أن يتمكنا من أن يعثر أحدهما على الآخر ؛ فالاتحاد لا يمكن أن يتمّ إلا من خلال ثنائية، وهكذا فإنّ علاقة الحبّ هي مراوحة بين القرب والبعدِ : « لا تتركيني تماما / ولا تأخذيني تماما « . [٣٧]

ولتحقيق هذه الثنائية على المستوى اللغوي أيضا تصبح الثنائية وكذلك أداة الربطِ « بين « من الأدوات النحويةِ المفضلة عند الشاعر [٣٨] : [٣٩]

وهكذا تغدواللغة في تناولها لموضوعات الحب وطنا ثانيا للشاعر الفلسطيني الذي كانت طريقة

تعبيره هي الثنائي على مستوى الفكرة والثنائية على المستوى النحوي . الثنائية تنشأ عن توحد بين غريبين تماما مثلما أيضا عن توحد وجودين للواحد / للأنا الشاعرة ورفيقها الغامض، وكذلك فإن الثنائية أوالزوجين عند أدونيس هي الأصل وليس الوجود المتصف بالخطيئة الذي يسبق الواحد :

" في البدء كان الاثنان ثم جاءت الخطيئة

وكان اسمها الواحد . " [٤٠]

الأنا والأنا الأخرى

أفضى الوقوع على الذات في الغريبة عبر آخر، وكذلك اكتشاف الآخر في الذات الذي بدأ في القصائد الأولى حول حب « ريتا « إلى عدم وجود ذات خاصة وبذلك أيضًا آخر مقابل يقوم بدور الآخر الضروري

لرسم الحدود ؛ فقد بقي ما هوأكثر :

كنت أمشي إلى الذات في الآخرين، وها أنذا

أخسر الذات والآخرين . [٤١]

في قصيدةِ « من أنا .. بعد ليل الغريبة « فقد الفلسطيني ذاته أيضا في الآخر وتحدث خائفا عن فقدان قادم للهوية عبر الانفصال عن الغريبة .

إن الوقوع على الذاتِ في الآخر يمكن أن يأتي أيضا بوصفه انعتاقًا يمنح « الأنا « المنفية قوة وشجاعة، مثلما يظهر في قصيدة « غيمة من سدوم : «

« مضت غيمة من سدوم إلى بابل،

من مئات السنين، ولكن شاعرها « بول

تسيلان « انتحر، اليوم، في نهر باريس .

لن تأخذيني إلى النهر ثانية . [٤٢]

في هذه القصيدة المكتوبة عام ١٩٩٩ يصبح الشاعر الفلسطيني هوالشاعر اليهودي باول تسيلان . واستناد الشاعر الفلسطيني إلى باول تسيلان وإلى شعراء يهود آخرين والتفاعل معهم نصيا في أعماله الكاملة يجعل من المفيد في الصفحات التالية تتبّع هذه العلاقة التي لا تكاد تكون قد حظيت بأي اهتمام، وذلك بهدف سبر غور الأسئلة المطروحة .

انتحر باول ستيلان في العشرين من إبريل في نهر السّين في باريس . [٤٣] وظلّ دافع الانتحار غامضًا، يمثل إيميريش Emmerich الفرضية القائلة إن تسيلان بعد سنوات الخراب الذاتي إثر المحرقة التي حدثت على أساس قضية انتحال كلير غول * Clair Goll والمناخ الثقافي والعقلي الذي ساد في ألمانيا ما بعد الحربِ فقد الإرادة في الحياة . كان الشاعر يتنبأ في قصائده بموته غرقًا . [٤٤] إن التوحد المنشود مع الأم أوالحبيبة الموازي للتوحد مع الحبيبة الوطن أوالمرأة المحبوبة عند درويش كان غير ممكن عند تسيلان أيضًا إلّا من خلالِ ارتباط الحب بالموت (Liebestod) فقط . [٤٥]

يعلن رفض " أنا - المؤلف " في قصيدة " غيمة من سدوم " عن الوحدة واليأس وفقدان الوطن والتعبير كذلك عن المصير الذاتي وتحمله . إن تماهي (شاعر) فلسطيني مع شاعر يهودي يرجع إلى تجارب النفي المتشابهة عند كليهما مما يتيح للشاعر الفلسطيني أن يكتشف أناه الأخرى (Alter Ego) في يهودي ألماني شرقي . لقد كان من المتوقع أن تسيلان في ذلك الوقت كان يشعر كيهودي مثل الفلسطيني اليوم بأنه " وحيد، غريب مقذوف في شرفة، منبوذ، مطرود " [٤٦]، كان باول تسيلان وهاينرش هاينة يشعران تقريبا بأنهما في هامش المجتمع مثل درويش الذي شعر في فترة من حياته بأنه يعاني من اضطهاد الثقافة المسيطرة ومن التمييز ضده من قبل الأكثرية الجانحة إلى العنصرية . يمكن النظر أيضا إلى تناص درويش مع شاعر (ألماني -) يهودي مثل هاينرش هاينه أوباول تسيلان بأنه محاولة لاستلهام تشابه كلا المصيرين الجمعيين والمشاركة في وضع الضحية لدى الشعب اليهودي من أجل جلاء وضع الفلسطيني للقارئ . [٤٧] محمود درويش يلائم نفسه مع مصير شاعر أجنبي لكي يوضح المصير التراجيدي ويقدمه للقارئ الغربي من خلال التماثلات بين المصيرين وبدون ذكر للفروق بين التاريخين اليهودي والفلسطيني . نقلت مارتينه بوردا Martine Bordaمترجمة باول تسيلان إلى الفرنسية الاقتباس الاستهلالي أوالشعار

(Motto)الذي صدر به تسيلان بالروسية قصيدته " ومع الكتاب من تاروسا " بقوله : " كل الشعراء هم يهود " وفهمته بطريقة مغايرة لمقصد تسيلان أصلا . [٤٨] فقد أخذت بإمكان فهم كلمة « يهودي « على أنها تعني « المنفي « و« المضطهد « وسلكت بذلك الطريق الذي سلكه درويش . وهذا الأمر المفهوم في ذاته يتجاوز السياق اليهودي المحدد ويسعى إلى سياق كوني : « على الجميع أن يكونوا يهودا مثلما أن الشعراء هم يهود « . الجميع منفيون كاليهود، وكل شخص هوتسيلان . [٤٩] من الصعب الحسم على نحوواضح فيما إذا كان تسيلان يقصد بالمعنى العام التضامن مع كل أولئك الذين عاشوا المعاناة والاضطهاد . ويمكنه فعل ذلك على نحومحدود فقط ؛ فمقارنة عدم معقولية المحرقة مع غيرها من المجازر الفظيعة أوالإبادات الجماعية لا معنى لها لأن كل من هذه الأمور في حد ذاتها غير معقولة وفظيعة . ويمكن وصفها فقط في حالتها النسبية وجعلها تنتظم في مسار التاريخ بشكل غير مرغوب فيه . غير أن الكتابة حول هيروشيما واستذكارها في قصائد تسيلان هوحديث عن « أخلاق الإنسانية « [٥٠]، ولكن بالمقارنة مع الشاعر الفلسطيني فإن تسيلان انطلاقا من خبراته الفردية المختلفة تماما عن درويش يأخذ موقفا محددا نسبيا في العالم، بينما محمود درويش هودائما كوني وحاضر حتى لوكان مقروءا اليوم على نحومحدود . [٥١]

هناك تشابه واختلاف في الوقت نفسه بين الشاعرين نشير إليهما في هذا المكان . في حرب ١٩٦٧ رأى تسيلان في شعره سلاحا في وجه «التهديد الوجودي» الذي يحدق بإسرائيل من الجيوش العربية . التشابه يتمثل في أن الشعر سلاح في النضال تستخدمه الجماعة « نحن « . والاختلاف يتمثل بالتأكيد في أن كلا من باول تسيلان ومحمود درويش يجد نفسه في الجهة « المعادية « وينظر، كما يقال، في الاتجاه المقابل . كلاهما تحدث وصمت من موقف شخصي، بيد أن الأنا الشاعرة تتضمن وتخفي في كلا الشعرين جزءا من الهوية الجمعية .

من الهوية الموحدة إلى الهوية المتعددة

ولكن تسيلان بعد التجارب الفظيعة للمحرقة والمعاداة للسامية التي واجهته في أماكن متعددة وليس فقط في ألمانيا ما بعد الحرب، لم يستطع فتح هويته تجاه الآخر / الألماني مثلما كان ذلك ممكنا لألماني يهودي مثل غوستاف لانداوفي بداية القرن [العشرين] :

(...) ألمانيتي ويهوديتي لا تلحق إحداهما الضرر بالأخرى، بل تفيد كل منهما الأخرى كثيراً (...) لم أكن قط مضطراً لتبسيط ذاتي أوإنكارهما من أجل التوحّد . إنني أقبل هذا المركّب الذي أنا عليه، وآمل أن أكون أكثر تنوّعًا مما أعرف . [٥٢]

هذا الصراع الداخلي بين جزئين متناقضين للهوية الذاتية (الألمانية واليهودية) الذي حاول تسيلان حتى وفاته التعاطي معه [٥٣] و« أخفق « في ذلك على نحومأساوي، والذي اقتبسه دان بار _ أونDan Bar_On بوصفه مرحلة ثالثة خصبة ومنشودة من ذوبان الهوية الموحدة _ [٥٤] يمكن أن يدركه محمود درويش على أنه إغناء . إن ثنائية أوتعددية هويته الشخصية التي تنشأ عن مد حدود « الأنا « أوإزالتها أمر دعا إليه الشاعرُ الفلسطيني مرارا في مقابلاته :

" أنا أملك هذه الأرضَ بثقافتها المتعددة من الكنعانيين والعبرانيين والإغريق والرومان والفرس والفراعنة والعثمانيين إلى الإنجليز والفرنسيين . أريد أن أعيش بكل هذه الثقافات . من حقي أن أتمثل كل هذه الأصوات التي مرت فوق هذه الأرض . " [٥٥] يعبر محمود درويش هنا بكل وضوح عن هويته المهجنة التي يمكن أن تقدم المخرج المنطقي الوحيد والسلمي في وقت يتم فيه استحضار « صراع الثقافات « . ومؤكدا على هويته المتعددة يتساءل في السطر الأول من قصيدته القصيرة « تدبير منزلي « : « كم أنا « [٥٦] . إن الفلسطيني يتضمن في ذاته ثقافة مضطهده أي الإسرائيلي . [٥٧] وإلا فكيف يستطيع الفلسطيني السجين أن يوجه السؤال إلى سجانه في أثناء التحقيق : « هل أنت بعض أناي ؟ « [٥٨]

لقد تحول الشاعر الذي أنضجته المنافي من « المرتبط بالمكان « إلى « الكوزموبوليتي « فقد طوّر شعوراً عميقا تجاه البشر جميعاً « تجاوز جميع الحدود الاجتماعية واحتوى المقصود بما يمثله الإنسان « [٥٩].وهذا الفهم الذاتي الذي عبر عنه درويش فيما سبق ينظر إليه كثير من شعراء المنافي العرب في السنوات الأخيرة على أنه أمر إيجابي . [٦٠] هكذا تنعكس النظرة الإيجابية للمنفى في كلمات الفلسطيني إدوارد سعيد الذي توفي في المنفى الأمريكي وكانت هويته أيضا « نتاجًا « للمنفى :

« إن اهتماماتي تتخطى العالم العربي، في ضوء ذلك أشعر أنني متحرر على نحوما . وعلى الرغم من ذلك فإنني نتاج للدرب الذي مشيته في وقت ما . إنني محصلة تاريخية، محصلة لغات وثقافات كثيرة كوّنتني، ومع أن ذلك لا يقرر وجودي إلا أنه بات جزءا من لوحة كبيرة أسميها

منفى أصبح بدوره حقلا مباركا على نحوما لأنه فتح أمامي إمكانات متعددة« [٦١] .

إن الاختلافات والحدود [٦٢] القائمة بين الثقافات تزول ضمن هذه النظرة، بحيث يمكن أن يغدوالآخر أنا أخرىAlter Ego لا تختلف من ناحية جوهرية عني: " في كل" أنت " أنا / أنا أنت المخاطب" [٦٣] .ومن ذلك ينشأ إمكان النظر إلى الإنسان ليس بوصفه عدوّا بل غريب، ولكن بالتأكيد أيضًا الاعتراف به بصفته أنا «الآخر« واحترامه والنظر إليه بوصفه مساويا في إنسانيته . [٦٤] وهذا الفهم الإنساني للآخر الذي يقترب من الصوفية يشكل أساس نظرة الشاعر الفلسطيني الحياتية، ويمهد الطريق للقاء مع الآخر أوالآخرين الذين هم «طيبون« و«كثر« [٦٥] مثل «أنا« الخاصة .

اتبعت إنغبورغ باخمانIngeborg Bachmann ، التي نشأت على تخوم اللغات والبلدان،منذ وقت مبكر سياسة شعرية لتجاوز الحدود هي التشرد الاختياري [٦٦] . وفيما يتعلق بهذا الوضوح المتمثل في أن « لا ميناء سينفتح « [٦٧] حيث لا ترى دربا في أي درب [٦٨]، يمثل في أدب اللغة الألمانية « الشاعرة الطروادية « بامتياز، فهي ربما انطلاقا من تماهيها القوي مع ضحايا الفاشية الألمانية والكولونيالية الأوروبية والنظام الاجتماعي البطريركي تقف دائما إلى جانب الضحية . تقول في قصيدتها « فاقد الإنسانية « التي وجدت ضمن تركتها الأدبية : « من يعرف فيما إذا كنا نحن عبر سماوات كثيرة/ نرى من خلال عيون مزجّجة / نحن منفيون في الزمن / ومطرودون من المكان / نحن، حائمون عبر الليل بلا أرض « [٦٩]

وليست هي الوحيدة بين قصائدها التي تذكر في إيقاعها وفي موضوعها ببعض قصائد محمود درويش من مجموعة « ورد أقل «، فالبشر في رؤيةِ إنغبورغ باخمان أصبحوا، بعد كوارثِ القرن العشرين، فاقدين للأرض والاتجاه، مطرودين بلا وطن وبدون موقف . تصف المنفى الذي يحيط بها في قصيدة بالعنوانِ ذاته بأنه يمثل الموت والعتمة ووجودا خاليا كليا من البشر في عالم « ممحوق مدمّر « [٧٠]

وفي ذلكَ يتكشف بشكلٍ أكثرَ وضوحا أنَّ في التجربة الفلسطينية (وقبل ذلك اليهودية والأرمنية) في معاناتها لنفي راديكالي للإنسانية طلائع إنسانية أخرى جرى إدراكها لاحقا بوصفها إنسانية ذات طابع وجودي كوني، مثلما عبّر كل من باخمان ودرويش .

هذا الموقف إزاء العالم الذي تتوحّد فيه الأنا الخاصة مع الآخرين مثلما توحدت لدى الشاعرة النمساوية إنغبورغ باخمان التي كانت مدفوعة بفقدان مطلق للوطن، والتي طورت في قصائدها الأخيرة أفكارا صوفية تقترب كثيرا – في نظري – من طرح درويش عن صورة الذات – والآخر . تقول في قصيدة « بوهيما في البحر « (١٩٦٤) على سبيل المثال :

« لست أنا، وإنما هوآخر ذلك الذي يبدومثلي (...) لست أنا، وإذا كنت أنا هو، فإنه إذن شخص ما يبدوشبيها بي، لا أريد المزيد لنفسي، أريد أن أمضي إلى التهلكة / إلى التهلكة يعني إلى البحر . « وفي بعض نصوصها القليلة المتأخرة ترهص بنوع من الخلاص الصوفي واللغوي من خلال وعي متجدد من الأساس حول الوجود الذاتي . وهذا الوعي الجديد يتقبل الوجود في المنفى اللانهائي على أساس ما يتضمن من إمكان تخطي الحدود اللغوية التي يمكن أن تمتد لتصبح حدود المعرفة أيضا . ولكن هذا الأمل الأخروي تقريبا بوعد لل (خلاص) لا يوجد بهذه الدرجة في شعر الفلسطيني المضطر إلى تقديم الأمنيات والحاجات الإنسانية البسيطة إلى المقدمة بسب الأخطار السياسية والفيزيائية الناجمة عن صراع الشرق الأوسط . وحتى لوكان ما يفرق بين الشاعر الفلسطيني والشاعرة النمساوية أكثر مما يجمع بينهما فإن لديهما تشابهات هامة في تماهي كل منهما مع المعاناة الإنسانية والظلم، وفي وعيهما لمصير النفي الإنساني . إلّا أن درويش يبدوأكثر تفاؤلا من باخمان وتسيلان . ويمكن لدرويش، في الشعر على الأقل، من خلال التخلي عن الهوية الأحادية والوقوع على الذات في الآخر أن يغادر فضاء المنفى الذي يعني الانغلاق : « ليس منفى أن أكونك ليس منفى أن تكون أناي أنت . « [٧١]

من الأرضِ إلى الجسد

لم تعد تحيط بالفنان المنفي حدود ثابتة حينما يتحد مع غريبته ؛ فالحدود هي فقط حواجز مصنوعة لغويّا : « إن حدود الوجود هي الكلمات . « [٧٢] ويمكن عبر الحب أيضا التغلّب على حالة القحط المسيطرة على العالم وأن توسع الحدود الخاصة ذاتها في اللانهائي : « لا حد لي بك « [٧٣] فقوة المخيلة والحب يستطيعان أن يجعلا الأرض التي ضاقت بالفلسطيني زمانا طويلا [٧٤] أكثر رحابة وحرية فيصبح الجسد هكذا وطنا جديدا:

.. « لا حدَّ لي

إن أردتُ :

أوسّع حقلي بسنبلة

وأوسّع هذا الفضاء بترغلة

فليكن جسدي بلدي . « [٧٥]

وإذا كانت « الأنا « الشاعرة قد فقدت موطنها الذي يعني وطن الآباء، فلا يبقى لها سوى « الانسحاب « إلى الجسد الخاص وإلى الإنسان الآخر باعتباره « وطنا « يوجد من جديد باستمرار أوبيتا « مفتوحا « [٧٦] . إن التوحد مع غريبة والرؤية من خلال عيني غريبة والنظر بجدية إلى حاجات الجسد الخاص هوفقط ما يجعل « الخريف « وحصاده ممكنًا فعلا، ويخلّص البشر من القحط والأرض المعذّبة :

« تخيّل، ولومرّة، أنك امرأة

لترى ما أرى

جسدي سيدي . « [٧٧]

وإذا كان الأنبياء الذكور قد تقاعدوا فيمكن فقط لكلمات امرأة أن تأتي بالخلاص والمصالحة ؛ ف « الأنا « الأنثوية ما تزال قادرة على أن تحمي « بئرها العميقة « [٧٨] رمز الانقسام والعمق الروحي ولكن أيضا التقاطع بين التاريخ الجمعي والتاريخ الفردي – من القحط حتى الآن . هذه المصالحة هي المحاولة الملحة في هذه اللحظة في وجه القحط الزاحف الذي هوناجم عن نقص الماء اليومي لدى الفلسطينيين وما يرتبط بذلك من دمار وخراب في الشرق الأوسط على المستوى السياسي، وليس على المستوى الشخصي فقط :

« والجفاف يودع سبع السنين العجاف

فلا بد من هدنة في المدينة،

لا بد من ماعز يقضم العشب

من كتب البابليين أوغيرهم،

كي تصير السماء حقيقية ...

فأضئ عتمتي ودمي بنبيذك

واسكن، معي، جسدي ! « [٧٩]

وإذا كان الاحتمال في الأبيات الشعرية يتعلق بحبيبين فإن المرء أيضا يرغب في قراءة دعوة فلسطينية، أي « يوسف « أنثى [٨٠] إلى إسرائيلي ليسكن أخيرًا « معي، جسدي « أي أرض فلسطين .

العدو، الضيف، الغريب

يمنح محمود درويش غالبًا أمله تعبيرًا [٨١] بتحويل عدوه إلى خصم [٨٢] . فطالما أن الغريب لا يحمل ملامح إنسانية يظلّ عدوّا على الدوام وبالتالي يبقى تهديدا مستمرا . ويمكن فقط أنسنة الآخر من خلال الالتقاء الإنساني . ومحمود درويش يروي مثل هذا الالتقاء في قصيدته « عندما يبتعد « من سنة ١٩٩٥ :

للعدوالذي يشرب الشاي في كوخنا

فرس في الدخان، وبنت لها

حاجبان كثيفان . عينان بنيتان . وشعرٌ

طويل كليل الأغاني على الكتفين . [٨٣]

الغريب في بادئ الأمر هو« العدو« الذي يتمتع بواجب الضيافة الذي تقدمه العائلة العربية . وهذا العدوجندي ؛ فهويحمل معه بندقية ويضعها بدون احترام على مقعد الجد :

« في كوخنا يستريح العدومن البندقية،

يتركها فوق كرسي جدي، ويأكل من خبزنا

مثلما يفعل الضيف . « [٨٤]

غير أن هذا الأجنبي الدخيل له بنت يحبها . إنه يأكل ويشرب وينام ويغدو، من خلال تحقيق الحاجات الأساسية، إنسانًا . ولابنته ملامح خارجية عربية . وإن هذا العدويغني الأغاني نفسها التي يغنيها الفلسطيني، بل إنه يحلم بالمكان المقدس نفسه :

« فلماذا يزور الضحية كل مساء ؟

ويحفظ أمثالنا مثلنا

ويعيد أناشيدنا ذاتها،

عن مواعيدنا ذاتها في المكان المقدس * ؟ « [٨٥]

هكذا يتحول الغريب الذي جرى تقديمه على أنه عدوإلى « ضيف « يمكن لإنسانيته أن تتحرر في الالتقاء في محيط البيت (المسكن) الذي حفظه المجتمع [٨٦] .

غير أن ما يمنع حدوث مصالحة وأنسنة دائمة للعلاقة مع العدوهوالسلاح الذي يفصل . إن « البندقية « ما تزال دائمًا _ من وجهة نظر الشاعر _ رمزًا للهوية الإسرائيلية والمجتمع العسكري الذي لا يهدد هدف الوجود الفلسطيني فقط بل إنه يتسبب أيضا في إرهاق الجنود الإسرائيليين، فهويلغي الالتقاء والاعتراف بالآخر :

« لولا المسدسُ لاختلط الناي في الناي .. « [٨٧]

فإذا ظلت الهوية الفردية متمركزة على ذاتها فلن يتحقق سلام في العالم : « لن تنتهي الحرب ما دامت الأرضُ / فينا تدور على نفسها ! « [٨٨]

في مقابل البندقية هناك الحصان الفلسطيني المتروك الذي أصبح تحت سيطرة الإسرائيلي . وبفقدان الحصان الذي يقف هناك في « الدخان « لأن « الأغاني تركته على قمة التل « فقد الفلسطيني حيويته أيضا، ولم يربح المحتل سوى وجود يغطيه الدخان وتغمره الظلال .

إن العدويسكن الآن في بيت الفلسطيني الحجري القديم بدلا منه بحيث لم يبق للذين عانوا من الغزوسوى الكوخ الخشبي ليسكنوا فيه :

« ثم يخرج من كوخنا الخشبي،

ويمشي ثمانين مترًا إلى

بيتنا الحجري هناك على طرف السهل / ...

سلّم على بيتنا يا غريبُ .

فناجينُ

قهوتنا لا تزال على حالها هل تشمُّ

أصابعنا فوقها ؟ « [٨٩]

تتخيل ال « أنا « الفلسطينية كيف أن وجودها الماضي ما يزال قائما ؛ فهويقود العدوكظلٍّ « في حقول الشعير « . في عيني « الأنا الشاعرة « التي جرى رسمها هنا بوصفها خاضعة لاستعمار كولونيالي، فإن

« البئر « المهجورة و« السروفي الأعالي « و« الحصان « الذي يخاف من الطائرات ما تزال هي أشياءها المحببة . إن رجاء « سلّم على بيتنا « الذي يقتبس طيّار ييتس لم يستطيع تحرير الفاتح المنتصر من دور المضّطهَد :

« هذا الكلام الذي كان في ودّنا

أن نقول له، كان يسمعه جيدًا

جيدًا،

ويخبئه في سعال سريع،

ويُلقي به جانبًا

(...)

ويقرأ شعرًا لطيار « ييتس « : أنا لا أحب الذين

أدافع عنهم، كما إنني لا أعادي

الذين أحاربهم ... « [٩٠]

لقد بات شعر محمود درويش الأخير نوعًا من دعوة الآخر لكي يتخلّى عن « قلعته « وينحاز إلى هويته الإنسانية .

« لعل هذا هوامتحاني في ثنائية البيت والطريق. أما البيت فلا يليق به إلاّ المعنى الخالي من البلاغة. ولكن، هل عُدتُ حقاً؟ هل عاد أحدٌ إلاّ مجازاً؟ سأجد صعوبة بالغة إن حاولت الإمساك

بأولى المفردات للتأكد من صحة مكانتها في السياق، فقد اختلط الواقعي بالاسطوري, والتبس البعيد مع القريب. بيد أن النهر ليس هوالينبوع.

من هذا المكان الجليلي وُلدت من لغتي تدريجياً، ولم أُكمل ولادتي بعد، فلا فرد يستطيع الاطمئنان إلى جوابه الشخصي عن سؤال كان جماعياً منذ البداية، منذ مأساة الاقتلاع الكبير... إلى ملهاة سلامٍ لا يعتمد إلاّ على موازين القوى مرجعية وحيدة. فماذا تفعل اللغة أكثر من الدفاع عن ثقافتها، عن ذاكرة جماعية ومكان مكسور وهوية؛ وعن عناد الأمل المحاصر بالقنوط والتشكيك. فما من شيءٍ غير الخيال بقادر على إعادة تركيب الزمن المنكسر أمّا الواقع فهوكالتاريخ من صنع إرادة البشر القادرين على وضع الزمان الصحيح في المكان الصحيح.» [٩١]

لوأن الغريب يفتح « قلعته « فسوف يكون قادرًا على الاستسلام للأشياء الجميلة في الحياة، وسيتمكن أيضًا من رؤية العدوإنسانًا وليس تهديدًا . أما الشاعر العربي فلا يبقى لديه ضمن معادلة اختلال موازين القوى بين الإسرائيليين والفلسطينيين سوى فنه وثقافته اللذين لواعترف بهما « العدو« فإنهما سوف يمتعانه ويغنيانه :

قلنا لهم : هدنة هدنة لامتحان النوايا

فقد يتسرّب شيء من السلم للنفس

عندئذٍ نتبارى على حب أشيائنا بوسائل شعرية

فأجابوا : ألا تعلمون بأن السلام مع النفس

يفتح أبواب قلعتنا لمقام [٩٢] الحجاز أوالنهوند

فقلنا : وماذا . ؟ وبعدُ « [٩٣]

الوقوع على الذات في مرآة الغرباء

تفضي حقيقة أنّ جميع الناس تجمع بينهم أشياء مشتركة إلى أن يكون « الغريب مرآة للغريب«[٩٤]، وبدون هذا المرآة لا يمكن لل « أنا « التعرف على ذاتها إطلاقًا : وسار بنا سفرًا عابرًا بين أسطورتين (...) غريبًا يرى نفسه في مرايا غريبته . « [٩٥]، ولا إمكانية أخرى أمام ال « أنا «

المنفية الوحيدة للتعرف على ذاتها وإلقاء نظرة على حياتها الخاصة كما كان يمكن أن تُعاش لولم يطردها الغرباء، إلا من خلال النظر في مرآة ذلك الذي يعيشها فعلا، وهذا كسر آخر للتناقض :

« هل تقول لبنتك ذات

الجديلة والحاجبين الكثيفين إن لها

صاحبًا غائبًا،

يتمنى زيارتها، لا لشيءٍ ...

لكن ليدخل مرآتها ويرى سرَّه ُ :

كيف تتابع من بعده عمرَه ُ

بدلاً منه ؟ « [٩٦]

الفتاة اليهودية ذات الملامح العربية تواصل إذن عيش حياة الفلسطيني في بيته « بعيدًا عنه « وتأخذ بذلك مكانَ الصديق الفلسطيني « الغائب « الذي لا طريق أمامه للنظرِ في « أناه « القديمة في طفولته بدونِ مرآتها . إن فكرة تبادلية الهويات و/أوالأدوار التي تتردد هنا تختبئ أيضًا في سؤالِ « الأنا الشاعرة « في قصيدةِ « كانَ ينقصنا حاضر « : « هل أنا أنت أخرى، وأنا أنت آخر ؟» [٩٧] وبدونِ أن يقومَ الآخرُ بدور المرآة المقابلة تظلُّ الهوية الخاصة مجزّأة ومشظّاة، وتظلُّ الحياة مفرغة من المعنى . وفقط في علاقة مع غريب، وبالذات لأنه أحد أفراد الأعداء الدخلاء، يمكن لانفصال الفلسطيني عن ذاته أن ينتهي . وبهذا تكتسب فكرة أن معرفة الذات مرتبطة دائمًا ببني الإنسان معنى خاصًا جدًا . ويكون اللقاء لكلا الطرفين من أجل موقف إيجابي تجاه السلام والحب ضروريّا كالخبز اليومي :

« ... وعليكَ الوصول إلى خبز روحي

لتعرف نفسك .. « [٩٨]

" غريب عن اسمي وعن زمني «

قرأ النقد الغربي والنقد العربي المجموعة التي صدرت عام ١٩٩٩ بوصفها شعرًا إيروتيكيا فقط

. وقد صرّح الشاعر نفسه بأن " سرير الغريبة " مجموعة مليئة بقصائد الحب التي تتغنى ب " منفى المرأة في الرجل، ومنفى الرجل في المرأة . " [٩٩] . صحيح أن من الممكن قراءة القصائد على أنها شعر حب شخصي، ولكن ذلك لن يكون في رأيي عادلا تجاه شعر محمود درويش المركب المتعدد الطبقات ؛ فهولم يفقد البعد السياسي الذي نشأ حتى عن التطورات التاريخية في نهاية التسعينات، ولوأن ذلك قد تراجع بشكل جزئي بعيدًا في الخلفية . [١٠٠]

وهكذا أيضًا فإنَّ قصيدة « قناع لمجنون ليلى « ليست محض قصيدة عن حبّ امرأة بل تتضمن أبعادًا سياسية مترامية وتتحرك بذلك على الصعيدين الشخصي والجمعي في الوقت نفسه . تحت قناع قيس بن الملوّح [١٠١] تخلع « الأنا الشاعرة « هويتها لتتقمص هوية الشاعر الأموي . إن وسيلة « القناع « Persona [١٠٢] الأسلوبية المستمدة من الدراما تقدم إمكان تحقق تبادل خيالي للهوية يتيح تقديم تراجيديا الشاعر الفلسطيني المعاصرة من خلال شعر الحب العربي القديم .

إن غزل سنوات التسعينات هونظرة استرجاعية في الطفولة الشعرية الخاصة("كنت دون الثلاثين") حينما رأى الشاعر صورة حبيبته فلسطين وعينيها في كل مكان :

إن لم تكن هيَ

موجودةَ جسدًا فلها صورة الروح

في كل شيء . [١٠٣]

وإن الحب السابق للحبيبة فلسطين الذي اتخذ دائما صورة الوطن قد أبعد الشاعر عن « حياته على الأرض « وقرّبه من « النجوم « و« الخفيّ « . غير أن حبّ الفلسطيني مثله مثل حب الشاعر العربي القديم يظل غير متحقق لأن ليلى « محتلة « من رجل آخر :

ونتيجة هذا الوضع غير المحتمل تهرب « الأنا « إلى النهر، إلى « العدم الأزرق « للانتحار حبًّا . إن موتيف الموت الاختياري في النهر الذي يتكرر عند درويش هوهنا الحدث الاستهلالي لمعرفة الذات التي قد بدأت . والنهر الذي انتحر فيه الشاعر اليهودي اليائس باول تسيلان لا يعني لمحمود درويش تجربة موت فقط، بل بداية المنفى والرحلة الأبدية المستمرة . يمكن للنهر شفاء الشاعر العاشق التعس الذي ينقذه أخيرًا « رجل عابر « [١٠٤] :

... عالجني النهر حين

قذفت بنفسي إلى النهر منتحرًا،

ثم أرجعني رجل عابر، فسألت :

لماذا تعيد إليَّ الهواء وتجعلُ

موتي أطول ؟ قال : لتعرف

نفسك أفضل .. من أنت ؟

قلت : أنا قيس ليلى، وأنت ؟

فقال : أنا زوجها . [١٠٥]

يتبيّن، ويا للمفارقة، أن المنقذ هوالزوج الحالي ومنافس قيس الذي يساعد « الخاسر « على معرفة الذات حين يمنحه الهواء ليتنفس .إن منافس قيس قد يكون هوالخصم المقابل أي اليهودي المعاصر الذي»اغتصب» من الفلسطيني حبيبته الأرض . ويلمح المقطع التالي أيضًا إلى الأصل المشترك لليهود[١٠٦] والعرب ؛ فقد كان المنافس الحالي في حقبة تاريخية سابقة في الأندلس أوفي زمن التوراة على خليج « الأخوين « شريكًا للعرب في الإنسانية، وكلاهما معًا يصنعان « نحن « :

« ومشينا معًا في أزقة غرناطةَ،

نتذكر أيامنا في الخليج .. بلا ألمٍ

نتذكر أيامنا في الخليجِ البعيد . " [١٠٧]

إن الحياة المستعادة من غير الحبيبة تبدوكأنها عملية موت تتقبلها « الأنا الشاعرة « مثل الحياة الجديدة في الغربة على نحو« مازوخي « تقريبا . الغربة المسيطرة على كل شيء، وانفصال ال «أنا « عن اسمه

وعن هويته السابقة وعن زمنه وعن « عالم لم يعد عالمي « [١٠٨] كل ذلك قد تكدّس مثله مثل بُعْد الحبيبة، على كاهل قيس، وبات ذلك وضعًا دائمًا « :

أنا قيس ليلى

غريب عن اسمي وعن زمني .

لا أهزّ الغياب كجذع النخيل

لأدفع عني الخسارة، أوأستعيد

الهواء على أرض نجد . ولكنني،

والبعيد على حاله وعلى كاهلي،

صوت ليلى إلى قبلها .[١٠٩]

إن الهوية الكفاحية وكذلك « مخرج « هوية التوحد مع الوطن الذي يَعِدُ به الموت لاستشهادي يتم التخلي عنهما لصالح شكل جديد رقيق من الوجود لا يعيش الشاعر فيه وجودًا بالمعنى الاعتيادي . لقد أصبحت الحياة « مرض الموت « فالحب ذاته قائل : « أنا من أولئك، ممن يموتون حين يحبّون « [١١٠] . وتمامًا مثل الشعراء العذريين الذين يتغنون بمحبوباتهم بطريقة خالصة متلاحقة حزينة فإن « الأنا « منذورة كليًّا للحب

والشعر بدون أي أمل في تحقق الحب في هذه الحياة . إنها فقط صوت شعري ووجودها التاريخي غير متأكد إلا على نحوقليل مثل الشاعر العربي القديم :

« أنا من أولئك،

ممن يموتون حين يحبّون . لا شيء

أبعد من فرسي عن معلقة الجاهلي

ولا شيء أبعد من لغتي عن أمير

دمشق، أنا أول الخاسرين . أنا

آخر الحالمين وعبد البعيد . أنا

كائن لم يكن . وأنا فكرة للقصيدة

ليس لها بلد أوجسد ْ

وليس لها والد أوولد ْ

أنا قيس ليلى، أنا

وأنا ... لا أحد ! [١١١]

إن الشعر الذي هو« صوت إلى قلبها « يعمل، ويا للمفارقة، على التقارب الأكبر بين ليلى وعاشقها على الرغم من البعد القائم . والشوق إلى ليلى يعني معاناة جديدة وتنازلا ذاتيًا من أجل الحبيبة : « هل أضيّق صحراءها أم أوسّع ليلي، لتجمعنا نجمتان على دربها ؟ « [١١٢] إن ابن الغيب [١١٣] ينبغي أن يقيم في الليل

أويكون بريّةً لترعى فيها غزالته التي هي استعارة كلاسيكية للمرأة المعبودة، لكي يقرّب الغائب إلى حضوره . وبصفته ابنًا للغيب فلا يمكنه أيضًا أن يكون له والد أيضًا . وبعيدًا عن جميع البشر والواقع الاجتماعي « بلا والد أوولد « فإن الشاعر الحالي هوطفل يتيم مثل الشاعر القديم . [١١٤]

إنّ « لا – هوية « قيس تنشأ بذلك من فقدان مزدوج ؛ فقدان الحبيبة التي تحقق الهوية الأصلية على نحوإيجابي، وفقدان ماضيه الذي كان حقيقيًّا فقط مع حبيبته . وعليه فلا يتبقى سوى فكرة بدون جوهر مادي أوتاريخ في غربة لا تنتهي ترتحل متغنية بالبعد وكأنه شيء مقدس . [١١٥]

لقد طرح محمود درويش الشاب في أواسط الستينات سؤالا عن قيمة الإنسان بلا وطن في قصيدته « رسالة من المنفى « حين قال :

ما قيمة الإنسان / دونما وطن / دونما علم / دونما عنوان، ما قيمة الإنسان ؟ « [١١٦] فهل كان الشاعر آنذاك يرفض خسارة القيمة الذاتية في المنفى الإجباري، هكذا ينطق من كلمات « قيس الجديد « التقبل الشجاع للمصير والاستعداد للتخلي كليًا عن الأمة والأرض والوعي بقيمة الذات ليكون وعيًا فقط . [١١٧] لقد تحول المنفى الخارجي إلى حالة روحية داخلية جرى فيها التخلي عن كل حق في الوجود الفيزيائي

أوالتاريخي، بل حتى استمرار الحياة الذاتية من خلال الأبناء التي هي الأمنية الأغلى لأي أب في المجتمع العربي التقليدي جرى قذفها هنا انطلاقًا من ضرورة داخلية على نحويقترب نوعًا ما من تدنيس المقدسات . لا يوجد في أي بيت شعري آخـر للشاعر الفلسطيني كما في قول قيس الأخير مثل هذا التخلي الجذري عن الموقف الذاتي الحديث للهوية التي تُفهم على أنها جوهرية وموحّدة والتعبير عن الوعي الذاتي بأنه لم يعد شاعرًا بل يريد أن يكون شعرا فقط . هكذا

تنطبق على محمود درويش أيضًا مقولة رامبو[118] : « من الخطأ القول : إنني أفكر، أعتقد أنّ على المرء أن يقول : يُفكّر من خلالي .. أنا آخر . « [119]

« هنالك حب .. «

في واحدة من أجمل قصائد الغزل عند محمود درويش وهي قصيدة « سماء منخفضة « يتحول الحب نفسه إلى لاعب يتجول غير مرئي مثل شخص منعزل عن المجتمع لامنتم غريب، أومتسكع خارج الناس وداخلهم . إن حالة الحب المشخص التي كانت في البداية من صفات المسيح تكرّس نفسها كلياً للتأمل والإصغاء تمامًا مثل الشخصيتين في قصيدة « نمشي على الجسر « :

هنالك حبّ يسير على قدميه الحريريتين

سعيًدا بغربته في الشوارع

حب صغير فقير يبلله مطر عابر

فيفيض على العابرين :

« هداياي أكبر مني

كلوا حنطتي

واشربوا خمرتي

فسمائي على كتفي وأرضي لكم ... [120]

إن الخبز والخمر رمزي الحب المسيحي للآخرين، أي التصالح والاستعداد للتقاسم مع بني البشر هي « هدايا « « الحب « التي كان المطر يمنحها الخصب من قبل . هذا الحب « سعيد بغربته في الشوارع « إنه يحمل كمنفي ومنبوذ من الناس مثل الفلسطيني سماءه على كتفيه دائمًا . [121] وعلى الرغم من أنه سجين في وضع المنفى هذا الذي جعله « صغيرًا « و« فقيرًا « فإنه يحمل معه إمكانية المتعة والخصب ولكن أيضًا إمكانية التغلب على الوحدة أيضًا . ويمكن تجاوز الوحدة والمنفى فقط حينما يتم اختيار « الأغاني التي تتحدث عن عطش الحب « وليس تلك التي تتحدث « عن زمان مضى « [122] . إن النسيان يغدوهنا شرطًا مسبقًا من أجل التمكن من

منح الذات للحاضر، لكي يكون قادرًا في الأساس على الاستمرار في الحياة وقادرًا على الحب : « أنسى من أكون لكي أكون . « [١٢٣] إذا تسنى لل « أنا « أن تتحرر من « إطار « القديم [١٢٤] وتنفتح على العالم الجديد فإن الفقر والفقد يتحولان إلى ثراء وحرية .

إذا منحت « الأنا « ذاتها للحاضر وأصبحت متنبهة يمكن للحب أخيرًا أن يكون متقبلا ويحقق توقه الخاص و« يقلّل عدد اليائسين « . وهكذا فإن الحب محتاج من أجل الاستمرار والانتشار إلى إنسانين يصغيان إلى مشاعرهما الداخلية ويحسّان بأنفسهما من الداخل . إن أمورًا مثل الانتباه والإنصات إلى داخل الذات وتقبل الألم والحزن الداخليين اللذين يستشعرهما الفلسطينيون والإسرائيليون أنفسهم في حالة الصراع المستمرة هما أول ما يضيع :

فحين تصيرالحياة طبيعية

سوف نحزن كالآخرين لأسباب شخصية

خبّأتها عناوين كبرى،

فلم ننتبه لنزيف الجروح الصغيرة فينا . [١٢٥]

ينبغي أولا أن ينتهي الصراع حتى تتمكن الحياة من التوجه نحوالأمنيات والحاجات الطبيعية . ولكن إذا رفع الناس أمنياتهم وأهدافهم عاليًا، وإذا كانت لهم « سماء أقل ارتفاعا « فيمكن أن يتحقق السلام من قوة التوق إلى الحب . إذا فقد الحب أوهامه وبات واعيًا بأنانيته فإن كل « واحد « وكل « واحدة « يتحوّل إلى « أنت « لكي يستطيع أن يهدي إليه زهوره [١٢٦] :

هنالك حبّ فقير، يطيل

التأمل في العابرين، ويختار

أصغرهم قمرًا : أنت في حاجة

لسماء أقل ارتفاعًا

فكن صاحبي تتّسعْ

لأنانية اثنين لا يعرفان

لمن يهديان زهورهما ...

ربّما كان يقصدني، ربّما

كان يقصدنا دون أن ننتبه

هنالك حب ... [١٢٧]

مع شكل القصيدة المدورة جرى الإلماح على أية حال إلى أن الشاعر من الآن فصاعدًا هو نفسه مثل عاشق يرغب في أن «يمشي على قدمين حريريتين « وأن يحكي دائمًا من جديد بأن : « هنالك حب..« [١٢٨]

الهوامش:

١ الفصل الأخير من كتاب : غريب عن اسمي وعن زمني . الهوية والمنفى في شعر محمود درويش . صدر بالألمانية عن دار نشر هانز شيللر في برلين، ٢٠٠٥

درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص ٢٨ .

٢ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص ٢٦ [٢]

٣ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص ٢٧

٤ المقصود بذلك هوالوطن المتروك الذي لم يعد موجوداً بشكله الأصلي والذي ما يزال يتبع الشاعر مثل ظل.

5 GAZZONI (1982), S.98

٦ الغيب يمكن أن يعني ايضاً "الخفي" إلاّ أنه يعني غالباً ما لا يمكن إدراكه بالحواس والعقل البشري. الغيب حاضر في المجال الإلهي. في القرآن يعني الغيب غالباً السرّ الإلهي الذي لا يعلمه البشر وهوفي الوقت نفسه يعني السر، ولكن الله يكشف لبعض الناس عن السر الإلهي إذا شاء. وفي التصوف الإسلامي يحمل الغيب معنى الوجود المختفي في جميع الأشياء.

EI٢, Band ,٢ S. ١٠٤٩

٧ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص ٢٨

٨ عند الفيلسوف اليهودي إيمانوئيل ليفانز يشير "وجه" الآخر إلى حريته، وفي الوقت نفسه هومكان التّماس مع اللغة واللانهائي.

LEVIAS, Emmanuel (1989) Tatalite et Infini: Essai sur L'Exteriorte S.43.

9 FASSBIND, Bernard (1995) Voraussetzungen dialogische Rede bei Paul Celan und Konzepte von Intersubjektivitaet

bei Martin Buber, Martin Heidegger und Emmanuel Levinas. Muenchen, S. 6170-

١٠ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٢٩

١١ يرى كثيرون وخاصة من الفلاسفة والعلماء العرب المتأثرين بالتصوف علاقة قوية بين الحب واللانهائي. جاء في مقولة أساسية لابن حزم في "طوق الحمامة": " وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا . والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع (...) وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هوالاتصال والانفصال .." ابن حزم (١٩٦١) . ولد "منظّر الحب " والعالم الأندلسي في قرطبة عام ٩٩٤م وتوفي عام١٠٦٤م .

١٢ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٢٩

١٣ ينتقد مفكرومابعد البنيوية بشكل خاص مفهوم الذات التقليدي ؛ فالذات لم تعد أولوية، موحدة، مستقلة، ولكنها المكان الذي تحدث فيه الأشياء. إنها [أي الذات] تقف في ظلّ نفسها. وهي ذاتٌ مشظّاة . وتشير بعض الناقدات

النسويات (لوس إيراغاري وهيلين سيكسوس وأخريات) إلى أن هذه الذات تشرعن القوّة تحاول امتلاك الناس والأشياء وتتضمن صفات ذكورية. HAWTHORN (١٩٩٤), S.٣٠٩-٣١٠.

14 GUZZONI (1982), S. 99.

١٥ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٢٩.

١٦ بيت من رسالة " Renoncement au voyage " للصوفي الشهير ابن عربي (١١٦٥-١٢٤٠) وفيها ينتقد الصوفي كثير الترحال كثرة الحركة ويمدح الاقامة التي تمنح البشر الهدوء الفعلي للتأمل . فقط لمن يظل مقيما في المكان يكون لله أقرب ويكون أكثر قدرة على النظر في الأشياء الخفية وراء الأشياء . مقتبس عن " DERMENGHEIM , Emile . 283-(1971) : less Plus Beaux Textes Arabes . Paris , S .282

١٧ التناص والتناص الذاتي من السمات الواضحة لـ "شعر الذات" عند باول تسيلان: "الخاص ينتج عن عملية لا تتجه فقط إلى آخر (أجنبي) بل تفضي بالذات إلى الغربة بشكل دائم." Paul "Andere" 151JACOB. Michel: Das Celans oder von den Paradoxien relationalen Dichtens. Muenchen, S.

18 WALDENFELS (1997) S.70

١٩ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٢٨.

20 CELAN, Paul (2001): Lch hoerte sagen.Ausgewaehlte Gedichte. Zwei Reden. Mit einem Nachwort von Beda Allemann. Frankfurt. S. 144.

21 CELAN (2001), S. 144

22 Bollack, Jean (2000): Paul Celan. Poetik der Fremdheit. Aus dem Franzoesischen von Werner Woegerbauer. Wien, S. 37

23 BOLLACK (2000), S. 17.

٢٤ درويش (٢٠٠٢) حالة حصار، ص ٩١.

٢٥ في مجموعة "حالة حصار" التي ظهرت عام ٢٠٠٢ قصيدة تعبر بشكل واضح جداً عن أفكار ميتا شعرية: "يحاصرني في المنام كلامي / كلامي الذي لم أقله / ويكتبني ثم يتركني باحثاً / عن بقايا منامي ... "، ص٢٥.

٢٦ معروف، محمود: درويش في أمسية شعرية استثنائية. مقابلة مع محمود درويش في: القدس العربي، ٢٠٠٤/٢/١٨، ص١٠.

٢٧ الحوارية هي سمة فارقة للأدب العربي كما أن الحديث [النبوي] وكذلك الشعر العربي القديم والكلاسيكي يتكون في مقاطع كثيرة من حوار. وهذا عائد إلى تقاليد الرواية الشفوية في الشرق الأوسط. أنظر:

DRODY, R. (1998): Dialogue in literature medieval. In: EAL, Band I, S. 191.

٢٨ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٢٩-٣٠.

٢٩ ناقش كمال أبوديب بشكل مسهب تشظي "الأنا" في الشعر العربي الحديث: "بينما تهب رياح التفتت فإن الاحساس بالتوحد مع الآخر لا يتزعزع فحسب وإنما التوحد مع الأنا أيضاً"

ABOU DEEB, Kamal (1997), Conflicts, Oppositions, Negations: Modern Arabic Poetry and TheFragmentation of the self / Text. In: BOULLATA, Issa, J. (Hrsg.) Tradition and Modernity in Arabic Literature, Gayetteville, S. 110.

٣٠ خوري (٢٠٠١)، ص٦٦.

٣١ العدووأنا عشنا بشكل قسري (...) هووأنا، نستطيع القول إن أحلامنا نامت في السرير نفسه.

32 Palaestina al Metapher ,S. 4446-. DARWISCH (1998)

٣٢ خوري (٢٠٠١)، ص٦٧.

٣٣ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ٦٨..

٣٤ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٣٧.

٣٥ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص ٣٧.

36 GUZZONI (1982), S. 69.

٣٧ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٢٩.

٣٨ المثنى إلى جانب المفرد والجمع هوالعدد الثالث في اللغة العربية، وهويشير إلى شخصين أوشيئين.

٣٩ خوري (٢٠٠١)، ص٦٣.

٤٠ مقتبس عن: ABOU-DEEB (1997), S. 106.

٤١ *في هذه القضية اتهمت كلير غول أرملة الشاعر الفرنسي Yvan Goll الذي توفي سنة ١٩٥٠ . تسيلان بأنه قد انتحل أشعارا لزوجها، وهذا ما ثبت عدم صحته لاحقا . وكان تسيلان قد ترجم بعض أشعار غول إلى الألمانية (المترجم) .

درويش (١٩٩٢) أحد عشر كوكباً، ص٢١.

٤٢ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص ٣٩ .

٤٣ ولد باول تسيلان في ٢٣ نوفمبر ١٩٢٠ في تزيرنوفيتش (بوكوفينا)، درس الطب قبل الحرب [الثانية] في فرانكفورت، وبعد ذلك درس اللغة الألمانية وآدابها وعلم اللغات. خلال الحرب وضع في معسكر اعتقال في رومانيا. كان شاعراً ومحرراً صحافياً ومترجماً توفي عام ١٩٧٠ في باريس.

٤٤ «أنت تقذف خلفي وأنا أغرق / ذهبا»

مقتبس عن: BOLLACK (2000), S.23

يأتي تأويل بوللاك على النحوالآتي: "إنك تقف على اليابسة وراء الجسر بينما الآخر يموت. ولكن الافتراق ليس تاما،

فهويصل إلى نوع من الثنائية. لم ينظر تسيلان إلى موته على أنه قدر. صحيح أن الموت في القصيدة أنتج موتا (٠٠٠) غير أن الفن (الشعر) في النهاية يحاكي الحياة. وحسب تسيلان فإن الأمر يتعلق في القصيدة بالصمت، لأن "المخاطب" لا يستطيع الحديث عن الموت، وكون "الأنا" يموت في النهر، فهويعرف عن الموق. وعلى الرغم من غرق "الأنا" في النهر إلاّ أن الأسماك تحصل على غذاء (شعر) كاف، على فكرة عن الماضي الذي لا يمكن الحديث عنه.

جرى مبكراً وعلى نحومكثف معالجة تراسل أنا – المؤلف مع أمه الميتة- بهدف التوحد مع جميع القتلى الأبرياء.

٤٥ أنظر: EMMERICH (2000), S.199

46 EMMERICH (2000), S. 180

٤٧ هكذا تقارن بعض الأبيّات من "حالة حصار" (٢٠٠٢) الحالة الفلسطينية مع تجربة الهلوكوست اليهودية التي كانت حالة من الانعدام غير المحدود للإنسانية غير المحدود. [إلى قائل]:

لوتأملت وجه الضحية

وفكرت، كنت تذكرت أمك في غرفة

الغاز، كنت تحررت من حكمة البندقية

وغيرت رأيك، ما هكذا تستعاد الهوية.

حالة حصار، ص٢٩.

٤٨ اقتباس عن ماريا تزفيتاييفا كان شعاراً (اقتباساً استهلالياً) لقصيدة تسيلان "ومع كتاب تاروسا" (١، ٢٨٧ – ٢٨٩). واقفاً في وردة اللا أحد.

BOLLACK (2000), S. 199.

٤٩ توصل بوللاك من خلال أدلة مقنعة إلى أن تسيلان لم يكن يقصد إلى إضفاء هذه المعاني على القصيدة لأن «تسيلان يربط شعره قبل كل شيء بالخلفيات التاريخية والثقافية لوجوده اليهودي.»

BOLLACK (2000), S. 201

50 BOLLACK (2000), S. 187

٥١ أنظر المقابلة التي ظهرت قبل مدة "هناك تقاطعات كثيرة بين مصيري الشخصي ومصير شعبي." معروف، محمود: محمود درويش في أمسية شعرية استثنائية. في: القدس العربي ٢٠٠٤/٢/١٨، ص١٠.

٥٢ مقتبس عن: EMMERICH (2000), S. 180

٥٣ أنظر هنا EMMERICH (2000), S. 178- 200

54 BAR- ON (2001), S. 22

55 DARWISCH (1998) Palaestina als Metapher, S. 41

٥٦ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٦٩

٥٧ يمثل إبراهيم طه وجهة النظر القائلة إن الفلسطينيين الذين يعيشون في إسرائيل مروا في المدة الأخيرة "بعملية فلسطنة وأسرلة في الوقت نفسه" تفضي إلى تهجين الهوية الذاتية باعتبار ذلك إغناء وليس تهديداً. أنظر :

Taha, Ibrahim (2000) The Palestinians in Israel: Towards a Minority Literature, In: Arabic and Middle Eastern Literatures, 3 S. 219- 220.

عن: EMBOLO, NEUWIRTH and PANNEWICK, S 38

٥٨ درويش (٢٠٠٢) حالة حصار، ص٦٥.

٥٩ أستند هنا إلى مصطلح "الكوزموبوليتية" مثلما ناقشه سيمل Simmel ولكن مع تحديد أن الكوزموبوليتي يعترف بالفوارق بين الثقافات إلاّ أنه يمتاز أساساً من خلال "استعداده" "للتعاطي مع الآخرين" MERZ- BENS und 20-Wagner (2000), S. 19

٦٠ قارن مقالات في: 18-Diwan, Nr. 4, Berlin. Oktober 2002, S. 7

٦١ مقتبس عن الحديدي، صبحي (2002) :Das segenreiche Feld. In: Diwan (2002), S. 8

٦٢ يمكن لزوال الحدود أن يقدم مخرجاً للضيق الضاغط على الفلسطينيين. يمكن للشعر أن يرفع الحدود ويوسع الأرض التي ضاقت على الفلسطيني تلك «الحدود التي تفصل البلاد وتفصل البشر (٠٠٠) والهويات.»

DARWISCH (1998) Palaestina als Metapher, S. 36

٦٣ درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيداً، ص١٣

٦٤ ناقشت فكرة هانز – ديتر هذا المفهوم الظواهراتي (الفينومينولوجي) من خلال نقد دريدا لمطالعة لبفيناز حول هوسرل: "من المفارقة أنه لا يمكنني التوصل إلى احترام الآخر الاّ بصفتي آخر فقط – حينما أعترف به مساوياً لي لأن جميع البشر متشابهون، فإن لهذا الآخر (أنا) تسيطر عليه مثلما أن لي (أنا"(تسيطر علي، ومن خلال ذلك يغدوالآخر بالنسبة لي مشاركاً في الوجود. WELZ, Frank (2000): Identitaet und Alteritaet in soziologischer Perspektive, In: ESSBACH (Hrsg.) , S. 90

65 BACHMANN, Ingeborg (1993): Saemtliche Gedichte. Muenchen, S. 177

ويمكن التوصل إلى نتائج مثيرة عند مقارنة أعمال كلا المؤلفين.

٦٦ ولدت الكاتبة والشاعرة إنغبورغ باخمان سنة ١٩٢٦ في كلاغنفورت / كيرنتن على الحدود بين سلوفينيا وإيطاليا حيث ترعرعت. عاشت في أماكن كثيرة من بينها فيينا وباريس وبرلين وروما. صبغت أعمالها المبكرة بذكريات كارثة الهولوكوست وبأفول الحياة وتحطمها وبموضوعة الموت.

عالجت أعمالها الأخيرة وخاصة "Todesarten – Projekt" (أنواع الموت – مشروع) بأسلوب غاية في التركيب وبشكل مجسّد ومشتت على نحومقصود العنف البنيوي في العلاقات الاجتماعية السائدة حتى في اللغة نفسها. ربطتها صداقة قوية مع باول تسيلان، وهي تشير إليه في روايتها الأكثر شهرة والوحيدة المكتملة (مالينا("Malina".

حول حياة الشاعرة النمساوية وأعمالها، أنظر:

HOELLER, Hans (1999): Ingeborg Bachmann, Reinbek bei Hamhurg.

٦٧ بيت من قصيدة "رؤية" BACHMANN (1993), S. 28

٦٨ بيت من قصيدة "تغريب" BACHMANN (1993), S. 23

69 BACHMANN (1993), S. 29

٧٠ "ميت أنا يتجول / لم يُسجل بعد في أي مكان/ إلاّ مع الريح، مع الزمن، مع الرنين / لا يمكنني العيش بين البشر .."
BACHMANN (1993), S. 163

٧١ درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيداً، ص١١٣

٧٢ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص١٢١

٧٣ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٨٤

٧٤ يخطر هنا في البال ظروف الحياة الصعبة في غزة حيث يعيش ١,١٩٦,٦٣٠ من البشر في مساحة ٣٦٥ كم مربع فقط، [كان] منها ٤٢كم مربع للمستوطنين اليهود.

٧٥ درويش (سرير الغريبة)، ص٨٤.

٧٦ انزاحت بؤرة قصيدة درويش عن الأرض إلى الجسد الخاص والواقع اليومي. أنظر :

EMALIBO und NEUWIRTH und PANNWICK (2001), S. 84.

٧٧ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص ٨٤.

٧٨ البئر هي الماء وهي نقيض العطش. إنها رمز الحياة في زمن القحط (...) وفوق ذلك فإن البئر تمثل عمقا غامضا، والطريق الذي يقود الناس إلى باطن الأرض (...) ويمكن للبئر أن تجمع بين التاريخ الفردي والتاريخ الجمعي خاصة أن البئر ترتبط بفكرة الجماعة والمشاركة والدفاع عن الممتلكات. DARWISCH (1998) Palaestina als Metapher, S. 109

٧٩ درويش (سرير الغريبة)، ص٨٥.

٨٠ السنوات السبع العجاف إشارة إلى يوسف في التوراة والقرآن الذي أنقذ مصر من مجاعة بقدرته على تأويل الأحلام. وبعد حلمه الذي رأى فيه أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له ألقى به أخوته في البئر، وقاده الحظ إلى مصر حيث أصبح مفسّر أحلام الفرعون. أنظر سورة يوسف في القرآن.

٨١ أنظر الفصل ١/٦

٨٢ أنظر DARWISCH (1998) Palaestina als Metapher, S. 46

٨٣ ترجم المؤلف هنا المكان المقدس مثلما ورد عند درويش بالمدينة المقدسة في الألمانية. (المترجم) درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيداً، ص ١٦٤.

٨٤ درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيداً، ص١٦٥.

٨٥ درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيداً، ص١٦٦

٨٦ أشار إيمانوئيل ليفانز إلى أن البيت يتضمن شيئاً أنثوياً نظراً لطبيعته الداخلية [وكأنه رحم] ولذلك يسكن فيه الانسان ويثوب فيه إلى نفسه، وهكذا يمكن تخطي العلاقات السائدة في المجتمع في الخارج بما فيها من تغريب ولا إنسانية . LEVIANS (1987), S. 167

٨٧ درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيداً، ص١٦٦

٨٨ درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيداً، ص١٦٧

٨٩ درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيداً، ص١٦٧

٩٠ درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيدا، ص١٦٦

٩١ درويش (٢٠٠١) الطريق والبيت، ص٢٥٩

٩٢ كلمة مقام العربية تعني حرفيا "المكان" ولكنها هنا تشير إلى الجنس الموسيقي العربي التركي الإيراني وعلى الأخص إلى النماذج الموسيقية التي تعزف على آلة العود وترافق الغناء بالشعر عمادة. ومقاما الحجاز والنهاوند هما شكلان موسيقيان شهيران.

٩٣ درويش (٢٠٠٢) حالة حصار، ص٨٧

٩٤ المرآة هي رمز لمعرفة الذات والحقيقة في الوقت نفسه، أنظر :

Herder-Lexikon Symbole, (1998), S. 158159-

٩٥ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص١٣

٩٦ درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيداً، ص١٦٧

٩٧ درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيداً، ص١٦

٩٨ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٨٤

٩٩ الحديدي [صبحي] (٢٠٠٠) ص٣٨٤ [الترجمة من المؤلف]

١٠٠ هكذا قال درويش في إحدى المقابلات بأن المرء يجب أن يفصل الشعر عن السياسة "حتى لوكان شعري غير قابل للقراءة بدون الخلفية السياسية (...) لا يمكن لأي أن يدعي أنه لا علاقة له بالسياسة. DARWISCH (1998) 53-Palestina als Metapher, S. 52

١٠١ إلى جانب جميل بن معمر (أنظر قصيدة جميل بثينة في المجموعة ذاتها [سرير الغريبة]) فإن مجنون ليلى من نجد هومن الشعراء العذريين الأكثر شهرة، توفي كما يُظن عام ٦٨٨م. تروي أشعاره عن حبه الصافي الذي لم يتمكن من التحقق لحبيبته ليلى التي رفض أبوها زواجها منه فذهب عقله وصار يتجول في الصحراء يحادث السباع" ضائعاً ينشد الأشعار. أنظر: المنجد، ص٥٥٢. وكذلك JAYYUSI (1983): Umayyad Poetry, In: BEESTON, A.F.L.u.a (Hrsg): The Camorigde History of Arabic Literature to the End of Umayyad Period. Cambrigde,

.427-S. 418

١٠٢ كلمة Persona اليونانية تعني قناع

١٠٣ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص١٢١.

١٠٤ تشترك كلمة عابر مع كلمة عبري في جذر واحد في اللغة العربية.

١٠٥ درويش (سرير الغريبة)، ص١٢٢

١٠٦ يرجع أصل اليهود والعرب في الروايات الإسلامية إلى (إبراهيم) الذي هاجر إلى فلسطين بعد أن فرغ مع إبنه إسماعيل من بناء الكعبة في مكة. أنظر:

ET2 Band 3, S. 10041006- und Lexikon Arabische Welt. Hrsg. Von BARETH, GUENTER und STOCK, Kristina. Wiesbaden 1994, S. 12.

١٠٧ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص١٢٢.

١٠٨ درويش (١٩٩٢) أحد عشر كوكباً، ص٢١.

١٠٩ درويش (سرير الغريبة)، ص٢٣.

١١٠ درويش (سرير الغريبة) ص٢١٤. وهنا يقتبس درويش هاينريش هاينه لوجود بعض التوازيات بينهما، فهوحتى عام ١٩٧٠ كان يعاني بوصفه فرداً في أقلية ثقافية ودينية من التمييز من مجتمع معادٍ (مثل هاينه كيهودي في ألمانيا)، وقد ذهب أيضاً مثل هاينه إلى المنفى الباريسي. يصف هاينه نفسه بأنه تجسيد حي للكوزموبوليتي ولا يحمل أي تفهم للقومية الضيقّة. وكان هاينه يريد فصل الشعر عن الشعارات السياسية. مقتبس عن:

Unser Planet, erschienen 1833. KORTLAENDER, Bernd (2003) Heinrich Heine, S. 45

١١١ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص١٢٤.

١١٢ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص١٢٣.

١١٣ في الأدب الصوفي هناك تصورات عن ابن الغيب، وهوطفل يولد بدون أب ويتمتع بقوى غامضة

EI2 Band 2, S.1049.

١١٤ يعتقد ادوارد سعيد أنه يلاحَظ عند المنفيين اتجاه للنظر إلى انفسهم كأيتام، وأن مايدعوإلى الغرابة أنهم يتشبثون بهذه النظرة : "بصرف النظر عما قد يحققه المنفيون، فإنهم دائما غريبوالأطوار يشعرون باختلافهم (مع أنهم كثيرا ما يستغلون ذلك) كنوع من اليتم . "SAID (2000) , S.182

١١٥ هناك حقيقة العزلة والاقتلاع المجردة التي هي شكل من المازوخية التي تقاوم كل الجهود الساعية إلى التحسين والتثاقف والتماثل . على هذا الحد الأقصى يستطيع المنفي صنع حالة من فيتشية النفي، ممارسة تقصيه عن كل الارتباطات والالتزامات . SAID (2000) , S. 183

١١٦ درويش (١٩٧٧) الديوان، المجلد الأول، ص٦٨.

١١٧ يستطيع الشاعر الفلسطيني في الشعر فقط الإفلات من التناقض المتأتي من التخلي عن الذات في الشعر من جهة، وضرورة التمسك بذات تعي نفسها عند تمثيل المصالح السياسية من جهة أخرى.

١١٨ يشبه قيس المعاصر(محمود درويش) الشاعر اليهودي باول تسيلان الذي تحوّل مثل قيس إلى موضوع واضطر لمواصلة العيش بوصفه فكرة.هكذا كتب في رسالة إلى فِلّ فيسبر Will Vesper : " أنا (...) الذي لم يكن ." فالشاعر الذي سرقت منه تآليفه من خلال اتهام كلير غول له بالانتحال استخدم كلمة " لا أحد " في أشد معانيها يأسا بشعور " أنه يتحدث في فضاء مفرغ من الهواء ولا أحد يسمعه "

EMMERICH (2000) , S.191.

١١٩ جملة شهيرة للشاعر الفرنسي أرثور رامبوالذي مارس شعره تأثيراً قوياً على الشعر في القرن العشرين وبخاصة على أصحاب الاتجاه السوريالي.

KNLL (1991), S. 156.

١٢٠ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٢١.

١٢١ الفلسطيني كذلك يحمل سماءه معه "إن واقعنا يهاجر معنا ولم يرتبط مرة بمكان، الفلسطينيون يحملون واقعهم على أكتافهم في اللغة"

DARWISCH (1999) Palaestina als Metapher, S. 67.

١٢٢ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٢١.

١٢٣ درويش (٢٠٠١) لماذا تركت الحصان وحيداً، ص١١١.

١٢٤ حذّر فويشتفاغنر من "الانحباس" في الماضي الميت الذي يغلق الذات عن الحياة الحقيقية المحيطة بها، فهذا الانعزال الفخور يخفض من طاقة الشاعر ويجعلها قاحلة، إن مرارة كتاب المنفى (...) هي الأكثر عمقاً"

.FEUCHTWAGNER (1983), S. 201

١٢٥ درويش (٢٠٠٢) حالة حصار، ص٣٩.

١٢٦ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٢٣.

١٢٧ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٢٥.

١٢٨ درويش (١٩٩٩) سرير الغريبة، ص٢٣.

أوراق من الذاكرة

كارل عيسى صبّاغ: أطياف الذاكرة والهوية الأولى[1]

د. فيصل دراج

أنجز كارل عيسى صبّاغ كتاباً غير تقليدي، يجمع بين المعرفة التاريخية وتعليقات أدبية وأشياء من "تاريخ شخصي"، يمتد من ظاهر العمر "ملك فلسطين الأول"، في القرن الثامن عشر إلى اليوم. ولهذا "التاريخ الشخصي" ما يبرره، ذلك أن أحد أفراد عائلة الصباغ كان وزيراً لدى ظاهر العمر، أنجب أسرة تناثرت أجيالها، لاحقاً، كحال الفلسطينيين جميعاً، في بلدان مختلفة. فوالد المؤلف عمل مذيعاً في "محطة الإذاعة البريطانية"، وتزوج من سيدة إنجليزية، ودفعته ظروف الحرب العالمية الثانية إلى لندن، حيث ارتحل، لاحقاً إلى الولايات المتحدة، بعد أن مُنع من العودة إلى فلسطين، إثر "قيام دولة إسرائيل". وعاش ابنه مؤلف هذا الكتاب في بريطانيا، وأصبح "كاتباً إنجليزياً". ونقطة الانطلاق مأساة ١٩٤٨، التي حرمت الأب من الاستقرار في وطنه، وفرضت على ابنه إقامة لم يسع إليها. ولعل حنين البحث عن الأصول هو الذي أعاد كارل إلى من تبقى من أقاربه في فلسطين في عام ٢٠٠٢، حيث رأى موقع "حامية دير حنا"، أحد أمنع معاقل ظاهر، ولم ير "بقايا المدينة" لأن الإسرائيليين نشروا الخوف بين العرب قبل أن ينشروا الدمار في البيوت العربية.

عبّر الكاتب عن الظلم الذي وقع على أسرته وشعبه بكلام مقتصد، يخالطه الأسى والاحتجاج، ويسائل "سلطات غربية"، تتحضّر حين تريد، وتتوحش بلا اقتصاد، حين تريد أيضاً. نقف على "التاريخ الشخصي" في مشهد سريع: "قال حنا مشيراً إلى أحد البيوت المهجورة المبنية من الحجر:

"لقد كان هذا بيت عائلة صباغ، لا أحد يسكنه الآن. ص : ٥٧". فإذا ابتعد عن بيوت "دير حنا" الدارسة، ووصل إلى صفد التي أقفرت من العرب منذ "النكبة" قدّم مشهداً آخر. "أخبرته أن أصول عائلتي من صفد، وأن تاريخ عائلتي يعود لبضع مئات من السنين، فأخبرني بأنه قدم من فونيكس في ولاية أريزونا، وأنه في الأصل من مدينة سكوكي في ولاية إلينوي. ص : ٦٤". تبلغ السخرية السوداء المدى التي تريد، إذ الفلسطيني الذي عرفته صفد من قرون، ليس صفدياً، وإذ الأمريكي الذي ولد في "الولايات"، يمارس "حقوقه" في مدينة الفلسطيني غير المعترف به. بيد أن المأساوي، الخفيض الصوت، يتجلى في مطلع الفصل الثاني: "كنتُ أقود سيارتي في بعض الأنحاء الشمالية من إسرائيل في خريف ٢٠٠٣، بعد أن بدأت رحلتي من الساحل الغربي لبحيرة طبرية (أو بحر الجليل) وزرت فيها مدناً وقرى وهضاباً لا يسكنها أحد، انظر حولي إلى ما تبقى من "مملكة" ذلك الشيخ الفلسطيني، الذي حكم هذه الأرض في القرن الثامن عشر..." ما تبقى من مملكة الشيخ الفلسطيني، مع بعض التحوير والتعديل، هو ما بقي من فلسطينيين أجبروا على الخروج من وطنهم، ومنعوا عن العودة إليه. ولهذا جاء كارل عيسى الصباغ إلى وطنه "سائحاً"، وهو الذي تمنى والده، بعد الحرب العالمية الثانية، أن يعود إلى دولة فلسطينية مستقلة.

جعل كارل صباغ من مآل عائلته مرآة للمأساة الفلسطينية، إذ ما تبقى في "الوطن" يدمره الإسرائيليون، وإذ ما أخرج من الوطن تعطيه الغربة صياغة موجعة. حين يتذكّر أمه، التي انفصلت عن أبيه، بعد سنوات قليلة يقول: "لم تعرف أمي شيئاً البتة عن الشرق الأوسط ولم تحسن في حياتها أن تنطق اسم والدي الأول..."، ثم يكمل: "كنت عادة ما أتساءل عما تعنيه فلسطين لأمي، ومن هم على شاكلتها من الطبقة تحت المتوسطة على الأغلب. إن الصراع العربي الإسرائيلي قد تحوّل في أيامنا هذه إلى عناوين إخبارية ليس أكثر، ....، وهذا كله يبعدنا عن السبب الأساسي للنزاع...". في مواجهة الرأي العام الغربي الذي كان، ولا يزال، ربما، لا يعرف حقيقة المأساة الفلسطينية، يدافع كارل صباغ عن فكرتين ثابتتين: وجدت فلسطين شعباً وثقافة ومجتمعاً من قرون، على عكس المزاعم الصهيونية التي تلغي وجود الشعب الفلسطيني. أما الفكرة الثانية فتؤكد دور الرحالة والمستشرقين والمؤرخين الغربيين في إعطاء "الحق اليهودي" شكل البداهة، مقابل بداهة أخرى لا ترى أثراً للعرب في فلسطين، إلا إذا اختصر هذا الأثر في خيام ورعاة ومخلوقات بائسة.

بعد أن يمر صبّاغ على ما يرسم صورة فلسطين في التاريخ، يعزّز قوله، بما كتبه إدوارد سعيد :

"اكتملت الهوية العربية الإسلامية في فلسطين بنهاية القرن السابع للميلاد. وأصبحت بعد ذلك معروفة بحدودها وسماتها، ولا سيّما اسمها العربي (فلسطين)... ص: ٢٨.". وإذا كان حضور فلسطين في كتب الموروث العربي أمراً عادياً، فإن ما يثير الفضول، إلى درجة الدهشة، ماثل في الضعف الأخلاقي المريع لدى كتابٍ غربيين اخترعوا صورة فلسطين من غياب العمران ومن مخلوقات عربية بعيدة عن المبادئ الأولى للسلوك الإنساني. فالكاتب الأمريكي الساخر مارك توين، الذي ارتحل إلى فلسطين عام ١٨٦٧، لم يجد، كما يقول، إلا أرضاً "مهجورة" وبائسة، "تحتاج إلى من يبعث فيها الحياة". ويلاحظ الرحالة الإنجليزي لورانس أوليفانت في رحلته إلى صفد وجود اليهود قبل أن يتوقف أمام عرب تطغى همجيتهم على محاولاتهم البليدة للتحضر. ولن يختلف موقف الإنجليزي الآخر دبليو ام تومسون، صاحب كتاب "الأخلاق والعادات والمشاهد والصور من الأراضي المقدسة"، الذي لم يرَ في نابلس القرن التاسع عشر إلا مدينة عتيقة عجيبة راكدة...، كما لو كانت خالية من السكان.

ربما يكون الفصل الخامس "حكايات الرحلة" أحد الفصول الأكثر تأثيراً من هذا الكتاب الجدير بالقراءة. فقد أشار فيه المؤلف إلى الرحالة، الذين زاروا فلسطين في القرن التاسع عشر، ونشروا في كتبهم فكرة ثابتة مفادها أن سكان فلسطين لا اعتبار لهم ولا شأن بأرض فلسطين، وما هم إلا جمع فولكلوري من البشر، له علاقة بالصدفة الطارئة، وجوهه رجل يرعى أغنامه، وامرأة تسحب الماء من البئر، وخيمة و "المرأة صاحب الخدر"... وغيرها من الصفات النمطية المتوالدة لإنسان "أقل"، يشبه البشر ولا يشبههم في آن، ينتمي إلى زمن بدائي بعيد عن "الحضارة". لذا يبدأ صباغ "تمهيد الكتاب" بما يجمع بين التنديد والنقد والسخرية فيقول: "أنا ابن رجل فلسطيني، إلا أنني لا أحمل سوى القليل من الصفات التي ترتبط بالصور التقليدية المنطبعة في أذهان بعض الشعوب عن الفلسطينيين أو العرب، وأنا لست فقيراً، ولا كثّ اللحية، ولا أرطن بلغة إنجليزية ركيكة. ولا أحسن استخدام المسدس، ولا أعرف شيئاً عن تركيب القنابل. لا علاقة لي بالجمال، أو الرمال، أو أشجار النخيل. لكنني أتعاطف مع شعب فلسطيني، ولي روح ترتبط بهم. ص : ١١".

يؤكد صباغ سواءه الإنساني عن طريق النفي، فليس فيه ما يأتلف مع صورة العربي النمطية، فهو إنسان عادي يعيش في المجتمع الإنجليزي ويهتم بحقيقة الصراع العربي ـ الإسرائيلي، كأن ما يجعله إنساناً انسحابه من فلسطين لا غيره. وبقدر ما رفض إدوارد سعيد الصورة الإستشراقية للشرق، على

اعتبار أن الشرق اختصاص معرفي في خدمة السلطة، رفض صباغ صورة فلسطين في التصور الغربي ـ الصهيوني ، القائم على الكذب المدعوم بسلطة الأقوياء، ذلك أن الكاذب القوي لا يكذبه أحد، كما قال هنري كيسنجر ذات مرة. يوحّد الكذب بين الفكرة الصهيونية والنظر الاستعماري، أجاء من نابليون، ابن الثورة الفرنسية، أم وايزمان، الكيميائي والسياسي الصهيوني، أم وزير الخارجية البريطاني "بلفور"، الذي صاغ وعده الإجرامي بلغة مخادعة، تتغيّر دلالتها وفقاً للسياق. نقرأ في الكتاب: "ويصعب على المرء أن يتخيّل الحد الذي يمكن أن يصل إليه هذا التعصب الأعمى لماضي إسرائيل أو حاضرها، ومما يزيد الطين بلة أن الناس أصحاب المعتقدات الدينية، يهوداً كانوا أو مسيحيين، لا يستسيغون تجاهل معتقداتهم الشخصية، ...، وبوجود أمثال هؤلاء الناس الذين كانوا هم القادة السياسيين في أوائل القرن العشرين، تكون الساحة مهيأة للصهاينة ليحققوا نصرهم العظيم. ص : ١٠٨".

أفضى اختراع الماضي اليهودي في فلسطين إلى اختراع حاضرهم فيها، وأفضى الاختراعان إلى محو الزمن العربي ـ الفلسطيني، وإلى نظر تطبيقي يدمّر فلسطين العربية والفلسطينيين. تم الربط بين "أدب الرحالة الغربيين" وعلم الآثار "اليهودي"، قبل ترجمة الوحدة العضوية بينهما إلى وعد سياسي وقنابل ومندوب سامي ومطاردة للفلاحين الفلسطينيين الثائرين، الذين قصفتهم بريطانيا بـ "البراميل المتفجّرة" خلال ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩.

دارت المأساة الفلسطينية، ولا تزال، بين "طرفين" أوربيين، أحدهما مشدود إلى أساطيره الدينية، وثانيهما ينصر اليهود ويدعم أساطيرهم، التي هي قناع موائم للعنصرية والتوسع الأوروبيين. اقتنع الأول بأساطيره بقدر اقتناع الثاني بالمصالح الأوروبية التي تؤمنها، مدركاً أن قوة الأساطير من "القوة السياسية" التي تقف وراء الأساطير. حين أنجز وايزمان إنتاج مادة كيميائية تفيد الجيش البريطاني قال له لويد جورج وزير الحربية: " يسعدني أن أطلب إلى رئيس الوزراء أن يقدم توصية لتكريمك من صاحب الجلالة. أجاب وايزمان: كل ما أطمح إليه هو أن أجد فرصة لأقدم خدمة لشعبي..". تتكشف الغرابة في شكل التكريم: سرقة أرض شعب وتقديمها إلى كيميائي نجيب، كما لو كان تدمير الشعب الفلسطيني هدية تليق بعالم يخدم الأغراض العسكرية، وتتجلى في كلمة "شعبي"، ذلك أن يهود فلسطين في عام ١٩١٤، عام الاختراع الكيميائي، كانوا أقل من عشرة بالمئة. والمشهد برمته مرآة لتحالف القوة والمعرفة، الذي يستطيع أن يقتلع شعباً من أرض يعيش فيها

من مئات السنين ويجعل من الفلسطينيين في المراسلات السرية بين المنظمة الصهيونية والحكومة البريطانية "قلة لا يكترث بها أحد": "أما السكان الحاليون ، فأعدادهم قليلة جداً، وهم معدمون يفتقرون إلى المال والخبرة، ..ص:١١٣"، بل أنهم من الهامشية والتفاهة بحيث لا تنطبق عليهم مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسن" التي وعدت الشعوب الخاضعة للحكم التركي بالاستقلال التام. والمحصلة في الخطاب البريطاني ــ الصهيوني واضحة: "يرتبط التقدم بذكر اليهود، أما العرب فلا يرتبط ذكرهم إلا بالجمود والبذائة والحكومة العفنة، والمجتمع الفاسد الدجّال. ص:١٤٢". ولذلك بدا إنشاء دولة يهودية في سياق الاحتلال البريطاني لفلسطين، "تجسيداً لرغبة الأمة البريطانية ولرغبة الدول المتحضرة جميعها في العالم. ص: ٣٣". "الأمر الذي يعني أن طرد الفلسطينيين من وطنهم كان، بدوره، تعبيراً عن "إرادات شعوب ودول العالم المتحضرة..."

السؤال الذي يطرحه كتاب صبّاغ هو التالي: ما معنى التحضر وما هو التوحش في سياق استعماري منتصر؟ والجواب في العرف الاستعماري بسيط": يساوي التحضر قوة الطرف الذي يقول به، ويساوي التوحش ضعف الإنساني الذي يعتبر متوحشاً. فلا أخلاق إلا أخلاق القوة، التي لا تفصل بين الحقائق والأكاذيب. وبسبب القوة العارية، التي تناقض الأخلاق، يستطيع العالم الصهيوني أن يكون كاذباً ، وهو يبحث عن "شعب مخترع" ، ويكون كاذباً "الأديب الكبير مارك توين"، الذي لم يرَ بشراً في مرج ابن عامر، ويكون كاذباً الرئيس الأمريكي ولسن، الذي منع عن الفلسطينين حقوق الإنسان، والأمر على حاله مع عالم الآثار، الذي ينقّب عن آثار يهودية في فلسطين تعود إلى ثلاثة آلاف عام. ولن يختلف حال رجل الدين، اعتماداً على كذب متواتر جعل من فلسطين هبة إلهية. ولهذا قال العسكري أرسل شارون "المؤمن برب اليهود" أمام جمهرة من المسيحيين "هذه الأرض لنا والرب أعطانا صكوك الملكية"، ناسياً صناعة الإرهاب التي كرّس لها حياته كلها. ولعل قوة الكذب أو القوة التي لا تحتاج إلى الكذب، هي التي دعت روزفلت، الرئيس الأمريكي إلى القول عام ١٩٤٢: "أفكر في وضع أسلاك شائكة حول فلسطين، وأن أبدأ بطرد العرب منها،...، : ص٢٤٨". تسييج الأرض تعبير عن ملكية ذاتية مطلقة، تحمي الأرض من "المخلوقات العربية الخطرة".

بعد سؤال التحضّر والتوحش يأتي سؤال العقل الحداثي: كيف يجمع رئيس أمريكي، يّدعي الحضارة والديمقراطية والعقلانية بين القيم الحداثية والقبول بأساطير يهودية؟ والسؤال له علاقة بالعنصرية المطلقة التي تنظر إلى العرب كجنس متدنٍ بين الأجناس البشرية، لا يعرف معنى الوطن والسياسة

أو الدولة، ولا يستطيعون إدارة مجتمعه والتعامل مع الحضارة.

أنجز صبّاغ بحثاً عن تاريخ فلسطين الحديث، معتمداً مادة وثائقية واسعة، وأدرج فيها سيرة شخصية تضيئ الوثائقي، وتضع فيه بعداً روائياً. وإذا كان في الكتاب ما يحكي "ديمومة الهوية الفلسطينية"، التي تشهد على شعب وأرض محدّدين، فإن فيه صورة مرعبة، لا بالمعنى المجازي، للكذب الاستعماري والصهيوني. فكل ما قاله الاستعماريون للشريف حسين وأبنائه من بعده وللمسؤولين الفلسطينيين كان كذباً خالصاً، كما لو كان هناك نوعان من البشر؛ أحدهما جدير بالصدق والاعتراف، وهم اليهود والغربيون، وثانيهما من بلادة ورمال وهم الفلسطينيون والعرب.

استهل المؤلف كتابه بفصل عنوانه: فلسطين القديمة، وأغلقه بالفصل الحادي والعشرين الذي عنوانه: ضياع فلسطين. ارتكن إلى أسلوب الإقناع القائم على الوثيقة، وعين ذاته وعائلته أبعاداً حيّة لهذه الوثيقة الصادقة والمقاتلة، كاشفاً عن جذور المأساة الفلسطينية، التي هي نتيجة للغطرسة الإمبريالية، القائمة على العنصرية والمصالح والتفوق العسكري والمادي. لا مكان للأخلاق، أو ما يشبه الأخلاق، في النظر الاستعماري الغربي، أكان ذلك في الماضي أم في الحاضر.. ولهذا فإن استرجاع فلسطين، وهو شأن عربي ، يحتاج إلى انقلاب عربي عميق في النظر والممارسات والتعامل مع العالم،

أراد كارل صباغ أن يتوجّه إلى الجمهور الغربي، وأن يكشف له حقائق الصراع العربي ـ الإسرائيلي. غير أن الكتاب، في استقصائه المعرفي وشكل صياغته، قادر على "الحوار" مع القارئ العربي، وعلى تعليمه أموراً لا يعرفها، أو كان يعرفها وسقطت في النسيان، بعد مضي "زمن طويل على ضياع فلسطين".

(١) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٣، ٣٤٠ صفحة

عشتُ في زمن عرفات

عبد الفتاح القلقيلي

كان عرفات، ومازال، موضوعا يغري بالكتابة عنه. فكل من احتك به، ولديه امكانيات للكتابة، كتب عنه. فهذا الاخ بكر عبد المنعم، الذي كان احتكاكه قليلا نسبيا مع ياسر عرفات، ابدع كتابا طريفا بعنوان "ذكرياتي مع ياسر عرفات، قصص وحكايا، نوادر وحكايات".

صدر العديد من الكتب عن ياسر عرفات بعدة لغات، سأشير لبعض ما صدر باللغة العربية، للتمثيل وليس للحصر:

١- ياسر عرفات الرقم الصعب، تأليف رشيدة مهران، صدر عن مؤسسة الديار للطباعة والنشر، في تونس.

٢- ياسر عرفات بين بندقية الثائر وغصن الزبتون_ ذكريات ومواقف مع الزعيم الفلسطيني، تأليف ريموندا الطويل، صدر عن منشورات ريموندا الطويل في رام الله عام ٢٠١٠.

٣- ياسر عرفات، تأليف بسام ابو شريف، صدر عن رياض الريس للكتب والنشر في لبنان عام٢٠٠٥.

٤- ياسر عرفات وجنون الجغرافيا، تأليف نبيل عمرو، صدر عن دار الشروق في مصر عام ٢٠١٢.

٥- ياسر عرفات واقف في جفن الردى، تأليف داود ابراهيم، صدر عن دار الثائر للنشر والتوزيع في بيت لحم عام ٢٠٠٤.

٦- الرئيس _ سنوات مع ياسر عرفات، أحمد عبد الرحمن، صدر عن دار الشروق في رام الله عام ٢٠٠٦.

عند الكتابة عن ياسر عرفات يثور سؤال مهم: هل كان لعرفات "مدرسة" ام كان له "زمن"؟

لم تكن العرفاتية "مدرسة"، لان المدرسة منهج، يلتزم به العديد من اتباعها، وتكون النتائج متقاربة إن لم تكن متشابهة. ولكن العرفاتية كانت منهجا لعرفات لا يستطيع ان ينتهجه الا ياسر عرفات نفسه، وقد استحوذ من التاريخ على زمن صبغه بصبغته. فـ"الزمن" هو فترة زمنية محددة تأثرت بظاهرة او ظواهر معينة مما امكن صبغها (الى حد ما) بصبغة تلك الظاهرة. وقد درج الكتاب والمؤرخون على اطلاق مصطلح "عصر" على تلك الفترة الزمنية. وقد اصطبغت فترة عرفات بصبغته (سلبا او ايجابا). اي كان لعرفات "زمن" عاش فيه العديد من الكوادر والقيادات الفلسطينية، ومنهم احمد عبد الرحمن الذي ختم اعماله بالكتاب الذي نحن بصدد القراءة فيه، وهو "عشت في زمن عرفات".

صدر الكتاب عام ٢٠١٣ عن مؤسسة ياسر عرفات، والاتحاد العام للكتاب والادباء الفلسطينيين. كما صدر على حلقات رقمية على موقع "دنيا الوطن" الالكتروني في اواخر العام ذاته.

كان الكتاب من ٢٨ فصلا، في ٣٢٨ صفحة من القطع المتوسط، يضاف لها ملحق يحتوي على العديد من الصور الفوتوغرافية ذات الدلالة.

اذكر هنا ان منهجي في عرض الكتب هو "عرض تحريضي" وليس "عرضا تعويضيا"، اي لا اعرض الكتاب لأعوّض على من لم يقرأه، انما أعرضه لأحرّض من لم يقرأه بعد على قراءته. وهذا الكتاب ليس حريا ان يُقرأ فقط، بل جدير بأن يُقرأ ويُقتنى، للرجوع اليه عند الخوض في الحوارات سواء كان موقفك من الكاتب سلبيا او ايجابيا.

انطلاقا من منهجي بعرض الكتب (المشار اليه اعلاه) اشير الى ما يلي:

لقد كان الكتاب شاملا لكل الايجابيات والسلبيات مما يجعله (بحق) ارشيفا لـ"زمن عرفات"، فيه تفاصيل ادانة ياسر عرفات للارهاب، وتفاصيل مؤتمر مدريد، وتفاصيل اوسلو وملحقاتها ونتائجها من مؤتمر القاهرة الى مؤتمر طابا الى كامب ديفيد الى واي ريفر الى مؤتمر شرم الشيخ. ولا يعيب

الكتاب الا غياب محطتين مهمتين في "زمن عرفات"، وهما: احتجاز ياسر عرفات داخل اسوار "المقاطعة" في رام الله، ورئاسة الاخ ابو مازن للوزراء في "زمن عرفات".

وارى ان النقص الاول موضوعي لان احمد عبد الرحمن لم يُحتجز مع ابو عمار في "المقاطعة"، ولو كتب عن تلك المحطة ستكون رواية عن الآخرين الذين شهدوها وعاشوها. اما النقص الثاني فهو ذاتي لانني اعتقد ان احمد عبد الرحمن تجنب الكتابة عن رئاسة ابو مازن للوزارة لانها في حينه كانت قضية اشكالية، ولم يشأ ان يزج بنفسه في ذلك الميدان ملتزما بالمثل الشعبي الذي يقول: الباب الذي يأتيك منه الريح سدّو واستريح.

وهنالك بعض الذين قرأوا الكتاب يرون أن من عيوب الكتاب ان احمد عبد الرحمن ضخّم دوره في زمن عرفات. وانا إذ لاحظت تضخيم دور احمد عبد الرحمن الا انني لا اعتبر ذلك عيبا في الكتاب لان الكتابة عن احمد عبد الرحمن في "زمن عرفات"، وحتى آلة التصوير الفوتوغرافية الاكثر امانة بتصوير الواقع تضخّم الشخص الاقرب الى عدستها. فأية مذكرات، مهما كان المتذكّر موضوعيا ستُظهر دوره اضخم مما هو في الواقع. اي ان تضخيم دور احمد في هذا الكتاب لا يعتبر عيبا، وليس مؤشرا على قلة مصداقيته لان عنوان الكتاب "عشت في زمن عرفات" وليس "زمن عرفات الذي عشت فيه".

انتهى احمد عبد الرحمن من الكتاب في ٢٠١٣/١٠/٢٠.

بدأ كتابه بعد شهادته للتاريخ والاجيال بالفصل الاول الذي تحدث فيه عن "يساريته" في جامعة دمشق، وانضمامه لحركة فتح (لقطاعها الطلابي) عام ١٩٦٧، وكان عاطف ابو بكر مسؤوله التنظيمي. وينهي الفصل بتكليفه من قبل فاروق القدومي بالسفر الى السودان للاتصال بالحزب الشيوعي السوداني.

وفي الفصل الثاني تحدث عن جولته في اوروبا، وعن تأسيس اذاعة "صوت العاصفة" في مدينة درعا_ سوريا.

وفي الفصل الثالث يعرض تفاصيل تجربته في اذاعة "صوت العاصفة" في درعا بعد ان تسلم المسؤولية الكاملة عليها منذ نوفمبر ١٩٧٠، كما يعرض مبادرته في المؤتمر الثالث لحركة فتح في حمورية عام ١٩٧١، حيث فجّر "قنبلة" البرنامج المرحلي. ويقول احمد عبد الرحمن ان ما دفعه

الى النهج الجديد هذا ان عددا من الفدائيين اثناء اشتباكات الاحراش مع الجيش الاردني هربوا الى الضفة الاخرى من نهر الاردن وسلموا انفسهم للاسرائيليين.

اما الفصل الرابع القصير فقد تذكر فيه حضوره مؤتمر الحزب الاشتراكي التشيلي في عهد سيلفادور الليندي في شهر شباط ١٩٧٢.

اما الفصل الخامس، والذي عنونه بـ"سقوط الوصاية والاوهام"، فقد عنى بذلك سقوط مشروع المملكة المتحدة الذي اطلقه الملك حسين.

ويكرّس الفصل السادس للمحاولات السورية لاحتواء فتح والسيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية.

اما الفصل السابع فهو الاوسع من حيث دور احمد عبد الرحمن لانه مخصص لـ"مستقبل الاراضي الفلسطينية- بين المستحيل والممكن"، اي عصر البرنامج المرحلي، والصراع حول ذلك البرنامج.

والفصل الثامن كرّسه للحرب الرابعة (اجتياح اسرائيل للبنان عام ١٩٨٢). وفي هذا الفصل يفصّل العديد من الاحداث والمعارك والمخاطر التي تعرضت لها كل القيادات الفلسطينية وعلى رأسهم ياسر عرفات. كما انه من خلال ذكره للاحداث ينفي نفيا قاطعا اتهامه بالاختباء في "الحمرا" خلال تلك الفترة. وفي إطار هذا النفي يذكر احداثا تؤكد انه كان الى جانب ياسر عرفات وسعد صايل وابو جهاد.

وكان عنوان الفصل التاسع ونسيجه الخروج من بيروت الى تونس.

وفي الفصل العاشر يستعرض انحراف السادات وزيارته لاسرائيل، ذلك اليوم الذي قال فيه ابو عمار: "اليوم ضاعت فلسطين".

والفصل الحادي عشر كان مخصصا لمسألة اغتيال سعد صايل.

وفي الفصل الثاني عشر يتحدث عن الانشقاق في حركة فتح عام ١٩٨٣.

والفصل الثالث عشر مخصص لاحداث طرابلس.

وخصص الفصل الرابع عشر لرحيل ياسر عرفات من طرابلس الى اليمن، وزيارته للرئيس حسني مبارك في القاهرة، وما اثارته تلك الزيارة من اشكاليات.

وفي الفصل الخامس عشر يأتي احمد عبد الرحمن على نتائج زيارة ياسر عرفات للقاهرة وردّات الفعل الفلسطينية عموما والفتحاوية خصوصا.

واحتوى الفصل السادس عشر على توتر العلاقة مع الاردن، وحرب المخيمات في لبنان، تلك الحرب التي شنتها حركة "أمل" اللبنانية واعوان سوريا في لبنان .

اما الفصل السابع عشر فكان للانتفاضة التي رآها حركة فلسطينية شعبية في إطار البرنامج المرحلي ومنظور "الدولتين".

اما الفصلان الثامن عشر والتاسع عشر فكانا للعلاقة مع العراق. ويفصل احمد عبد الرحمن في مسألة اغتيال ابو اياد وابو الهول وابو محمد والتي كانت عذرا لياسر عرفات ليغادر بغداد في الوقت المناسب. ولولا تلك المغادرة في ذلك الوقت لربما كانت نهاية ياسر عرفات.

وكان الفصل العشرون مخصصا لآثار "ام المعارك" على الساحة العربية عموما وعلى الساحة الفلسطينية خصوصا.

واما الفصل الحادي والعشرون فكان للمرحلة الجديدة، بداية مسيرة التسوبة في مؤتمر مدريد.

وفي الفصل الثاني والعشرين يفصّل احمد عبد الرحمن حادثة سقوط طائرة ياسر عرفات في الصحراء الليبية، وخروجه سالما، مما يجعل ياسر عرفات جديرا بلقب "طائر الفينيق".

وفي الفصل الثالث والعشرين يتعرض الكتاب لمسألة عدنان ياسين الجاسوس الاسرائيلي في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في تونس.

وفي الفصل الرابع والعشرين يتحدث احمد عبد الرحمن عن عودته الى ارض الوطن مع الاخ ابو مازن في اوائل ايلول من عام ١٩٩٤.

وفي الفصل الخامس والعشرين يعود احمد عبد الرحمن الى تونس لانهاء علاقته هناك، وليبقى في رام الله في الفصول الثلاثة الباقية.

علم التوثيق (حكايات ومفارقات)

نزيه أبو نضال*

تكاد العمليات التوثيقية ترتقي إلى مصاف العلوم الإنسانية البحتة من حيث اشتراطاتها ودقتها وخضوعها لمعايير عقلية حاسمة، تجنبها الهوى والزلل، أو ما يلحق بالذاكرة من آفات الزمن، كالسهو أو النسيان، وأحيانا من رغبات (مشروعة) بأن يكون صاحبها (شاهد عيان) على ما يوثّق.. فالحكي ليس مثل الشوف، كما يقال، خاصة لمن تغرّب أو مات مجايلوه.

نحن إذن أمام ظاهرة ملتبسة يلتقي فيها العلم بنقيضه، أو الهدف وطرق الوصول اليه. ومن هنا ربما تبرز مفارقات التوثيق وحكاياته وإشكالاته.

ويكاد ينعقد الإجماع بوجود عناصر أساسية في التَّوثيق لا بد من توفرها منها: واضع الوثيقة، واسمها، وناشرها، ومكان وتاريخ النشر، وموضع الشَّاهد من الوثيقة كلها، وهي تسمية عامَّة لمختلف أنواع الوثائق، بمختلف أنواعها وأشكالها، بما فيها الكلام المنقول مشافهة.

ولكن إذا لم تتوفر كل عناصر التوثيق فلا بأس من ايراد ما تتوصل اليه، مع الاشارة الى عناصر النقص، فقد تستكمل الشروط التوثيقية لاحقا.

ولقد أتيح لي، وقد اشتغلت طويلا في حقل التوثيق، أن ألمس لمس اليد كم من الأمور الخاطئة يمكن أن تتسرب إلى عملك التوثيقي، رغم كل ما تبذله من حرص المدقق ونباهة الباحث.

ولعلنا نستحضر هنا واحدا من أخطر وأهم العمليات التوثيقية التي جرت في التاريخ العربي

* باحث من الاردن

والاسلامي، وهو علم الحديث، وما وضع له من قيود، ولرواته وأسانيده من شروط .. حيث اهتم العلماء على مر العصور بالحديث النبوي جمعا وتدوينا ودراسة وشرحا، واستنبطت حوله العلوم المختلفة كعلم الجرح والتعديل وعلم مصطلح الحديث وعلم العلل وغيرها، وتوضيح المقبول والمردود مما ورد عنه. وامتد تأثير هذه العلوم في المجالات المختلفة كالتاريخ، وما يتعلق منه بالسيرة النبوية وعلوم التراجم والطبقات..الخ.. لنصل في خاتمة المطاف إلى صحيحي مسلم، والبخاري الذي يقْسِم بحياته بسطاء الناس: "وحياة سيدي البخاري". ثم لنكتشف بعد كل هذه الجهود الجبارة أن بعض ما ورد من أحاديث لم يَخلُ من الزلل البيّن، كالعمر الذي تزوجت به السيدة عائشة.. ناهيك عن الإسرائيليات! ووفق يقين جازم من كبار علماء المسلمين.

انزياح كمبيوتري

وعود الى التوثيق..فحين كدت أنجز كتابي تمرد الأنثى الذي اشتمل على دراسات لأكثر من ٥٠ رواية نسوية عربية وجدت من المفيد أن أُلحق به ملحقا ببليوغرافياً لرواية المراة العربية الذي ضم ١١١٨ رواية بأقلام ٥٢٩ روائية (١٨٨٥- ٢٠١٣)، وقد نشرت هذه الببليوغرافيا في مجلة الجديد الصادرة عن دار الشروق، عمان.. فكان أن حدث انزياح كمبيوتري، خلال طباعة المجلة، أدى الى حدوث خلل متكرر بين اسم الكاتبة واسم روايتها.. وكان يمكن لبعض البسطاء اعتماد هذه القوائم بأخطائها، رغم إيضاح الخطأ في العدد اللاحق.. لكن الطريف جاء حين اكتشف أحد الباحثين الأمر، ودون أن ينتبه لهذا الانزياح فانقض عليّ تنكيلا، ساخرا من جهلي وافتقادي لمنهج التوثيق العلمي، رغم أن فتحي البس (رئيس التحرير) أوضح الأمر متحملا (كمطبوعة) المسؤولية، ولكنه لم يرمش له جفن، وواصل عمليات التنكيل لأسباب سياسية، على الأرجح، والأطرف في كل ذلك اتهامي بالسطو على دليل الكاتب الأردني الصادر عام (١٩٩٢) في انجاز هذه الببليوغرافيا، وفي العودة لهذا الدليل الحاسم وجدت فيه ٣٠ كاتبة، ويحتوي على ٥ روايات نسوية فقط لا غير (اثنتان لسميحة خريس وثلاثة لهيام الدردنجي) من أصل ١١١٨ رواية، وهكذا فإن ما يبدو علما يتحول بقدرة مغرض أو جاهل إلى نقيضه.

أحكام مرتجلة

وقد يتطوع البعض ممن يحمل لقب دكتور ليكشف أن أول رواية أردنية صدرت العام ١٩٦٤، وهي "زائرة نصف الليل" لعبد الكريم فرحان، ولأنني أشتغل منذ سنوات على توثيق الإبداع الأردني، فقد عدت إلى ببليوغرافيات الرواية الأردنية التي صدرت في كتابي "علامات على طريق

الرواية في الأردن" (دار أزمنة، عمان، ١٩٩٦)، لأجد أنه قبل رواية فرحان (١٩٦٤) صدرت ٣٠ رواية، منها لمحمد المحيسن "الأسير"، ١٩٣٣، روكس العزيزي "أبناء الغساسنة"، ١٩٣٦، وهناك روايات اشتهرت بتوثيق نكبة فلسطين، منها لعبد الحليم عباس: "فتاة من فلسطين" ، ١٩٤٩) ولمريم مشعل: "فتاة النكبة" ١٩٥٧، ولعيسى الناعوري: "بيت وراء الحدود" ١٩٥٩. الموضوع ليس خطيراً، لكنه يؤشر إلى فوضى التوثيق، وإلى استسهال إصدار الأحكام.

ميلاد غالب هلسا وسيرته

في كتابي غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية وثقت سيرة حياته، من خلال معرفتي المتصلة به منذ عام ١٩٦٤ حتى ليلة وفاته في مشفى الأسدي بدمشق في ١٩٨٩/١٢/١٨، وقد اشتمل الثبت الببليوغرافي لمعظم ما كتب وما كتب عنه، وهي حصيلة عملية جمع توثيقية استمرت أكثر من عشر سنوات، وأكدت من خلال معلوماتي وشهادة شقيقه الأكبر يعقوب هلسا (ابو رامي) أن ميلاده كان في ١٩٣٢/١٢/١٨، وهو نفسه يوم وفاته، ولكن واحدة من صديقاته أصرت أن ميلاده كان في تاريخ آخر، وربما كان غالب قد ذكر أي تاريخ في لحظة ما، لغاية في نفس يعقوب (لا أقصد يعقوب هلسا) فجرى تداول التاريخ الآخر إلى جانب التاريخ الحقيقي.

وفي توثيق سيرة حياته التقيت بالعديد من أصدقاء الطفولة والشباب (صالح حمارنة مثلا) ومن رفاقه في مصر الذين عاشوا معه العمل الحزبي والثقافي وتجربة السجون والمعتقلات، (د. صلاح حافظ مثلا) وقدموا لي شهادات دقيقة وموثقة عن سيرة غالب الذي أطلقوا عليه لقب النبيل، غير أن واحدا فقط ومن خارج السجن، قدم شهادة تشبه النميمة، في كتابه "النميمة"، ومثلها فعل كاتب عراقي في كتاب آخر عن "حكاية الصبي والصندوق".

وثمة ثالث لا أحب ذكر اسمه اتهم غالب بمعاداة كل ما هو فلسطيني حتى الشعر الفلسطيني والموسيقى الفلسطينية، رغم أنه طرد من مصر لدفاعه عن فلسطين، وكاد يدفع حياته وهو في إذاعة الثورة الفسطينية وفي خنادق المقاتلين، أيام حصار الموت في بيروت ١٩٨٢. وفقط لأن غالب كان آنذاك في خندق سياسي مضاد..

نعم قد تختلف زوايا الرؤية للشخص الواحد أو للواقعة نفسها، ولكن يبقى هناك ما هو أقرب الى الحقيقة، إذا ما صدقت النوايا، وابتعدت عن تصفية الحسابات مع الموتى.

* *

مذكرات أبو إبراهيم الكبير

غير أن أكثر الالتباسات والصعوبات التي واجهتني كانت مع مذكرات أبو ابراهيم الكبير. يقول يحيى يخلف "في إطار اهتمامنا بتسجيل وتوثيق تاريخ الثورة الفلسطينية، بل الثورات الفلسطينية للحفاظ على التجربة ومخزون الذاكرة، يأتي هذا الكتاب الفريد الذي يوثق ملامح هامة من تجربة مناضل وقائد وطني هو (أبو إبراهيم الكبير) أحد القادة العسكريين لثورة١٩٣٦، وأحد الشهود على أول تجربة كفاح مسلح قام بها الشيخ عز الدين القسام في أحراش يعبد.. يروي ذكرياته ويومياته... قائد عسكري، قلبه لوطنه وشعبه، يوثق مسيرته ومسيرة رفاقه وشعبه ببساطة، وتلقائية.. أدلى أبو إبراهيم الكبير بشهادته بأمانة وصدق، فكانت شهادة على زمن النهوض والكبوة، إنها شهادة على تجربة أصبحت تراثاً تنهل منه الأجيال". ورغم هذه الشهادة فالأمر لم يكن سهلا.. في شهر نيسان من عام ١٩٧٧، أي قبل وفاته بحوالي سنتين، كان أبو إبراهيم الكبير في زيارة لابنه صلاح (عضو قيادة إقليم فتح) في بغداد، حيث ولدت فكرة إجراء حديث مسجل ومطول معه.. كان عمر أبو إبراهيم آنذاك يناهز الثمانين عاماً، إلا أنه كان يمتلك ذاكرة مدهشة تختزن أدق الحوادث والتفاصيل. وقد استغرق حديث أبو إبراهيم عشرين شريطاً مسجلاً، ضمّنها خلاصة تجربته النضالية الطويلة، وتعتبر بهذا أطول مذكرات كاملة لأحد القادة الميدانيين لثورة ١٩٣٦. ولقد جرى تسجيل مذكرات القائد القسامي أبو إبراهيم الكبير خلال جلسات طويلة ومتفرقة، وتخللتها بعض الأسئلة لاستكمال مختلف جوانب التجربة النضالية الطويلة التي عاشها في مختلف المواقع. وسيكون من الطبيعي والحال كذلك أن يحدث خلال عملية تسجيل المذكرات، بعض التكرار أو أن تتوه، بفعل عامل الزمن، بعض الوقائع والمعلومات. ولا ننسى أن هذه المذكرات، قد سجلت بعد مرور حوالي نصف قرن على وقوعها، ودون العودة إلى الوثائق والكتب التاريخية. وهذه إحدى إشكالات التأريخ الشفوي.. مما احتاج منّا بالضرورة إلى تدقيق ومراجعة، وعمليات توثيق وفق المصادر العلمية التاريخية المؤكدة، وكذلك في البحث عن التقاطعات مع ما صدر من مذكرات ومؤلفات وأبحاث وشهادات تتصل بهذه المذكرات، في مراحلها وميادينها المختلفة، وثبتنا ما هو متقاطع منها في هوامش كل فصل، كي تضيء أو تضيف وربما تصوّب بعض ما أورده أبو إبراهيم في هذه المذكرات التي تمتد على مساحة ٨٠ عاما، وتشمل فلسطين وسوريا ولبنان والعراق.. وصولا إلى اليونان وألمانيا وروسيا واليابان وفرنسا ثم عودة إلى لبنان وسوريا وفلسطين وأخيراً في الأردن مستقره الأخير.

ورغم كل ما بذلنا من جهد فإننا بدورنا وقعنا في عدة أخطاء أشار لبعضها مشكورا عدد ممن قاموا بمراجعة الكتاب بعد طبعه، ومنهم: د. بيان نويهض الحوت،سميح حمودة، رشاد أبو شاور، حسن البطل، عمر صبري كتمتو.

إلا أنه رغم كل ما يمكن أن يسجل على هذه المذكرات من ملاحظات لا بد من الانتباه خلال متابعتها أن صاحبها كما محاوريه في بغداد كانوا مشدودين إلى التجربة القتالية العسكرية لأبو إبراهيم ورفاقه، ولكن يمكن للعين الفاحصة أن تلتقط إشارات بالغة الرهافة والأهمية عن التاريخ الاجتماعي والثقافي الفلسطيني، وصلته بالتاريخ العربي والوجدان القومي، وهذا ما قصرنا في إيضاحه.

الكاشف الفلسطيني

على مدار سنوات بذلت مع الصديق عبد الفتاح القلقيلي جهدا هائلاً لتوثيق سير واصدارات كتّاب فلسطين على مدار ١٠٠ عام، وعلى امتداد القارات الخمس، وكانت الحصيلة ٢١٥٠ كاتبا، أصدر كل منهم كتابا واحدا على الأقل، وكان بينهم، ٣٣٠ كاتبة. احتاج الكاشف إلى خمسة أجزاء، حوالي ٢١٠٠ صفحة من القطع الكبير، ويمكن قياس حجم هذا الانجاز بالمقارنة مع ما توصل اليه آخر المعاجم الفلسطينية وهو معجم طلعت سقيرق الصادر عام ١٩٩٨ إذ بلغ عدد الكتّاب لديه ٨٨٠ كاتبا، بينهم ٥٨ كاتبة. وكان من بين أسباب هذا الانجاز الى جانب الفارق الزمني (١٢ عاما) انفجار وسائل الاتصال الحديثة: الانترنت (جوجل) والإيميل والهاتف، وإمكانية الوصول إلى الكتاب، وإلى قوائم دور النشر.. الخ.. ورغم ذلك فقد واجهتنا صعوبات لا راد لها، فهذا المصدر يورد اسم كتاب دون تحديد جنسه الأدبي، هل هي قصة أم رواية فنية أم كتابة مقاربة كالسيرة الشخصية أو المذكرات أو الكتابة العاطفية الإنشائية..الخ..

وفي الكثير من المصادر يرد اسم الكاتب/ة دون الإشارة الى بلده/ا او الى المعلومات اللازمة عن الكتاب كمكان ودار النشر وتاريخ النشر.

وتُشْكَل الأسماء احياناً فيستحيل التمييز بين الإسم المذكر والمؤنث، حيث نجد تكرار استخدام الإسم نفسه للجنسين مثل: انعام واحسان وجنان وجمال وجهاد ونازك ونضال.. الخ ..

وإلى جانب هذه الالتباسات فقد سقطنا نحن في أخطاء بدائية، وسهونا عن أسماء كبيرة وقريبة منّا، وما زال شريكي أبو نائل (عبد الفتاح القلقيلي) يذكّرني في كل لقاء يجمعنا باسم هذا الكاتب أو ذاك ممن سهونا عنه! وسيكون من حق الآخرين بالتالي أن يسجلوا ملاحظاتهم عما ورد لدينا من أخطاء. وقد نوهنا الى ذلك في مقدمة الكاشف واعترفنا بأخطائنا وتقصيرنا، ودعونا الجميع للتواصل معنا لتلافيها.. ولكن البعض لم يكتف بممارسة حقه الطبيعي بالنقد، بل حكم علينا بالجهل وبغياب منهج التوثيق، ولا راد لقضاء الله!